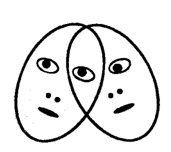


# الموقف الإسلامي من العولمة

**حوار تفاهم - وتبادل حضاري**


**إعداد**

**أ. د محمد وجيه الصاوي**

**أستاذ بقسم أصول التربية الإسلامية**

**ووكيل كلية التربية - جامعة الأزهر**



**الناشر**

**دار الفكر العربى**

٤٩ ش عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

اسم الكتاب : الموقف الإسلامى من العولمة
المؤلــــف : أ . د / محمد وجيه الصاوى
الناشــــر : دار الفكر العربى
الطباعــــة : النور للطباعة والكمبيوتر
الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-10-2139-7



يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ

[الحجرات : آية ١٣]

" ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ "

(سورة النحل، آية ١٢٥)



## مقدمة

إن رسالة الإسلام تدعو إلى التسامح والتعايش بين الناس واحتـــرام الآخر، واحترام مقدساته ومعتقداته، والإسلام دين يقبل التنوع والتعـــايش، انطلاقا من أن الاختلاف سُنة والتعارف واجب، وقد ظل الإسلام طيلة خمسة عشرة قرنا يحمل رسالة الحضارة إلى العالم ويساهم في دفع تقدم البشرية، من خلال التفاعل الخلاق بين الحضارات والمعارف والأخذ منها والإضـــافة إليها.

إن الإسلام، خاتم الأديان، وقد التفت مع عالمية دعوته وما تعنيه من امتداد في المكان والزمان، إلى أن يحمل في بنيته أسباب حياته إلى ما شاء الله، وقدرته علي احتواء كل ما تقذف به الأيام والحوادث وتطورات الحياة وتغير الناس من مستجدات وتبدلات لا تتوقف!.. تجلي هذا الالتفـــات فـــي الرؤية القرآنية التي ميزت بين الأصول والثوابت الخالدة، وبـــين الفـــروع والمتغيرات المحتوم أن يلحقها التنوع والتغير والتطور تبعا لنواميس الكون وسنن الحياة التي أرادها الخالق ﷻ فتضمن القـــرآن المجيـــد الأصـــول والثوابت والمبادئ والأحكام الكليـــة، ولـــم يعـــرض لتفاصـــيل وجزئيـــات المتغيرات مثلما استن في الشورى والمبادئ العامة للاقتصاد بإيراد المبادئ الكلية التي تحكمها دون التفاصيل، ليوسع علي الناس مالا بد ســـيواجهونه في بقاع الأرض ومع زحف الزمن والحياة، وليحافظ في الوقت ذاته لنفسه علي خاصية الحياة والامتداد والقدرة على إجابة حاجات النـــاس وتنظـــيم حياتهم تحت سقف دينهم في عالم متغير لا يكـــف لحظـــة عـــن التطـــور والترقي.. والتحدي أيضا!

"إن علاقة المسلمين بالآخرين علاقة صاغها القرآن الكريم في محكم آياته وإن قضية المساواة بين البشر جميعا مسألة ليست خلافية على الإطلاق وعلى أساسها تقوم العلاقة بين المسلمين وغيرهم.. أي بين المسلمين والآخر، وهي علاقة تقوم علي أساس التعايش الإيجابي الذي تحكمه مبادئ البر والعدل والمساواة، ومن هنا فإنه لا توجد هيمنة لشعب بعينه علي بقية شعوب الأرض، ولا وصاية من جهة ما علي الشعوب، وإنما يجب أن يكون بين الجميع تعايش سلمي عادل ودائم."([1])

لقد كانت هناك عوامل عدة أدت إلى ظهور الحضارة الإسلامية، وعلي رأسها عقيدة التوحيد، بما تحوي من مفهوم ومدلول لحقيقة الألوهية، وعلاقتها بالإنسان الفاعل في الحضارة والتاريخ، فنظره الإسلام إلى الإنسان، نظرة متوازنة فهو ليس مهمشا، وليس مؤلها في نفس الوقت، وإنما هو الإنسان الخليفة، أو النائب عن الله في الأرض وفي إعمار الحياة في جميع أشكالها.([2])

إن كل قضية من قضايا الحياة هي قضية دينية بالدرجة الأولى ومن هنا فإن المناقشات التي يشهدها العالم والمفاهيم الجديدة التي ظهرت في التسعينيات من القرن الماضي وفي مقدمتها قضايا العولمة وصدام الحضارات هي مناقشات دينية في المقام الأول.

إن العولمة قد أخذت الإطار الخارجي للعالمية التي هي سمة أساسية من سمات الإسلام ولكن الجوهر قد اختلف اختلافا واسعا، فالعولمة لم يؤخذ

---

[1])- محمود حمدي زقزوق، "القرآن الكريم حدد علاقة التعايش السلمي بين المسلمين وغيرهم " في ملتقى الفكر الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالتعاون مع وزارة الأوقاف بالأزهر، ٢٢ نوفمبر ٢٠٠١.ص ٨

[2])- جمال رجب سيدبي، "التواصل الحضاري" جريدة الأهرام، ٢٣ يونية ٢٠٠٢، العدد ٤٢١٩١.

فيها رأي الشعوب ولكنها جاءت من السلطات العليا، وإن موقف الإسلام من صراع الحضارات موقف واضح ولكن المفهوم الأوروبي الذي طغى علـــي هــذه المـــسألة جعلهـــا تأخـــذ شـــكلا داميـــا مـــن الـــصراع والـــصدام، "إن مفهوم العولمة الذي قام علي مجموعة من الاتفاقـــات أصـــبح حقيقـــة واقعة لابد أن نتعامل معها ولكن على أساس من قيم الإسلام الحنيف وليس علي الأساس التحكمي الذي تقوم عليه".

وتؤكد حقائق التاريخ أن التفاعل بين الحضارات والـــشعوب قـــانون حضاري، ومن ثم فليس من المعقول أن تنشأ حضارة من العدم، وفي هـــذا السياق نشأت الحضارات والثقافات بين شعوب الأرض قاطبة، والدراســـات الأنثروبولوجية تشير إلى مثل هذه الحقائق، أو أن هناك أوجه تشابه بـــين عادات وتقاليد الشعوب المختلفة، كانت هـــذه المقدمـــة ضـــرورية لطـــرح إشكالية التواصل الحضاري بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخـــرى سواء أكانت غربية أم غيرها.

وبعد:

يجب أن نرجع الفضل لأهله، فقد استفدت كثيرا مما كتبه المفكـــرون والباحثون من خلال كتبهم وكذا مناقشاتهم وطرحهم للقضايا عبر الإنترنت، إضافة إلى الجهد الذي بذلته الجمعيات والـــروابط الإســـلامية مـــن خـــلال لقاءاتها ومنتدياتها الفكرية، ومن ثم فقد أشرت إلى ذلك عند التوثيق فـــي الهوامش، وفي ثبت المراجع النهائية للكتاب.

آملا من الله العون والسداد لرفعة البلاد والعباد.

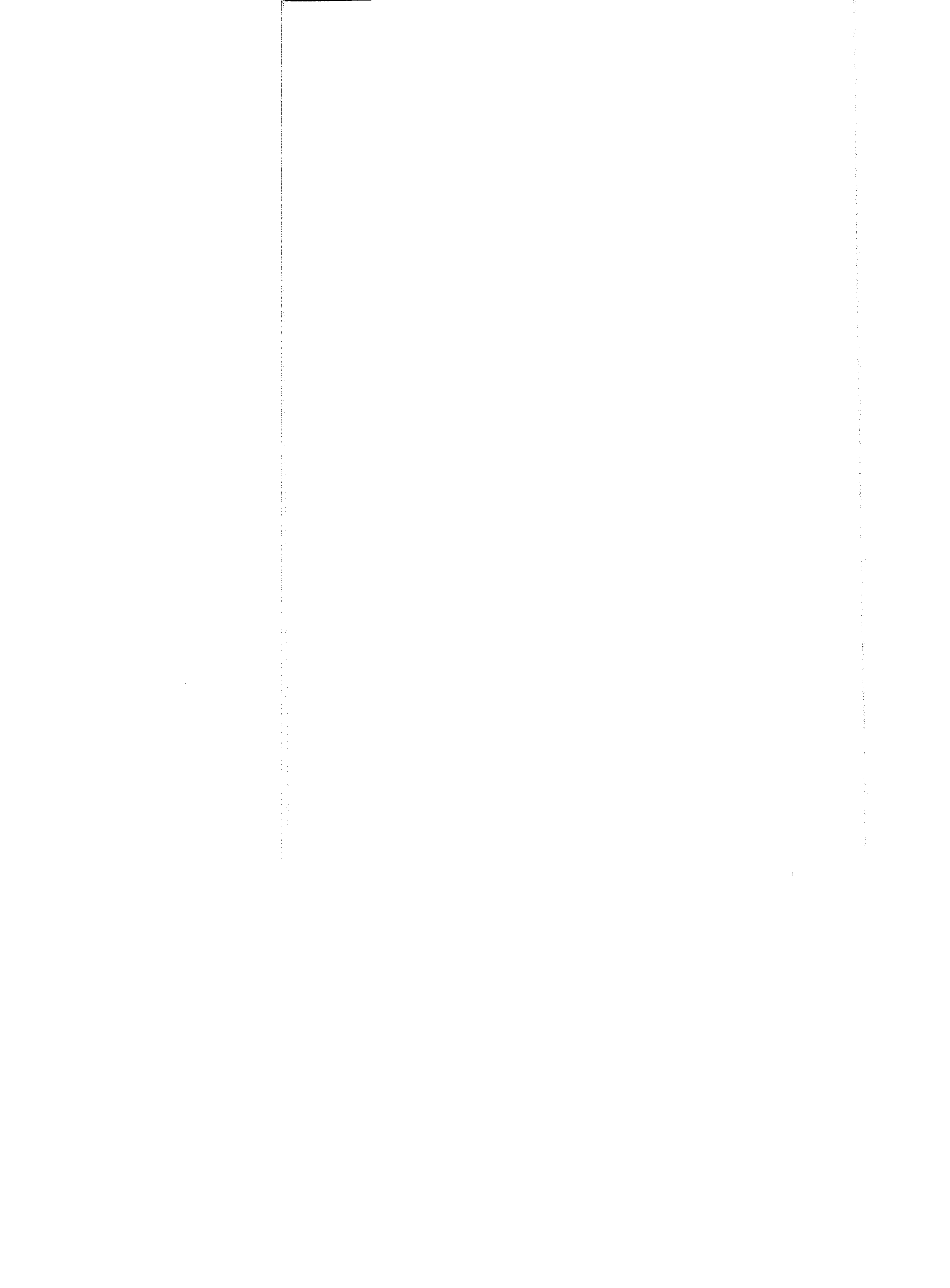
أ.د. محمد وجيه الصاوي

القاهرة في ٣ يناير ٢٠٠٦م

# فهرس

# الفَصْلُ الأَوَّلُ

## مصطلحات ومفاهيم



# مصطلحات ومفاهيم

## مُقَدِّمَة

في هذه الدراسة نتناول مصطلحات فكرية تستدعي التوضيح والإفصاح عنها في سياق له مدلول محدد لكي تتضح الرؤية وتتسق المعاني من أجل المزيد من الوضوح، ومن ثم فإن الدراسة تتناول الكثير من المفاهيم منها: الآخر، الحوار، الصراع، العولمة، التفاهم الحضاري.

**الإسلام:**

"الإسلام" ديناً هو الرسالة السماوية الخاتمة التي أرسل الله ﷺ محمداً بن عبد الله بها "شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأمره وسراجاً منيراً"، وهذه الرسالة تمثل الحلقة الأخيرة في سلسلة الرسالات التي حملها رسل الله السابقون الذين كانوا مسلمين لله، والمؤمنون بهذه الرسالة الخاتمة ينسبون للإسلام فهم "المسلمون". وكتابهم هو "القرآن" الذي نزل به الوحي الأمين على الرسول ﷺ؛ وهو يتضمن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، ومن هذه الكتب التوراة والإنجيل المنزلان على موسى وعيسى عليهما السلام، وقد نظر المسلمون إلى اليهود والنصارى المسيحيين على أنهم "أهل كتاب". واحترمت دولة الخلافة الإسلامية معتقداتهم، إذ "لا إكراه في الدين" واعتبرتهم في "ذمتها" فهم "أهل ذمة" لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

الإسلام حضارةً، هي تلك الحضارة التي أقامها المسلمون وغير المسلمين من شعوب الدولة الإسلامية على اختلاف مللهم وأقوامهم، وانتموا جميعاً إليها. وقد عرفت باسم "حضارة الإسلام" أو "الحضارة الإسلامية"، وتمثلت

حضارات سبقتها، وهي اليوم في القرن الخامس عشر من قيامها، واحـــدة من ثماني حضارات في عالمنا المعاصر.

والإسلام دائرة حضارية هو ديار المــسلمين أو العــالم الإســلامي أو بتحديد أدق جميع الأقطار التي تنتمــي شــعوبها لحــضارة الإســلام مــن المسلمين والمسيحيين واليهود وملل أخرى، وهي تمتد في قــارات العــالم القديم آسيا وإفريقيا وأوروبا، وهناك من أبنائها من هــاجر إلــى العــالم الجديد.

## الحقوق والحريات في الإسلام:

استطاعت العقيدة الإسلامية، عقيدة التنزيه للألوهية، أو الله الكامــل بكل معاني الكمال وعلاقتها بالإنسان الخليفة، أن تقيم حضارة سامقة شهد لها التاريخ بالرسوخ والكمال، ولم تبدأ هذه الحضارة في احتفائها بــالعلوم من فراغ، إنما تفاعلت مع الحضارات السابقة، ولو نظرنا إلى تاريخ الدولة العباسية لوجدنا أن أهم سماتها وجود حركه الترجمة النشيطة فــي عهــد الخليفة المأمون.

لقد كان الخليفة المسلم مهتما بترجمة علوم اليونان، مثل طب أبقراط وفلسفة أرسطو، وطب جالينوس وغيرها من الفنون والعلوم، وكــان مــن أشهر المترجمين في ذلك الوقت حنين بن إسحق وإسحق بن حنين، ولقــد استوعبت أيضا هذه الحضارة العديد من العلماء من مختلف الملل والنحــل من اليهودية والمسيحية والإسلام، وعاشوا في كنف هذه الحضارة، آمنين مطمئنين علي حياتهم ومستقبلهم، لأن هذه الحضارة عرفت التسامح بأوسع معانيه، ولم ترفض مبدأ التعايش مع الآخر، بــل شــارك الآخــر بفاعليــة وتواصل في إقامة صرح هذه الحضارة.

**من جانب آخر، فإن الحضارة الإسلامية لم تقف عند حدود التواصل مع السابق، وإنما تأثرت وأثرت، أقول تأثرت بالسابق، كما أشرنا آنفا، وأثرت في اللاحق، كما سنشير لاحقا.(1)**

**لقد كان لآراء علماء المسلمين في الغرب الدور الكبير في نقل الفكر العلمي والفكر الفلسفي، مثل فلسفة ابن رشد والتي أثرت تأثيرا كبيرا في أوروبا في العصر الوسيط، وكذلك الآراء العلمية لعلماء المسلمين.(2)**

**لقد اعترف المنصفون من علماء الغرب بتأثرهم بعلماء المسلمين أمثال روجر بيكون وغيره من العلماء، وهذا إن دل علي شيء فإنما يدل علي أن الحضارة الإسلامية بعلمائها ومفكريها كانت هي المشعل والمقدمة الضرورية لعصر النهضة في أوروبا، ولعل الكتابات المنصفة من المؤرخين الغربيين لتؤكد مثل هذه الحقيقة، مثل كتابات "زغريد هونكه" في كتابها شمس العرب تستطع علي الغرب، و"جوستاف لوبون" في كتابه حضارة العرب وغيره من كتابات منصفة في هذا الخط.**

**لقد آن لنا الأوان نحن المثقفين أن نعيد النظر في تاريخ الحضارة، وأن نقول عنها: إن الحضارة الإسلامية لم تعرف الانغلاق أو الانكفاء علي الذات، وإنما هي حضارة التواصل أو التفاعل مع الآخرين، أعتقد أن ما قدمنا آنفا ليبرهن بالحجة والدليل أن حضارتنا حضارة تواصل لا انقطاع، تعايش لا انعزال، تنشد الخير للجميع، والسعادة للبشرية جمعاء(3)**

(1)- جمال رجب سيدبي، "التواصل الحضاري" جريدة الأهرام، ٢٣ يونية ٢٠٠٢، العدد ٤٢١٩١.

(2)- جمال رجب سيدبي، المرجع السابق.

(3)- المرجع السابق.

لقد أتى الإسلام ليضع للناس شريعة حياة وقانون عمل وأصول علاقة كان الأصل فيها احترام كل حقوق الناس مما يمكن تحديده أو تحديد معظمه في عدة نقاط: ([4])

١- حق الإنذار والتوجيه والتبشير وبيان الحد الفاصل بين الهداية والضلال، فكانت الرسالات المقدسة والأنبياء والرسل والكتب السماوية والأحاديث وسنة الأفعال والأعمال مادة هادية للحق وكاشفة عن الباطل.([5])

٢- حق اختيار العقيدة من خلال تكريم العقل، والدعوة إلى ضرورة إعماله، وتحريم إبطاله وتعطيله، فكان مطلب التفكر والتدبر والعلم والتفقه، ومثل ذلك كان تكريم أولي الألباب وأولي النهي، فكان إعمال العقل حقا ممنوحا للإنسان دون مصادرة أو تحقير أو ازدراء أو إيقاف أو تهميش.

٣- حق المساواة بين البشر، فكلهم يعبدون إلها واحدا للكون وكلهم لآدم، وآدم من تراب، خلقهم الله ﷻ شعوبا وقبائل ليتعارفوا في ظل رابطة روحية دينية أساسها التوحيد بعيدا عن التفاخر بالأصول أو الأجناس أو الألوان أو الطبقات، فكانت المساواة في الإسلام أصلا لا يباري، فلا فرق بين بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وأي عربي إلا بالتقوى.

٤- حق التآخي والتآلف والتسامح بين البشر، بعيدا عن منطق القهر أو الظلم، أو السخرية من الآخر، أو رفضه أو معاداته، فبدا منطق التآخي من الحب في الله وحب رسوله إلى حب الإنسان لأخيه الإنسان،

---

[4]- عبد الله التطاوي، "بل كان مولدا لحقوق الإنسان" جريدة الأهرام، ١٣ مايو ٢٠٠٣، العدد ٤٢٥٢٦.

[5]- المرجع السابق

فالمؤمن يألف ويؤلف، فكانت الدعوة المؤكدة للأخوة في ظلال حب العقيدة، وهي أخوة التكافل والتكامل مع الآخر، والتفاعل مع همومه كالبنيان والجسد الواحد، إلى جوار أخوة التسامح والصفح والعفو عن السيئة، ومقابلتها بالحسنة ثم الاكتفاء من العدوان برده بمثله ورفض المبادأة به.

٥- حق الاحترام والمحافظة علي كيان الذات، بدءا من توقير الكبير، إلى الرحمة بالصغير والضعيف، وانتقالا إلى مطلب طهارة اللسان وعفة المنطقة من خلال الكلمة الطيبة وتجاوز الكلمة الخبيثة، والدعوة إلى الإحسان إلى الآخر وعدم التنابذ بالألقاب، والنهي عن الغيبة والنميمة وذكر الإنسان بما يكره، مع الدعوة إلى رفع الظلم عن الآخر وسيادة منطق الإنصاف والحق المطلق.

٦- حق الأمن للإنسان علي نفسه وماله وعرضه، حيث يبدو كله علي المسلم حرام، بما يضمن له سلامة ماله من النهب والسلب، وسلامة دمه من الإهدار، وسلامة عرضه من المساس، وجميعها منازل رفيعة المستوي ضمت أعلى منازل حقوق الإنسان حتى يعيش آمنا في سربه، هادئا من الروع والفزع يستعين بقوت يومه علي ممارسة حياته في ظل سلام اجتماعي وسياسي، فالإسلام يدعو أساسا إلى كل صور السلام.[٦]

٧- حق الانتصاف من الآخر إن أوقع به ظلما أو أذى، حيث يتولى ولي الأمر القيام بالمهمة في إحقاق الحقوق للضعفاء، والانتصاف لهم من الجبارين والأقوياء دون أن يترك الأمر فوضي لقدرات الناس أو ضعفهم.

---

[٦]- عبد الله النطاوي، "إنه مولد حقوق الإنسان" جريدة الأهرام، ٢٣ مايو ٢٠٠٣، العدد ٤٢١٧١.

٨- حق الشورى والمراجعة والمشاركة، وحرية إبداء الرأي والحوار، فكان الأمر شوري بين القوم، وكان المصطفي ﷺ يشاورهم في الأمر، وسار علي نهجه الراشدون المهديون قبل أن تتحول الخلافة إلى أنظمة استبدادية مطلقة، حادت عن منطق السماء إلى منطق استيعاب حضارات مجاورة بين فرس وروم وأنظمة كسروية وقيصرية.

٩- حق الاجتهاد والاختلاف والتعددية الفكرية، دون إخلال بالأصول، أو تجاوز أو شطط قد يؤدي إلى الفوضى، خاصة فيما يحسن التسليم به غيبا مطلقا، أو مقدرا علي غرار ما ظل قائما في العلم الإلهي حول أمر الساعة، ونزول الغيث ومصائر ما في الأرحام والموت والأرزاق.

١٠- حق التعايش مع الآخر في سلام اجتماعي تضمنه الأبعاد الاقتصادية، وتكفله مقومات الحياة المادية، مما يمكن تأكيده من خلال الإنفاق في سبيل الله ضمن أبوابه المقننة شرعا، ومثلها أبواب الصدقات والزكاة بما أحاطها به الإسلام من احترام نفسية المزكي وتطهير نفسه وماله، وضمان عفة الأخذ والمحافظة علي كرامته بعيدا عن المراءاة والمن والأذى والإذلال.

١١- حق التقاضي والحصول علي الحقوق، من خلال الطرق المشروعة والإشهاد، وإقامة العدل وحماية الإنسان من بطش الأقوياء وبلطجة الجهلاء، والحرص علي البحث عن الحق بعيدا عن التمادي في الباطل.(٧)

١٢- حق الإجارة والإغاثة والنجدة لكل من حلت به ضائقة، أو أصابه خطب أو كارثة، فكان حق الجوار واجبا يكمله مشهد الإجارة علي إطلاقه حتى للمشرك، وكان مطلب إكرام الضيف ومساعدة المكروب

---

[٧]- عبد الله التطاوي، ، المرجع السابق.

بتفريج كربته، وإعانة الضعيف، وعيادة المريض، وإنشاء السلام، وحتى السير في جنازة الموتى وتشميت العاطس، وغيرها من أبسط حقوق الإنسان وأرفعها شأنا وتحضرا وأعلاها منزلة ومكانة بدءا من إفشاء السلام بين الناس، مدخلا إلى تامين الحياة بالرحمة والبركة والخير.

١٣ حق متواصل للإنسان في كل مراحله العمرية، منذ حدد للطفل حقوقه حملا وولادة ورضاعا، إلى حق الشباب في استغلال وقته وفراغه وصحته وإيمانه وتقواه في دينه ودنياه، إلى حق الكهول في مرحلة الرزانة والتعقل وتحمل عبء الآخر، إلى مراعاة الشيوخ والآباء بعيدا عن الضجر والشكوى أو الإهمال أو الازدراء أو التجاهل والنسيان.

١٤- حق متعدد لأجناس البشر بعيدا عن الإغفال أو الإجحاف، فكان للمرأة حقوقها التي أنقذتها من مهانة الجاهلية التي ابتذلتها وهضمت حقوقها، فأحالتها إلى مجرد متاع عبر زواج الشغار وغيره، وبدءا قبل ذلك حتى من ظاهرة وأد البنات والمفاخرة بالأولاد، فسرعان ما أعطاها الإسلام حقها راعية لبيتها، مربية لأجيالها، قائمة علي أمور الأسرة المسلمة، لها حق إبداء الرأي وحق التعلم وحرية الاختيار في موازاة كل حريات الرجل في العقيدة، إلى جانب حفظه لوقارها وكرامتها من أن تصاب بأذى أو تخدش من قبل الرجال.

١٥- حق العلم والتعلم لكل العلوم المدنية والكونية الدنيوية والتفقه في الأحكام والتشريع وتلمس الأسباب والبحث في الأسرار، مع حرية الفكر دون مصادرة أو تعطيل أو إيقاف أو طبقية، مع التحذير من رداءة انزلاق الإنسان إلى مواطن الخطر بارتكاب الكبائر التي يأباها الإسلام، وتأباها الفطرة السليمة والمنطق القويم، من شهادة الزور أو الكذب أو

الخيانة أو ما يشبهها من آيات النفاق والفوضى والبلطجة التي تـودي بحركة المجتمع في غيبه الأديان والقيم، واحترام الثوابت والمقدسـات والكف عن المجاهرة بالفحش وسوء الأخلاق مما يتنافى مـع طبـائع الأديان.

هذه نقاط تظل بعضا من كل عظيم جاءت منظومته متكاملـة البنيـان متجانسة الأركان، لتظل ترسم صورة حضارية راقية للمـسلك الإنـساني الرفيع، في كل زمان ومكان، هي قيم مطلقه، يبقي للبشر تحويلهـا إلـى حقوق نسبية، بمقدار تشبثهم بها ومحافظتهم عليهـا، أو جـورهم علـي بعضها، أو إغفال أو تهميش جوانب منها، فكان مولد المـصطفي رسـول البشرية الأعظم، هو مولد حقوق الإنسان بلا نقص ولا مواراة ولا عـوج ولا أمت، إلا ما جاء به الإنسان حين جار علي مسيرتها باعتباره ظلومـا جهولا قد يعصف بالآخر، لأن الظلم من شيم النفوس أحيانا، وهو ما حذر منه الإسلام في دعوته إلى جهاد النفس وتصنيفها بين الأمارة بالـسوء، والمطمئنة واللوامة، فكانت حقوق الإنسان منظومة متكاملة المولـد منـذ النشأة، مما يدعونا إلى الاحتفاء بها إحياء وتجديدا مع مولد صاحبها عليه السلام ليظل مولده الشريف مدخلا إلـى المولـد الـصريح لكـل حقـوق الإنسان.(8)

## الآخر:

الآخر يتحدد تبعاً للمتكلم مفرداً كان أو جمعاً (أنـا ونحـن) وجمعـه "الآخرون". وهو مرتبط بالذات والذوات، وقد شاع استخدامه للدلالة علـى "الغير"، ويفضّل طاهر لبيب محرر كتاب "صورة الآخر" استخدام مـصطلح "الآخرية" بدلاً من "الغيرية"، والآخرين بدلاً من الأغيار، وهـو يلاحـظ أن

---

8)- عبد الله التطاوي، المرجع السابق.

الجهل بالآخر ومن ثم رفضه ظاهرة متفشية بين الثقافات، والحق أن المعرفة بالآخر غنى والجهل به فقر، وينبّه طاهر لبيب أيضاً إلى "أن العزلة الثقافية تؤدي إلى العنصرية، وأن صورة الآخر ليست هي الآخر"، ونضيف وهي تختلف تبعاً للمعرفة أو الجهل به، وقد أوضحت في كتابي "الحوار العربي الأوروبي" أن هناك في واقع الأمر أربع صور تتعلق بالأنا وبالآخر، هي صورته عني، وصورته عن نفسه، وصورتي عنه، وصورتي عن نفسي، وهي ليست متماثلة([٩]).

والآخر موجود في كل دوائر انتماء "الأنا"، الانتماء الوطني لقطر له "جنسية"، والانتماء الديني، وفي إطاره الانتماء المذهبي، والانتماء القومي، وفي إطاره الانتماء الطائفي، والانتماء الحضاري الذي يجتمع الأنا والآخر في دائرة الانتماء الإنساني لأمّنا الأرض وللبشرية جمعاء([١٠]). وقد عبر عن الإدراكِ بهذه الحقيقة الشاعر العربي بقوله "إذا كان أصلي من ترابٍ فكلّها بلادي وكل الناسِ فيها أقاربي"

نركز النظر على الانتماء الحضاري، فنجد أن "الآخر" بالنسبة للمنتمي للحضارة الإسلامية هو المنتمي لواحدة من الحضارات الأخرى في عالمنا، وقد أوضحت في كتابي "عرب ومسلمون وعولمة" بعد أن استعرضتُ عدداً من الآراء بشأن هذه الحضارات "أن الرأي الذي نطمئن إليه بعد إعمال فكر وإمعان نظر، هو أن هناك اليوم ثمان دوائر حضارية يمكن التمييز بينها تكشفها النظرة المحيطة، وتسود في كل منها حضارة غالبة لها خصائصها، فهناك الغربية بفرعيها الأوروبي والأمريكي

---

[٩])- أحمد صدقي الدجاني، "الحوار مع الآخر في الإسلام"، ورقة قدمت إلى مؤتمر الإسلام وقضايا العصر، الأردن: عمان ١٦-١٧ ديسمبر ٢٠٠٢. ص ٣١١

[١٠]) أحمد صدقي الدجاني : الحوار مع الآخر في الإسلام ،عمان، التسامح، ع٢ السنة الأولى ربيع ٢٠٠٣ ص ص١٨-١٩

الشمالي، والحضارة الأمريكية الجنوبية التي جاءت ثمرة تفاعل حضارة المستعمرين المستوطنين الغربيين القادمين من شبه جزيرة أيبريا مع حضارة سكان البلاد الأصليين مع الحضارة الإفريقية المتأثرة بالحضارة الإسلامية، ونحن مع الرأي الذي يميزها عن الحضارة الغربية، وهناك الحضارة الصينية والكونفوشوسية، والحضارة اليابانية في أقصى الشرق في آسيا، والحضارة الهندوكية في الهند، وهناك الحضارة الأرثوذكسية السلافية في روسيا وأوروبا الشرقية الجنوبية، وهناك الحضارة الإفريقية السائدة في جنوب الصحراء في قارة إفريقيا، والحضارة الإسلامية بفروعها في آسيا وإفريقيا.

فإذا ما ركزنا النظر على الانتماء للدولة الوطنية القُطرية بحدودها القائمة، نجد أن الآخر هو المقيم فيها أو الزائر لها الذي يحمل جنسية أخرى، فهو "غير مواطن".

و"الآخر" بالنسبة للانتماء الديني هو من يعتنق ديناً آخر، فهو عند المسلمين واحد من غير المسلمين الذين لديهم ديانات أخرى، وهو أيضاً بالنظرة المذهبية في الدين الواحد ينتمي لمذهب آخر.

نسوق مثلاً على هذا التعدد لمفهوم الآخر تبعاً لدائرة الانتماء، ما طرحه يوسف القرضاوي عن "الحركة الإسلامية والأقليات العرقية والدينية وعنها والحوار مع الآخرين" الذين صنفهم إلى علمانيين، وعقلاء الحكماء، والعقلاء في الغرب، والحوار الديني (الإسلامي المسيحي)، والحوار الفكري (مع المستشرقين) والحوار السياسي مع الغرب([11]).

---

[11])- يوسف القرضاوي، "أولويات الحركة الإسلامية"، الدوحة: ١٩٩٠ . ص ١٥٨

## أنا والآخر:

نحن في (علاقة مشوّهة) .. مع النفس![12] هي قبل كل شيء لحظة المواجهة مع النفس قبل المواجهة مع الغرب أو الشرق رغم شراسة الهجمة المعادية، وذلك تصحيحاً لهذه (العلاقة المشوهة) التي طالت وتطاولت، رغم أنها من المسكوت عنه في معظم الخطاب العربي الحديث والمعاصر .

أود تعديل السؤال إلى ما هو أعمق من العلاقة مع غرب أو شرق، إن سؤال ملف (العربي) بصيغته المحددة سؤال مطروح وملح، لكن الأكثر إلحاحا هو إشكالية (العلاقة المشوهة مع النفس)، نعم إنها (علاقة مشوهة) ــ والتعبير دقيق ونافذ ــ لكن خطورتها الأشد أنها مع النفس لذلك فهي تنعكس على العلاقة مع (الآخر).

هي إذن قبل كل شيء لحظة المواجهة مع النفس أولا، المواجهة مع النفس، من أجل المصالحة مع النفس، بكل أبعادها الجمعية والفردية، التاريخية والحضارية، المجتمعية والسياسية، وذلك ما حاول كاتب هذه السطور التنبيه إليه في كتاباته منذ عقود.

"إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (11) الرعد"، لنكن قادرين على الاعتراف بأننا نعيش (علاقة مشوهة) مع أنفسنا قبل أن نعيشها مع الغرب، إننا نعيش الصراع الحضاري الذاتي مع الموروثات المتعارضة المتراكمة عبر عصور تاريخنا المزدهر والمنحدر على السواء ضمن خليط من النقائض والأضداد في صميم تكويننا المجتمعي والحضاري، دون حسم، ودون أن نجرؤ على ترك ما هو تاريخ للتاريخ،

---

[12])- محمد جابر الأنصاري، أنا والآخر ذلك النفس، مجلة العربي، العدد ٥١٨، الكويت، يناير ٢٠٠٢، ص ٣٣

وإبقاء ما هو حاضر ومستقبل للحاضر والمستقبل، إننا نعيش اليوم خليطا نشازا من عصور المماليك والعـصور الحديثـة وشخـصيتنا الجماعيـة المعاصرة متحف متحرك لكل المعروضات بلا تمييز أو هوية.

لماذا وصل الآخرون من هند وصين ويابان إلى ما وصلوا إليه ولـم نصل نحن.. بعد؟ سؤال طرحه أستاذ متخصص في التـاريخ العربـي[١٣] ومازال من الأسئلة التي تتحدى قدرتنا على الإجابة.

إن البيت المنقسم على نفسه لا يمكن أن يواجه الآخرين، نحن (نعظ) الغرب ليكون إنسانيا عادلا، و(نناشد) إسرائيل لتكون قوة مسالمة... ولكن ماذا فعلنا لأنفسنا؟ وماذا أعددنا لهم من (قوة)... ليستمعوا إلينا بالفعـل؟ أعني القوة اللازمة لهذا العصر بأبعادها الشاملة، غير شـجاعة الانتحـار الذاتي، المعبرة عن منتهى الاستعداد للتضحية، بلا ريب، لكن المعبرة في الوقت ذاته عن بالغ اليأس.

كيف نتجاوز هذا اليأس إلى الفعل؟.. الفعل الحضاري والتاريخي فـي هذا العصر، بمنطق العصر، وبكل أدوات العصر ذات الفعاليـة الدائمـة... التي تمكننا من الانتصار بدل الانتحار... وتجعلنا شركاء حضارة في واقع العالم، لا مجرد ضحايا إثارة على شاشاته.

أمريكا قوة إمبريالية، إسرائيل قوة عدوانية، بطبيعة الحـال...ولكـن لماذا معظم جهدنا الذهني والخطابي متركز في أن نفسر الماء بعد الجهـد بالماء ونراوح في نقطة الصفر؟ خطاب فكري وشعبوي كهذا إلى أين يقود الأمة؟! هل أمريكا وإسرائيل جمعيات خيرية؟ لا توجد قوى زاهدة ورعـة وقوى طامعة شريرة في العالم، كل القوى ذات مصالح ولا تفهم غير لغـة القوة... فلماذا نحن؟ أعني العرب والمـسلمين المعاصـرين، رغـم كـل

[١٣])- شاكر مصطفى، في ندوة أزمة التطور الحضاري العربي التي عقدت بالكويت عام ١٩٧٤.

التضحيات، لم نعرف بعد كيف نسلك الطريق إلى مثل هذه (القوة) الرادعة والفاعلة... المنصوص عليها في كتابنا القويم الذي علمنا أيضاً ألا نلقي بأنفسنا إلى التهلكة؟

إن القدرة على التضحية بالنفس إذا لم تصحبها القدرة على إعادة بناء النفس ستبقى مجرد حالة انتحارية إلى ما لا نهاية، وهذا ما يريد عدونا أن يدفعنا إليه كي نبقى محاصرين في خنادق اليأس ومتمسكين بذلك النوع من المقاومة التي لا تعبر إلا عن اليأس... لا يجوز أن يتحول عالمنا الإسلامي الواسع، بموقعه المنفتح، بحضارته وتراثه، بشعوبه الحية وبوعود المستقبل المتاحة أمامه إلى (غيتو) آخر، إلى قلعة (مسادا) محاصرة، فهذا ما تريده إسرائيل لنفسها، فلنتجنب عدواها القاتلة، ولنقاوم استنساخها المشوه.

علينا أن نحول القدرة على الاستشهاد - وأمتنا تملك الكثير الكثير منها - إلى قدرة على إعادة البناء... وقدرة على الحياة المنتجة الفاعلة المؤثرة في عالمها كما تعامل المسلمون الأوائل في صدر الإسلام مع عالمهم فكانوا شركاء فاعلين في صنعه، بل كانوا سادته بالإبداع العلمي، والتفكير العقلي، والتسامح الديني والانفتاح الحضاري.[١٤]

اللافت أن قدرة أمتنا على التضحية بالأنفس عظيمة، لكن ماذا عن قدرتها على البناء في معركة الحضارة التي عليها المعول في نهاية المطاف؟ أليس لافتا أن اليابانيين لجأوا إلى المقاومة الانتحارية (الكاميكاز) ضد الأميركيين عندما تيقنوا من الهزيمة ووصلوا إلى يأس الاستسلام، فلم يجدوا أمامهم إلا هذا الخيار اليائس والبائس؟

---

[١٤]- محمد جابر الأنصاري، أنا والآخر ، مرجع سابق، ص ٣٤

غير أنهم عندما حسموا أمرهم من جديد وقرروا أن يبنــوا اليابــان القوية المعاصرة، يابان المعجزة الاقتصادية التكنولوجية، كفوا عن عــادة التضحية الانتحارية، رغم عمقها في تراثهم، ورغم شــجاعتهم المؤكــدة، واتجهوا إلى تضحية من نوع آخر... تضحية النَفَس الطويــل، تــضحية العمل المنتظم والإنتاج المنتظم وإعادة البناء الــشامل، رغــم المحرقــة النووية التي أصرت أمريكا على عقابهم بها، أطفالا ونساء وشيوخا، وهم في لحظة الهزيمة المتحققة، لم يكن من الضروري إطلاقا تــدمير اليابــان بالقنبلة النووية فقد كان استسلامها مؤكدا، لكن أريد عقابها و(الثأر) ممــا فعلته في بيرل هاربر، وتقديم الدرس للقوة الروسية السوفييتية الــصاعدة حينئذ، واللافت أن ألمانيا النازية التي بدأت الحرب لم تعاقب بذلك واقتصر العقاب على جنس آخر، وعرق آخر... في آسيا!

لكن اليابانيين لم يخطفوا طائرات... لم يقتلوا مــدنيين بــل واصــلوا العمل المنتج على مدى عقود... وتحملوا عار الاحتلال من أجــل إعــادة البناء إلى أن ثأروا منه بأن أصبحوا (شركاء) في الإنتــاج والحــضارة لا يستغني عنهم عدوهم... بل ينافسونه بإنتاجهم المتقدم في عقــر داره... وها هو ذا (عدوهم) يطلب مساندتهم العسكرية له بما يتعدى كــل القيــود المجحفة التي فرضها عليهم ليرسلوا سفنهم الحربية من جديد إلى بحــار آسيا حيث دُمرت سفنه في معارك الأمس علــى يــد آبــائهم وأجــدادهم المحاربين.

إذا صح أن الفاعلين في أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانوا عربا، أليس مؤلما أن يقارن المرء بين (الحضور) الياباني في الولايات المتحدة، والغرب بعامة المتمثل في التقنيات المتقدمة وأجهزة الكمبيوتر ومختلــف الأجهزة الصناعية المتقنة، وهذا (الحضور) المنسوب للعرب والمسلمين؟ صحيح أن ثمة ظلما واقعا من الغرب على العرب والمسلمين، ولكن أليس

ضرب اليابان بأول قنبلة نووية في التاريخ وقتل المدنيين الأبرياء فيها جريمة لا تغتفر؟ المحك والاختبار الحقيقي ليس كيف (تنفعل)؟ ولكن كيف (تفعل)؟ وحان الوقت ليخرج العرب والمسلمون من مهاوي الانفعال إلى مستوى الفعل.

ألا نكرر في خطابنا، ومن تراثنا، أن الغاية لا تبرر الوسيلة، وأن الغاية الشريفة تحتم الوسيلة اللائقة بها؟ فهل تدمير النفس مع آلاف النفوس البريئة الأخرى هو الوسيلة اللائقة بغاياتنا النضالية الشريفة وبشرف قضيتنا العادلة؟ وإلى أين نريد أن نصل من خلال منطق (عليّ وعلى أعدائي)؟ ماذا بعد؟ وما الإنجاز الكبير الملموس الذي حققناه لأنفسنا؟

## التراث وموقفنا منه:

من الغريب أن الداعين إلى إحياء التراث في عالمنا الإسلامي يقتصرون على مذهبهم الجزئي الضيق في هذا التراث الشامل وينكرون عناصره ومكوناته ومدارسه الأخرى برغم ترديدهم اللفظي لصفة (الشمول) في الإسلام، بل إن بعض الثورات الإسلامية المعاصرة فرضت في دستورها مذهبها الخاص بها في وقت تتجه فيه جهود الإصلاح في مجتمعات إسلامية أخرى كانت تعاني من هذا الفرز المذهبي لإشراك جميع المسلمين في الحياة السياسية والحياة العامة وتجاوز ترسبات العصور الماضية في تقسيم أهل القبلة الواحدة وأهل الوطن الواحد إلى طوائف ومذاهب.

لا يجوز أن يتأسس مسلم معاصر تربويا وثقافيا على إنكار وازدراء ما في التراث الإسلامي من مدارس وتفاسير واجتهادات عدا مذهبه الموروث في نصوصه الحرفية الضيقة التي انتهى إليها. هذا ما يعاني منه

المسلمون على جانبي التفرقة المذهبية هنا... وهذا ما يجب أن يتجاوزوه... لأنه من أسباب هذا التشويه للإسلام في سلوك بعض المسلمين ومن أسباب هذه العلاقة المشوهة التي يعيشها أكثر المسلمين مع النفس.

بين المسلمين اليوم كثرة تعادي نتاج العقل الإسلامي المفكر المؤمن في عصور ازدهارنا الحضاري كما تعادي أي فكرة وثنية مادية.

وبين المسلمين اليوم من يعادي مدارس الاجتهاد في الفقه الإسلامي كما يعادي الصهيونية والشيوعية... فأي إحياء لتراثنا الحضاري هذا الذي يدعوننا إليه والحظر مفروض على أجمل ما في تراثنا من فكر واجتهاد؟ أي علاقة صحية وطبيعية يمكن للمسلم أن يقيمها مع تراثه الإسلامي؟ ووعاظ الغوغاء (نعم هناك اليوم وعاظ للغوغاء إلى جانب وعاظ السلاطين!) يشنون حربهم الشعواء في المدارس والجامعات والمساجد والاجتماعات والفضائيات على أرقى عطاءات للعقل أنتجها العقل المسلم المؤمن عبر العصور[١٥].

فكيف يمكن للعرب والمسلمين أن يعرفوا أنفسهم ـ بالمعنى العميق للذات الجماعية والهوية الحضارية ـ إذا ظلوا يقطعون أوصال هذه الذات والهوية بين فرق ومذاهب لا ترى إلا تقزّمها، وتلغي أو تقصي وجوهها الجدلية الأخرى في صيرورة التاريخ والواقع؟

أستغرب من دعاة (إحياء التراث) الذين لا يتقبلون إلا فرعاً مذهبياً منه هو ما ورثوه ونشأوا عليه، مع إصرارهم على (إماتة) وقطع كل ما عداه من أعضاء وشرايين الكائن التراثي المتكامل ذاته... فأي تقطيع وتشويه... للنفس الكبرى؟!

---

[١٥]- محمد جابر الأنصاري، أنا والآخر ، مرجع سابق، ص ٣٥

لن يتجاوز العرب والمسلمون مذهبياتهم وعصبياتها ويعودوا إلى أصالة الذات وجوهرها إلا إذا رأوا تلك المذهبيات والعصبيات ـ علمياً ـ في ضوء الحقيقة التاريخية كما نشأت وتطورت بلا تضخيم وأوهام وخرافات أفرزتها القوقعة المذهبية العصبوية الضيقة حول نفسها في معركة بقائها مع القوقعات الأخرى في مستنقع التاريخ ووحل الانحطاط[١٦].

ثم يبقى الاختبار الأكبر، فكرياً، للعرب والمسلمين المعاصرين بتجاوز مرأى الغرب الاستعماري الطامع وغير المنصف، لاستيعاب ما لديه من عناصر القوة الحضارية اللازمة للبقاء في هذا العصر. فالإخفاق المستمر في هذا الاختبار القائم والمتصل هو الذي يفرز باستمرار النسيج العنكبوتي لهذه (العلاقة المشوهة) مع الغرب ويتسبب في خسارتنا للمواجهات الحضارية والسياسية معه.

تلك هي (اختراقات) معرفية ونفسية لا بد لنا من كشفها لنقيم علاقة صحية مع النفس تساعدنا على مواجهة الآخرين ومحاورتهم بما يتعدى العلاقة المشوهة سواء مع النفس أو مع الآخر، وبما يمكننا أيضاً من إدارة الصراع السياسي مع الغرب أو الشرق بأسلحة العصر ولغته دون الاضطرار للانتحار بديلا عن الحوار!

## الحوار:

"يمكن تعريفه من حيث كونه "عملية الحوار بالنظر والتحليل" وفيه "لقد شاع استخدام كلمة "الحوار" في لغتنا هذه الأيام على مختلف الصُعُد. فالحديث يدور حول "حوار الحضارات" وحوار التيارات "الثقافية" المختلفة، و"حوار الشمال والجنوب"، و"الحوار العربي الأوروبي"، و"الحوار الإسلامي

[١٦]- نفس المرجع، ص ٣٦

المسيحي". فالحوار اليوم هو من"روح" العصر وإحدى ظواهره الهامة، وقد تميز عصرنا بثورة الاتصال التي إحدى ثمار ثورة العلم التي تفجرت فيه، ومع ثورة الاتصال هذه بأجهزتها السلكية واللاسلكية المسموعة والمرئية، وبوسائلها البرية والبحرية والجوية قَوِيَ "التواصل بين بنــي الإنــسان، واتسعت دائرة الحوار وتنوعت موضوعاته بصورة لم تعرفها الإنسانية من قبل". وشاهد على ذلك هذا العدد الضخم للمؤتمرات والندوات والاجتماعات التي تعقد كل يوم في عالمنا وتنوع الموضوعات التي تبحثها.

ننظر في كلمة "حوار" ونستعين بالمعجم في تحديد معناها، فنجد أنهــا من "الحَوْر" وهو "الرجوع عن الشيء وإلى الشيء". و"حار حــواراً" إلــى الشيء "رجع عنه وإليه". وما رجع إلى المرء حين يكلم آخر هو "حِــوَار (بفتح الحاء وكسرها) ومحاورة وحَوير ومَحُورة" أي "جواب". وأحار عن جوابه أي ردّه، ويقال "سمعت حَويرهَما وحِوارهمــا". والمحــاورة هــي المجاوبة، والتحاور هو التجاوب. وهم يتحاورون أي يتراجعون في الكلام، والمحاورة هي مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة.

"الحوار" إذاً "عملية" تتم بين اثنين أو أكثر، وهي تتضمن حين تجري بين اثنين "طرحاً" من أحدهما يتمثله الآخر "ويجيب" عليه، فيحدث "تجاوب" يُولد عند كل منهما "مراجعة" لما طرحه من كلام ومنطق حكم هذا الكــلام، وقد تثمر هذه المراجعة طرحاً ثانياً يتبعه تجاوب ومراجعة فتكون "مُــرادّة في الكلام". فهذه المرادة هي المحاورة والحوار عند الأصــبهاني صــاحب "المفردات في غريب القرآن". وقد ورد في القرآن الكريم الفعل المــضارع "يحاوره" مرتين في ســورة الكهــف فــي قــصة "الــرجلين والجنتــين" و"تحاوركما" في سورة المجادلة.(١٧)

---

١٧)- أحمد صدقي الدجاني، "الحوار مع الآخر في الإسلام"، مرجع سابق، ص ٢٠.

تتعدد أطراف "عملية" الحوار حين يجري بين أكثر من اثنين، فيتلقى "الطرح" أكثر من "جواب" وتتسع دائرة "التجاوب" و"المراجعة" و"المرادة" وتثمر طروحاً أخرى تصل بهذه الأطراف إلى أجوبة أخرى، وقد تنتهي بهم إلى الاتفاق أو إلى اطمئنان كل منهم لما توصل إليه.

لعل أبرز ما يستوقفنا في دلالة لفظ "حوار" هو هذه "المراجعة" التي تحدث، "فالحوْر" هو "التردد" إما بالذات وإما بالفكر، وحار المرء في الغدير "تردد"، وحار في أمره أي "تحير"، ومن هنا يتميز "الحوار" بأنه يتضمن في طياته عملية تحدث، وتجري خلالها مراجعة، فالموقف المتخذ في هذه العملية ليس سكونياً قطعياً غير قابل للتغيير والتبديل، وإنما هو حركي قابل للتحول.

هنا يبرز الفرق بين "الحوار" و"الجدل" الذي هو "المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة"، وأصله من "الجدل" وهو إحكام الفتل"، فكأن المتجادلين يفتل كل واحد منهما الآخر عن رأيه، وقيل أيضاً الأصل في الجدال الصراع، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة، فالموقف الذي يتخذه المجادل قطعي، وهو يرمي في جداله تحويل الآخر عن رأيه دون أن يراجع نفسه على ضوء ما يتلقاه من رد وجواب، وقد تضمنت أولى آيات سورة المجادلة الكلمتين لتبرز هذا الفرق بين موقفين "قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما".. فالمرأة هنا وهي الصحابية الجليلة خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها كانت "تجادل" رسول الله ﷺ، بينما كان هو "يتحاور" معها.

بقي أن نقول في معرض تحديدنا لمعنى كلمة "حوار" إن الحوار هو "حديث" يتضمن "طرح" أفكار، والطرح لغة الإلقاء بعيداً، وطرح عليه مسألة يعني ألقاها، ومنها اشتقت "الأطروحة" وهي المسألة التي تطرح،

و"المطارحة"، وعملية الحوار تشهد مطارحة أفكار، وهي تتضمن "محادثة"، لأن الحديث هو كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في اليقظة أو في المنام، ونشير أخيراً إلى ما تتميز به كلمة "حوار" من جرس موسيقي يوحي بوجود مراجعة وتفاعل ونتأمل عملية "الحوار" على الطبيعة كما تجري في المحافل، فنجد أنها تبدأ "عسيرة" ثم "تتيسّر" تدريجياً حتى تصل إلى مرحلة "التناغم" وتبلغ "الذروة" فتثمر "نتائج" محددة.

أمر آخر نجده في عملية "الحوار" ونحن نتأملها، ذلك هو ما يفجره "التفاعل" الذي تشهده في عقل كل مشارك فيها، فتتدفق الأفكار فيه تدفقاً، وتلمع البوارق، وتثور الخواطر، وكأن عقل الإنسان الفرد بحاجة إلى أن "يقدح" بعقل إنسان آخر كي تتقد الأفكار فيه.

لقد أبرز أبو حيان التوحيدي تلك الخاصية من خواص الحوار في كتابه "المقابسات". فمعنى المقابسات كما إبراهيم الكيلاني الذي قدم للكتاب هو "أن يشترك اثنان أو أكثر في محاورة علمية أو فلسفية فيقبس أحدهما العلم والمعرفة من الآخر، ويعطيه ما عنده منهما". والكلمة مشتقة من "قبس"منه ناراً فأقبسه أي أعطاه منها، وفي المجاز أقبس منه علماً أي استفاد، وفي الحوار دوماً مقابسة تأتي من خلال المحادثة ومطارحة الأفكار، ومن خواصه أن يقدح زناد العقول فتشع أفكاراً.

نصل من خلال تأملنا في عملية "الحوار" إلى إدراك عظيم جدواها وفوائدها، وإلى استشعار مدى حاجة الإنسان إليه.

لقد برز من بين هذه "الحوارات" "الحوار الإسلامي المسيحي" الذي أسهمت فيه مؤسسات كثيرة أوروبية وعربية وإسلامية من بينها مؤسسة آل البيت "المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية" في الأردن التي قام رئيسها بعمل حصر اللقاءات الحوار ودراسة ما صدر عنها حين باشرت

نشاطاً على هذا الصعيد مع "الفاتيكان" والمركز الأرثوذكسي بسويسرا وحوار أديان في بريطانيا، وقد لفت النظر قيام مؤسسة اليونسكو مؤخراً بالاهتمام بالحوار الديني ودعوتها لمؤتمر "الدين من أجل ثقافة سلام" الذي انعقد ببرشلونة عامي ١٩٩٤ و١٩٩٥ وأصدر تصريحاً بهذا الشأن.

كما برز "الحوار العربي الأوروبي" بين الاتحاد الأوروبي وجامعة الدول العربية الذي بدأ على الصعيد الرسمي عام ١٩٧٥، واختصت إحدى لجانه العاملة بموضوع "الثقافة والعمل والأوضاع الاجتماعية"، وقد أولت هذه اللجنة عناية خاصة لبحث كيفية الوصول إلى فهم موضوعي بين الحضارتين الغربية والعربية الإسلامية، ولأوضاع العمال المهاجرين في أوروبا، ولتعارف شباب المنطقتين، وتوصلت إلى أمور محددة بشأنها.

مَثَّل أخير ثالث للحوار الذي دار في مؤتمر "الإسلام في أوروبا" الذي تناول تحديداً "العلاقة بين الثقافات الأوربية والإسلامية، ووضع المسلمين في أوروبا"، وانعقد باستكهولم في منتصف شهر حزيران ـ يونيو عام ١٩٩٥. ويكشف التقرير الموجز عن أعماله عن مدى غنى ما تم طرحه فيه، وهو يشير إلى كتاب وافٍ يتضمن أعماله صدر آخر عام ١٩٩٥، وقد قامت مؤسسة الحوار الدولي بالهيج في هولندا"، "I.D.F" بعقد عدة حوارات من هذا النوع تناولت أوضاع المهاجرين المسلمين وموضوع المرأة في الحضارتين، وأصدرت كتباً ونشرات عن الأعمال التي جرت فيها.

ما نرمي إليه من عرض هذه الفكرة هو أن نؤكد الدعوة إلى ضرورة الإفادة من نتائج أعمال هذه الحوارات، من خلال القيام باستخلاص ما توصلت إليه من أفكار، والنظر فيما تم تطبيقه من هذه الأفكار، والبحث في

تحديد آلية للتنفيذ، ودراسة إمكانية التنسيق بين المؤسسات العاملة في هذه المجالات، وإيجاد هيئة للتنسيق والمتابعة.

والفكرة الثانية هي أن المناخ السائد المحيط ببحث هذا الموضوع يتصف بالتقلب ويغلب عليه تعكر الأجواء بفعل "إعلام الأزمات" الذي يثير المخاوف ويغذي التعصب ولا يقدم المعلومة بأمانة، وبفعل "مناهج تعليمية" واقعة في أسر "التاريخ العبء" متجاهلة "التاريخ الحافز"، وبفعل سياسات قصيرة النظر إزاء موضوع الهجرة والتعامل مع المهاجرين تنجم عنها تداعيات سلبية، وتأتي أحداث معينة تصيب العالم الإسلامي تصدر بشأنها مواقف أوروبية رسمية تسهم في كثير من الأحيان في مزيد من تعكير الأجواء، والمثل الأوضح على ذلك تلك الأحداث المتعلقة بالصراع العربي الصهيوني ومن آخرها العدوان الإسرائيلي على لبنان والحصار الإسرائيلي المستمر لمناطق الحكم الذاتي في الضفة والقطاع، وفظائع الإرهاب الصهيوني هناك وجرائمه في جنين ونابلس والخليل وبيت لحم وغزة.([18])

إذا فالحوار لغة هذا العصر كما هي لغة كل عصر، الحوار لغة التوحيد والتشريع لغة الأنبياء والمرسلين، لغة التفاوض والتعاون بين سائر الخلق أجمعين، لغة إن لم تسبق السلاح فليس بعدها إلا العويل والنواح، "وعلينا أن نأخذ بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا من وسائل الحوار، وعرض الأفكار، والرد على الإشاعات، وإيضاح الصورة الحقيقية للإسلام".([19])

والعالم الإسلامي اليوم، أشد ما يكون حاجة إلى الحوار -الحوار بين أجنحته وداخل جدرانه وبينه وبين أعدائه وجيرانه، فقد تعددت وسائل

---

[18])- أحمد صدقي الدجاني، "الحوار مع الآخر في الإسلام"، مرجع سابق، ص ٢٢

[19])- محمد علي الجوزو، "الحوار مع الغرب" أبحاث المؤتمر الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة: وزارة الأوقاف، ٢٠-٢٢ مايو، ٢٠٠٢، ص٤٤٦

الاتصال وتيسرت كما تعددت مسائل الخلاف وتعقدت، فلم يعد بإمكـــان أي مجتمع أو دولة العيش في معزل عن الآخر أو الاســـتقلال بـــالنفس عـــن الآخر، وهناك العديد من الخصائص والشروط للحوار المثمر فـــي إطـــاره الإسلامي سوف نعرضه بشيء من التفصيل فيما بعد.

**مفهوم حوار الأديان:**

"حوار الأديان" عالم واسع ومتنوع الأهداف والمستويات، والمبادرة إلى رفضه أو قبوله مبدئيًا تعتبر مغامرة غير محسوبة تختـــصر واســـعًا، وتنتقي وجهًا واحدًا تحكم عليه بالسلب أو بالإيجاب وسط ظـــاهرة متعـــددة الوجوه. ([20])

والتنوع الذي نتحدث عنه يتضمن الأطراف المتحاورة، مـــن رجـــال دين، أو أكاديميين متخصصين في الأديان، أو ناشطين في العمل الخيـــري، أو المهتمين بتعظيم دور الأديان في نواحي الحياة المختلفة، أو خليط مـــن هؤلاء وأولئك.

وأهداف الحوار أيضًا تختلف، فهناك حوارات تبحث عن تفاهم متبادل وتعارف أعمق، وهناك أخرى تبحث عن القـــيم المتفـــق عليهـــا، وهنـــاك حوارات تبحث عن موقف مشترك من قضية بعينها، وهناك حـــوارات ذات أغراض سياسية... وهكذا.

وأساليب الحوار تختلف، وطريقة "استدعاء الدين" أيضًا تختلف؛ فهو يُستدعى كتجربة روحية أحيانًا، ويستدعى كتاريخ وممارسة أحيانًا أخـــرى،

---

[20])- أحمد عبد الله، حوار الأديان أسئلة مشروعة وإجابات صعبة، ٢٠٠٢/٤/١٢، شبكة المنار موقع بالإنترنت.

ويستدعى كنصوص مقدسة أحيانًا ثالثة، أو كقيم مجردة، أو كواقــع حــي يومي يتحرك على أرض الواقع.

ويختلف الحوار في نطاقه واتساعه الجغرافي بين المحلي والإقليمــي والدولي، وفي تحديده للأديان، فقد يقتصر على الأديان السماوية المسماة بــ"الإبراهيمية"، وقد يتضمن ديانات أخرى مثــل: الهندوكيــة والبوذيــة وغيرها، وقد يكون داخل دين واحد بين مذاهب وطوائف شتى، أو بين دين وآخر، أو بين عدة أديان في وقت واحد.([٢١])

الخطاب الديني:

المقصود بتعبير( الخطاب الديني) هو مجموعة المبادئ العامة التــي تكون منهج التعامل مع سلوك الفرد والجماعة المــسلمة طبقــا للقواعــد الإسلامية الراسخة، ووسائل الإعلان عن هذا المنهج تتم من خلال الأسرة والمدرسة والكتاب والصحيفة والراديو والتليفزيون والأحزاب الــسياسية والتجمعات العمالية والرياضية وغيرها.[٢٢]

والمؤمنون الصادقون دعاة التجديد الديني يتمتعون بكياسة المــؤمن ومرونته، واستيعابهم للهــدي المحمــدي ولفلــسفة اللحظــة التاريخيــة المعاصرة الحرجة فالحديث النبوي الشريف الذي يشير إلى أن الله يبعــث علي رأس كل قرن من يجدد دين الأمة هو ملهم لهذا الفريق الإصلاحي... الذي يدرك أن الجمود يؤدي إلى الاندثار والتآكل، علي نقــيض التطــور، الذي يسمح بالبقاء والارتقاء.

---

[٢١])- المرجع السابق.

[٢٢])- إسماعيل إمام عيسى، "الخطاب الديني تجديد وتحديث" جريدة الأهرام، ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٣، العدد ٤٢٦٩٣.

إذا كانت أحداث سبتمبر ٢٠٠١ الدامية قد أدت إلى تجديد الاهتمام بمقولة " صراع الحضارات وحوار الثقافات " بشكل عام و مظاهر كل من الصراع أو الحوار على السواء فإن من أهم أو أخطر ما يلفت النظر في مختلف الخطابات التي تجسد هذا الاهتمام وتعبر عن تجلياته العملية، التناقض الواضح بين "الخطاب الغربي" العام، و بين "الخطاب العربي الإسلامي" العام المتعلقين بتلك المقولة و تجلياتها – من ناحية، ثم التناقض – الواضح أحيانا وشديد الخفاء أحيانا أخرى بين " مظهر" كل من الخطابين – الغربي، والعربي الإسلامي/ ومحتواهما.

إذ يستطيع المتابع أن يفطن إلى أن الخطاب " الغربي" العام يعتمد بالفعل منظور الصراع من ناحية محتواه و لكنه يطرح نفسه في لغة "هجومية" من ناحية ولكنها داعية للحوار و"إصلاح ذات البين" من ناحية أخرى، كذلك يستطيع المتابع أن يفطن أيضا إلى أن الخطاب "العربي / الإسلامي " العام يعتمد بالفعل منظور الحوار في محتواه، ولكنه يطرح نفسه – غالبا – في لغة "دفاعية" أو تبريرية من ناحية، ولكن بأسلوب صراعي من ناحية أخرى.

ثم يلفت النظر أن كلا الخطابين يركزان غالبا على الجانب " السلبي" في "خطاب الآخر" يركز الخطاب الغربي العام على طرح خطابنا التبريري أو على أسلوبه الصراعي متجاهلا محتواه " الحواري" أو الداعي إلى الحوار – في تذكيره الدائم إما بوحدة المنبع الإلهي للأديان السماوية، أو وحدة الأرضية الحضارية التي أثمرت كلا من الحضارة الإسلامية التي مهدت بدورها للحضارة الغربية وأمدتها بغذائها المعرفي والمادي الأول والرئيسي.

بينما يركز الخطاب العربي/الإسلامي على ما يسميه " الروح الصليبية" – متجاهلا أن صفة " الصليبية" لم تكن من ابتكار أسلافنا المسلمين العرب في العصور الوسطى، وإنما كانت من ابتكار دعاة الحرب – من رجال الدين ورجال السياسة على السواء – في أوروبا ( وهو ما يتكرر الآن من جانب دعاة الصراع الغربيين الساسة والمفكرين الموظفين لديهم ) بينما لم يصفها أسلافنا الذين واجهوا حملات الغرب العدوانية بالفعل إلا بأنها: "حروب الفرنجة" – وأحياناً نسبوها إلى "الأقوام أو الفرق العسكرية التي شاركت فيها: الفرانك و الانجلاطرة و اللمبارد والجنوة والداوية والاسبتارية.. الخ

والإسلام دين التوسط والاعتدال، ".. لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ . .(١٧١) النساء"، ويصف المسلمين بقوله: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..(١٤٣) البقرة" ويأمر رسول الله ﷺ والمسلمين قائلا: "فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٢) هود"، وهكذا يتضح التوسط والدعوة المعتدلة في الخطاب الديني، فلا تشدد ولا تطرف يرجع إلى الدين، بل يرجع إلى التصور الخاطئ أو المنقوص عند بعض الناس. (٢٣)

**التعايش:**

ظهر مفهوم" التعايش" أو تم الاتفاق عليه في أمريكا اللاتينية لتكوين " مثل أعلي" للحياة تتقاسمه جماعات متنوعة تنوعا شديداً، ثقافياً، أو اجتماعياً، أو سياسياً، حياة مشتركة قابلة للنماء و"العيش معا" علي نحو مستقر، بل وربما علي نحو دائم، مرغوب في حد ذاته، وليس نتيجة لآثاره فحسب.

---

٢٣)- أحمد نصيب لوبيحا، "الإسلام والتعايش بين الأديان" المؤتمر العاشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، أبحاث المؤتمر :الإسلام والقرن الحادي والعشرين، القاهرة، ٢-٥ يوليو ١٩٩٨ص ٢٠١

مصطلح "التعايش " co-existence في العالم الناطق باللغة الإنجليزية (لوصف أناس يعيشون جنباً إلي جنب في سلام، ولا سيما لاختيار مقصود ومتعمد)، وهو"عملية مؤلفة من الامتثال للقواعد والقدرة علي التوصل إلي الاتفاق والالتزام، وتوفير الثقة"، ويتحقق التعايش عندما يستطيع أناس مختلفون أن يعيشوا معا بدون التعرض لمخاطر العنف ومع توقع استغلال أوجه الاختلاف استغلالا مثمرا، ومن ثم، فإن التحدي الذي يمثله التعايش هو أساساً تحد للتسامح إزاء التنوع، ويتجلى هذا أشد الجلاء في حالة "غياب العنف" [٢٤].

## التسامح:

التسامح قيمة، وجملة أفعال سلوكية وتنظيمات مؤسسية لازمة للتعايش بين الطوائف التضامنة، [٢٥]والتسامح اتساق مع مبدأ احترام حقوق الإنسان لا تعنى ممارسة التسامح قبول الظلم الاجتماعي، أو نبذ أو إضعاف معتقدات المرء، بل يعنى أن الشخص حر في تمسكه بمعتقداته، وفى الوقت ذاته يقبل تمسك الآخرين بمعتقداتهم، إنه يعنى إقرار حقيقة أن البشر في تباينهم الطبيعي من حيث المظهر والحالة واللغة والسلوك والقيم، لهم الحق في العيش في سلام وأن يكونوا كما هم، ويعني أيضا أن آراء المرء لا يجب أن تفرض على الآخرين[٢٦].

فالتسامح احترام وإقرار وتقدير التنوع الغنى لثقافات عالمنا، ولأشكال تعبيرنا وطرق ممارستنا لآدميتنا، ويتعزز التسامح من خلال المعرفة،

---

[٢٤])-أنتاناس موكيوس: التعايش كتوافق بين القانون والأخلاق والثقافة ، مسليات العدد ١٢١ ، التعليم من أجل العيش معاً ،القاهرة،مركز مطبوعات اليونسكو،مارس ص٣٠،٣١

[٢٥])-رواق عربي: إبريل ١٩٩٦ ، إعلان مبادئ التسامح ، مركز القاهرة لحقوق الإنسان ص١٣١،١٣٠

[٢٦])-أيوانا كوسورادي: التسامح وحدود التسامح الديني ، ديو جين ، العدد ١٧٦ / ١٢٠ ، مطبوعات اليونسكو القاهرة ص١٢٢

والانفتاح، والتواصل، والحرية، والعقيدة، إن التسامح هو الانسجام في الاختلاف، إنه ليس فقط واجبا أخلاقيا، بل أيضا مطلب سياسي وقانوني، إن التسامح، تلك الفضيلة التي تجعل السلام ممكنا، يسهم في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب.

وليس التسامح تنازلا أو تعاطفا أو تساهلا، التسامح قبل كل شيء هو الإقرار بحقوق الإنسان العالمية والحريات الأساسية للآخرين، ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يستخدم لتبرير الاعتداء على تلك القيم الأساسية، ويجب أن يمارس التسامح من قبل الأفراد والمجموعات والدول.

فالتسامح يدعم حقوق الإنسان والتعددية، بما فيها التعددية الثقافية والديمقراطية وسيادة القانون، ويقتضي ضمنا نبذ الدوجمائية والاستبدادية، ويؤكد على المعايير المنصوص عليها في القرآن، وفي إعلان حقوق الإنسان الدولية.

إن التسامح يعنى قبول الاختلاف، وأن نقيضه هو التعصب والذي ينفى الاختلاف، ويسعى للبحث عن التماثل وإنكار أي شكل من التنوع والاستقلال، ويرتبط التسامح بمفاهيم أخرى مثل التعدد والتنوع والجماعة السياسية والخصوصية.

وهناك فجوة بين التسامح كمبدأ، وممارسة التسامح كسلوك، وهذه الفجوة التي كانت ولازالت أساسا للعديد من الانتقادات التي وجهت لمفهوم التسامح في الغرب، كما يرتبط التسامح بالشأن العام وليس الشأن الخاص.

ومن الأهمية ضرورة التفرقة بين التسامح واللامبالاة في وضع حدود دقيقة للمفهوم فمن أهم شروطه وجود اختلاف واستعداد للتحمل، وما

**يعتري قيمة التسامح من خلط بين الاندفاع نحو التدخل في شئون الآخرين والامتناع عن ذلك.[٢٧]**

**والتسامح ليس في العنف أو القسوة [٢٨] ومن واجبنا كذلك أن ننكر التسامح على أولئك الذين يتآمرون لتحطيمه، ومسئوليتنا في هذا السياق خطيرة للغاية.[٢٩] والتسامح لا يمكن أن يوجد إلا على أسس التبادل، والندية، والتكافؤ.[٣٠]**

**والتسامح مع الانشقاق السياسي أو المعارضة السياسية، لا يجب أن ينظر إليه بوصفه تابعا وحسب من احترام الحق في الحرية، فإن هذا الحق ينشأ من تبرير التسامح السياسي، ويأتي بأي شكل من أشكال السلوك غير المضر، وإذا كان الانشقاق السياسي يهدد الحقوق في بعض الأحيان ويهدد الملكية والحرية، على سبيل المثال، يكون التسامح على هذه الأرضية وحدها محدودا.[٣١]**

**هناك ظروف عديدة يكون فيها من الحكمة للدول أن تكون متسامحة تجاه مواطنيها، وفى بعض الظروف، لا يكون التسامح مجرد مسألة حكمة، بل مسألة واجب ويفسر هذا الواجب أنه ينبع من حق أصيل يمتلكه**

---

(٢٧)هويدا عدلي: التسامح السياسي، المقومات الثقافية للمجتمع المدني المصري ،القاهرة، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ٢٠٠٠ ، القاهرة ص٣٨

(٢٨) كارل بوبر: بحثاً عن عالم أفضل ترجمة أحمد مستجير، القاهرة،الهيئة العامة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩ ص٢٣٤

(٢٩) كارل بوبر: التسامح والمسئولية الفكرية، التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر،بيروت، دار الساقي، لبنان ص ٨٥

(٣٠)المرجع السابق: ص٧٨

(٣١) توماس بالدوين: التسامح والحق في الحرية ، التسامح بين شرق وغرب ، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، ترجمة إبراهيم العريس ،بيروت، دار الساقي ، د.ت. ط١، ص٧١

المواطنون، فالتسامح معهم غالبا ما ينظر إليه على أنه الحق في الحرية.[٣٢]

**علاقات التفاهم:**

إنَّ الرؤية الإسلامية إلى قضية العلاقات بين شعوب العالم، تتسم بالاعتدال وبالوَسَطية وبالشمول وبالعمق، والمفهوم الإسلامي للحوار بين الحضارات يصطبغ بصبغة التسامح والتسامي وينطلق من عقيدة التوحيد، ومن الإيمان بوحدة الأصل الإنساني.

وصراع الحضارات في الرؤية الإسلامية حالةٌ عارضةٌ في مسيرة التاريخ، وقُوى الخير وتياراته تغالب قوى الشر وتنتصر عليها في نهاية المطاف، والصراع دعوة إلى الشر ومصدرٌ له، بينما الحوار بين الحضارات دعوة إلى الخير ومصدر للسلم والتعايش في جميع الأحوال.

ويَتَبَدَّى لنا الصراع في المفهوم الإسلامي نقيضاً للحوار وليس بديلاً عنه، والنقيضُ يُتجاوز لأنه خروج عن الأصل في حياة المجتمعات الإنسانية، حتى وإن بَدَا الصراع فارضاً وجوده، فإن مصيره إلى زوال مهما طال به العهد، في حين أن الحوار أصلٌ ثابتٌ لأنه يتفق والطبائع الإنسانية.

والأمة الإسلامية تمتلك شروط النهوض الحضاري لاستئناف دورها في بناء الحضارة المعاصرة والإسهام في إنقاذ البشرية مما يتهددها اليوم من خطر التفكك والانهيار، وهي مؤهلةٌ أكثر من غيرها من الأمم، لتؤدي دوراً بالغ التميّز في المعترك الحضاري والفكري العالمي، من خلال رؤيتها

(٣٢) المرجع السابق: ص٧١

المستنيرة ومفهومها العملي ورسالتها الحضارية المتواصلة المستمرة ممتدة العطاء والإشعاع، وهذا يُوجب عليها تصحيح أوضاعها الداخلية، ونبذ خلافاتها الهامشية، وتفعيل قدراتها الكبيرة في إطار التضامن الإسلامي وبروح الأخوة الإسلامية.

والعالم يقف اليوم على مفترق طرق، تتقاذفه أمواج العولمة العاتية، وتتجاذبه فكرة صراع الحضارات التي أصبحت مبعثَ ذعرٍ على الصعيد العالمي، ومصدر تهديد للشعوب والأمم والحكومات والدول، لدفعها إلى الرضوخ لإرادة القوة الدولية الوحيدة التي فقدت المقوّمات الحضارية للقيادة الإنسانية الهادفة إلى الخير لشعبها ولشعوب العالم قاطبة.

وإذا تأملنا اليوم الوضع الدولي العام، وجدنا أن نظام العولمة الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية وتسعى إلى فرضه على العالم عبر مجموعة من التدابير والأنظمة التي تستند إلى الشرعية الدولية من خلال عقد سلسلة من مؤتمرات القمة العالمية حول موضوعات وقضايا يُراد تطويعُها وصبّها في قالب دولي للدفع بنظام العولمة إلى اكتساح المواقع وفرض الوجود على العالم كلّه – وجدنا هذا النظام تعبيراً عن فكرة الصراع وانعكاساً لروحها، كما أن الحرب على الإرهاب – وفق المنظور الأمريكي – تحولت هي الأخرى إلى حرب من أجل الهيمنة والتسلّط، وفرض المفهوم الأمريكي بالقوة، على الرغم من اختلاف المواقف الدولية بشأن مفهوم الإرهاب وكيفية محاربته ومعالجة الدوافع المؤدية إليه والقضاء على مصادره، ولذلك نرى الإدارة الأمريكية تصنف الدول والشعوب وفق ثنائية الخير والشر، فهناك محور الشر معظم المعدودين فيه من المسلمين، مقابل محور الخير الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية ويضم الدول الغربية كما يضم – وهذا من المضحكات المبكيات

- إسرائيل صاحبة اليد الطولى في الإرهاب والعدوان والخروج عن القانون الدولي[٣٣].

## صراع الحضارات:

لعلّ من أكثر التعابير والمصطلحات انتشاراً وشيوعاً خلال العقد الأخير من القرن العشرين، (صراع الحضارات) ومقابله: (حوار الحضارات)، سواء أكان ذلك على المستوى العام بالنشر في الصحف والمجلات وأجهزة الإعلام الأخرى من محطات إذاعية وتلفزيونية ومواقع متعددة على شبكة المعلومات العالمية الانترنيت، أم على المستوى الخاص بالبحث والدراسة والمناقشة في دوائر البحوث والدراسات ومساندة القرار، أو في الكليات والجامعات، أو في المنتديات الفكرية، أو في المحافل السياسية والملتقيات الثقافية، أو في المؤتمرات المتخصصة وغير المتخصصة التي تعنى ببحث القضايا الدولية المطروحة على الساحة العالمية طوال هذه المرحلة التي كانت ولا تزال من المراحل الدقيقة والحاسمة في تاريخ البشرية، دون منازع.

لقد صار مصطلح (صراع الحضارات) علَماً على هذه المرحلة، ولا يزال يفرض نفسه في سياق البحث في القضايا الدولية، سواء أكانت فكرية وثقافية، أم سياسية واجتماعية، أم اقتصادية وتنموية.

وربما جاز لنا أن نقيس شيوع مصطلح (صراع الحضارات) بما كان يروج خلال فترة الحرب الباردة، من مصطلحات ذات صبغة أيديولوجية ومضامين سياسية هي البضاعة الفكرية التي كانت تُطرح للتسويق على الصعيد الدولي، في تلك الحقبة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية والتي

---

[٣٣]- عبد العزيز بن عثمان التويجري، صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ٢٠٠٠

استمرت إلى سقوط حائط برلين، ثم انهيار الاتحاد السوفيتي وما استتبع ذلك الانهيار من انحلال الكتلة الشرقية الأوروبية بالكامل.

من هنا كان من مقتضيات التعامل مع الظواهر الفكرية السائدة في عالم اليوم، ومن الشروط المُوجبة لتحليل مضامينها وبحث محتوياتها وتعقّب مساراتها واستقراء أبعادها، دراسةُ أكثر هذه الظواهر شيوعاً وأبعدها تأثيراً في الحياة السياسية وفي المعترك الثقافي والفكري الذي يتعيّن على الأمة الإسلامية أن تخوض فيه، وهي تستشرف مستقبلها في القرن الخامس عشر الهجري، ومنها الظاهرة الفكرية التي أفرزها هذا الشيوعُ الواسعُ لمصطلح (صراع الحضارات) ولمقابله (حوار الحضارات).

## معنى الصراع ومدلوله :

لا يستقيم فهمنا لمدلول الصراع إلا إذا عرفنا معنى اللفظ ومغزى المصطلح، جاء في لسان العرب (الصرع : الطرح بالأرض، وخصّه في التهذيب بالإنسان، صَارَعَهُ صَرْعاً وصِرْعاً، فهو مصروع وصريع، والجمع صرعى، والمصارعة والصراع معالجتهما أيهما يصرع صاحبَه، والصرع علةٌ معروفة، والصريع المجنون، ومصارع القوم حيث قُتلوا، وفي الحديث : الصُّرَعَة (بضم الصاد وفتح الراء مثل الهمزة)، الرجل الحليم عند الغضب، وهو المبالغ في الصراع الذي لا يُغلب)([٣٤]).

وورد في القرآن الكريم مرة واحدة، (صرعى)، يقول تعالى: { "فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ" الحاقة(٧)}. والمعنى هنا، الطرح بالأرض، وهو يخصّ الإنسان.

---

[٣٤]- ابن منظور، لسان العرب، طبعة يوسف الخياط، دار الجيل ـــ دار لسان العرب، بيروت ١٩٨٨. المجلد ٣، صفحة ٤٣٠

واكتسب المصطلح مفهوماً سياسياً واسع الانتشار واتخذ طابع النظرية في القرن التاسع عشر، حين ورد في (البيان الشيوعي) لماركس وانجلز، جاء في (الموسوعة السياسية) أن الفكرة العصرية عن صراع الطبقات تعود إلى عهد الثورة الفرنسية، ولكن النظرية مستمدة من أفكار ماركس وانجلز كما أورداها في البيان الشيوعي والذي جاء فيه: (إن تاريخ المجتمع كلّه حتى اليوم هو تاريخ صراع الطبقات)،([٣٥]) ويُلاحظ هنا ورود لفظ (كلّه) الذي يفيد الجمع وينفي الاستثناء، على وجه الجزم والقطع، وهي لازمةٌ من اللوازم المرتبطة بالفكر الشمولي في كل زمان ومكان، سواء أكان شيوعياً أم رأسمالياً.

وهو التعبير نفسه الذي يرد عند المفكرين المروّجين اليوم للصراع أو الصدام بين الحضارات والثقافات، وغلبت فكرة الصراع على الفكر الأوروبي في جميع المراحل التي مرَّ بها، وأدت الشعوب الأوروبية ثمناً فادحاً لهذه الغلبة القسرية، حيث عانت أشدَّ المعاناة من الحروب الأهلية فيما بينها، كانت آخرها الحرب العالمية الثانية التي أضرمت شرارتَها عقيدةٌ عنصرية ونزعةٌ استبدادية اصطبغتا بصبغة الصراع القانية.

وعلى المستوى الفكري والمذهبي والسياسي، كانت الأفكار الكبرى التي أحدثت عميق التأثير في المجتمعات الأوروبية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، أفكاراً ذات منطلقات صراعية، مثل الشيوعية التي قامت على مبدأ الصراع الطبقي الذي هو درجةٌ عليا في سلّم الصراع، وينطبق هذا حتى على الرأسمالية التي قامت هي الأخرى على مبدأ الصراع ضد العوائق والموانع والحواجز التي تمنع الرأسمال من الانطلاق من القيود،

---

[٣٥])- الموسوعة السياسية، إشراف د. عبد الوهاب الكيالي وكامل الزهيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ، صفحة ٣٤٤، ١٩٧٤.

**والتي تشنّ حرباً عواناً على الأوضاع التي لا تتقبل المذهب الرأسمالي، حتى وإن أدّى تطبيق هذا المذهب والعمل به إلى الإضرار بمصالح الشعوب الفقيرة، فمن أجل الوصول إلى الرفاهية والوفرة والرخاء والازدهار الاقتصادي، لاشيء يمنع من استغلال الشعوب الأخرى والهيمنة على مُقدراتها، وهو الأمر الذي أدى، ولا يزال يؤدي، إلى زعزعة استقرار المجتمعات الحديثة، بما فيها المجتمعات الرأسمالية ذاتها.**

**لقد طرحت فكرة (الصراع للحياة) في القرن التاسع عشر في أوربا والتي حلّت في نظرية داروين مكان النظريات السالفة عن التوافق الطبيعي، وساد في الأوساط العلمية والفكرية الاعتقاد في وجود كثير من الصراع حتى في الطبيعة، وأن هذا الصراع هو من سمات الطبيعة، والفكرة الأساس التي تمركز حولها الفكر الأوروبي هي أنه لا وجود لتشابه كامل بين الطبيعة والمجتمع، فهناك الكثير من الصراع في المجتمع، ولكن الصراع بين الناس ليس من أجل الوجود، ولكنه من أجل تحقيق فرص أفضل للاستمتاع والارتقاء([٣٦]).**

**وجاء المفكرون والعلماء الأوروبيون في أواخر القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين، فبلوروا فكرة الصراع، وأقاموا نظرياتهم سواء في مجال العلوم البحتة أوفي حقل العلوم الإنسانية، على قاعدة الصراع بين الإنسان والطبيعة، وبين الكائنات جميعاً، وكان حظ علوم الاجتماع والنفس والآداب والفنون من التأثر بفكرة الصراع في الحياة عظيماً.**

---

[٣٦])- فرانكلين ـــ ل ـــ باومر، الفكر الأوروبي الحديث : الاتصال والتغيّر في الأفكار من ١٦٠٠ إلى ١٩٥٠، الجزء الثالث، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩، سلسلة الألف كتاب (الثاني) ص ٩٨.

يقول المفكر و.ث. جونز ملخصاً في دقةٍ وتركيزٍ الوضعَ الفكري في أوربا فيما يعرف بعصر النهضة: "استحوذ الإنسان في عصر النهضة بأهمية أكبرَ من الله، وأصبح الاهتمام بارتباط الإنسان ببني جنسه أكبر من الاهتمام بارتباط روحه بالله، واتخذ الإنسان الطبيعة والإنسانية هدفاً، عوضاً عمّا فوق الطبيعة والكمال الإلهي، وبات الأمر الأهمّ ما يحققه الإنسان في دنياه، لا ما ينتظره في العالم الآخر، ومطالبُ الإنسان في هذه الدنيا إنما هي، عموماً، غنى شخصية الفرد، ونموٌّ قواه العقلية، وقابلياته المعنوية، واستثمار مظاهر الجمال المتنوعة، والحياة المجللة بالنعم الدنيوية، وهكذا خرج الإنسان من كونه مرآة للمشيئة الإلهيّة، ومظهراً ثابتاً للإنسان؛ ليصبح ميداناً لتجاذب قوى الطبيعة وصراعها، فلا مفرّ إذاً للإنسان من الالتحاق بحلبة التنافس هذه([٣٧]). وتلك عقيدةٌ كامنة في الوجدان الغربي وعقدةٌ مترسبة في فكر الغرب وثقافته.

وبدخول فكرة صراع الحضارات معترك الصراع السياسي على الصعيد الدولي، في صياغة جديدة اصطبغت بالصبغة الأكاديمية وظهرت بمظهر التنظير الفكري الذي لا صلة له بالقرار السياسي للدولة العظمى، تكون حرب الأفكار قد دخلت مرحلة جديدة، من أبرز ملامحها تصنيفُ الحضارة الإسلامية ضمن الحضارات المعادية للحضارة الغربية والتي تدخل، أو ستدخل حتماً طبقاً لهذا التنظير، في صراع مع هذه الحضارة في المستقبل المنظور، مما يحملنا على التساؤل عن الدوافع وراء تفجير الصراع بين الحضارات واستهداف الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي به في هذه المرحلة بالذات.

---

[٣٧])- محمد خاتمي (رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية)، مدينة السياسة : فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب، دار الجديد، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٠، ص ص١٨٤-١٨٣.

## صراع الحضارات، هل هو حتميّ ؟

يطرح عدد من المفكرين الغربيين، خاصة الأمريكيين منهم، فكرة صراع الحضارات أو صدامها باعتبارها حتميةً، وهم هنا يقعون فيما وقعت فيه نظرية الحتمية التاريخية، التي تهافتت وأصبحت من مخلفات التاريخ الفكري للبشرية في القرنين التاسع عشر والعشرين. ويأتي صامويل هنتنغتون في مقدمة هؤلاء المفكرين، حيث أصدر في عام ١٩٩٦ م كتابه الشهير "صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي"، وفرانسيس فوكوياما الذي أصدر كتابه الشهير أيضاً "نهاية التاريخ".

والقول بحتمية صراع الحضارات أو صدامها، يُجَافي سنةَ التاريخ ويتعارض مع طبيعة الحضارة، فالحضارة لا طابع عرقي لها، وهي لا ترتبط بجنس من الأجناس، ولا تنتمي إلى شعب من الشعوب، على الرغم من أن الحضارة قد تنسب إلى أمة من الأمم، أو إلى منطقة جغرافية من مناطق العالم على سبيل التعريف ليس إلاَّ، بخلاف الثقافة التي هي رمزٌ للهوية، وعنوانٌ على الذاتية، وتعبيرٌ عن الخصوصيات التي تتميز بها أمة من الأمم، أو يتفرّدُ بها شعبٌ من الشعوب.

والحضارة هي وعاءٌ لثقافات متنوعة تعدّدت أصولها ومشاربها ومصادرها، فامتزجت وتلاقحت، فشكّلت خصائص الحضارة التي تعبّر عن الروح الإنسانية في إشراقاتها وتجلياتها، وتعكس المبادئ العامة التي هي القاسم المشترك بين الروافد والمصادر والمشارب جميعاً.

ولكلّ حضارة مبادئ عامةٌ تقوم عليها، تنبع من عقيدة دينية، أو من فلسفة وضعية، حتى وإن تعدّدت العقائد والفلسفات، فإنَّ الخصائص المميزة للحضارة، تُستمدّ من أقوى العقائد رسوخاً وأشدّها تمكّناً في القلوب والعقول ومن أكثرها تأثيراً في الحياة العامة، بحيث تصطبغ

الحضارة بصبغة هذه العقيدة، وتنسب إليها، فتكون النسبة صحيحةً، لصحة المبادئ التي تستند إليها، ومثال ذلك الحضارةُ الإسلامية.

والحضارات الكبرى التي عرفها تاريخ البشرية تَتَفَاوَتُ فيما بينها في موقفها من المادية والروحية، فمنها ما يغلب عليه الجانب المادي، ومنها ما يغلب عليه الجانب الروحي، ومنها ما يسوده التوازنُ بينهما، فهي إذن سلسلةٌ متعاقبة من الحضارات التي تخلي كلٌ واحدة منها المجالَ لما سوف يتلوها من حضارة أخرى، مما جعل كثيراً من الباحثين في مجال دراسة الحضارات يذهبون إلى القول بوجود التماثُل والتطابُق بين الكثير من هذه الحضارات([٣٨]). والتماثل والتطابق لا يدعان مجالاً للصراع.

ولذلك، فإن الحضارات لا تتصارع، وإنما تَتَدَافَعُ وتَتَلاقَحُ ويكمل بعضها بعضاً، وتَتَعَاقَبُ وتَتَواصَلُ، لأنها خلاصة الفكر البشري والإبداع الإنساني وحركة التاريخ التي هي، في المفهوم الإسلامي، سنة اللّه في الكون، فالصراع بين الحضارات ليس وارداً، لأن دورات التاريخ تطَّرِدُ وفق المشيئة الإلهية، ولأن التاريخ هو من صنائع الله، والإنسان الذي يؤثر في مسار التاريخ ويصوغه ويُبدع فيه، هو من أكرم خلق اللّه.

والتدافع الحضاري مفهومٌ قرآنيٌّ، وهو جامعٌ للمعاني والدلالات التي تؤكد بطلان نظرية صراع الحضارات من الأساس. يقول اللّه ﷻ :{ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(٢٥١) {البقرة}، ويقول ﷻ: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(٤٠) {الحج}. ويأمر اللّه عباده بالدفع

---

[٣٨]- عبد العزيز بن عثمان التويجري، خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو ـــ الرباط، ٢٠٠٢، ص ٢٧.

بالتي هي أحسن في جميع الأحوال، في قوله تعالى :{ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤) {فصلت}، ويقول ﷻ: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ(٩٦) {المؤمنون}.

ودفع اللّه الناس بعضهم ببعض يُلغي الصراع ويبطل زعمه، لأن هذا (الدفع) هو الذي يمنع فساد الأرض ويحول دونه، وينبغي أن نتنبَّه في هذا السياق إلى الفرق الدقيق بين (فساد الأرض) و(الفساد في الأرض)، فالمعنى الأول الوارد في الآية القرآنية، ينصرف إلى فساد الأرض باختلال النظام الذي وضعه الخالق سبحانه لحياة البشر فوقها، الذي إذا اختل واضطرب، فسدت الأرض، وهذا مظهرٌ من مظاهر الصراع، وهو الوضع الذي ينتج عن احتدام الصراع بين الحضارات والثقافات، أما المعنى الثاني وهو (الفساد في الأرض) فهو ينصرف إلى الفساد الذي ينتج عن أفعال البشر، وهو من طبائع الأشياء.

والحياة الإنسانية قائمة على أساس (دفع اللّه الناس بعضهم ببعض)، فهذا هو القانون الأزلي للبشر فوق الأرض، وهو سنة الله ولن تجد لسنته تبديلاً، وبذلك تتهاوى مزاعم الصراع، وتسقط افتراضاته.

وعلى هذا الأساس، فإن مصير الحضارات لم يكن عبر التاريخ كلِّه صراعاً وصداماً، ولكنه من حيث الجوهر والعمق كان تدافعاً، وكان دائماً وبصورة مطّردة يسير في الاتجاه الصاعد إلى ازدهار الحياة بتراكم العطاء الحضاري في مختلف مجالاته، وإلى الرقيّ بالإنسان الذي استخلفه في الأرض لعمارتها، بينما الصراع يتّجه نحو الإفساد في الأرض.

ونخلص من هذا إلى أن صراع الحضارات ليس حتميةً من حتميات التاريخ، كما تقول النظرية الماركسية، وكما يدعي المنظّرون المعاصرون

الذين يرسمون معالم سياسة الهيمنة والغطرسة والقوة لقهر إرادات شعوب العالم.

## التفاعل الحضاري بديلا للصراع :

لقد كان لحيوية الحضارة الإسلامية وقوتها الذاتية الدافعة لها إلى التطور والتقدم والإبداع، الأثرُ القويُّ في نقل روح المدنية إلى العالم الغربي، بقوة دفع التفاعل الحضاري، وهو الأمر الذي يعترف به ويشهد له معظم الكتاب والمؤرخين والمفكرين الأوروبيين الذين برئوا من الهوى والغرض، وكتبوا بإنصافٍ عن خاصية التفاعل الحضاري في الحضارة الإسلامية. وهذا كرستوفر دوسن، يذهب في كتابه "تكوين أوروبا"، إلى أن الحضارة الإسلامية، احتفظت بمركز الصدارة منذ أوائل العصور الوسطى فصاعداً، لا في الشرق فحسب، بل كذلك في غرب أوروبا، إذ نمت الحضارة الغربية في ظلال الحضارة الإسلامية التي هي أكثر منها رقيّاً وقتذاك، وكانت الحضارة الإسلامية العربية - لا البيزنطية - هي التي ساعدت العالم المسيحي في العصور الوسطى على استرداد نصيبه من التراث اليوناني العلمي والفلسفي([٣٩]).

ولعلّنا لا نغالي إذا أكدنا هنا، على أن الإسلام، وهو دعوة اللّه إلى الناس كافة، ورسالته ﷺ إلى العالمين، هو الدين الذي يدعو إلى التفاعل الحضاري دعوة صريحة قوية، ويحثّ عليه حثّاً، على اعتبار أن الحوار

---

[٣٩])- كريستوفر دوسن، تكوين أوروبا، ترجمة ومراجعة، سعيد عبد الفتاح عاشور، و محمد مصطفى زيادة، مشروع الألف كتاب : ٦٤٢، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٠٣-٢٠٢.

**الذي نادى به الإسلام، هو في طبيعته وجوهره ورسالته، تفاعلٌ حضاريٌ، كما لا نحتاج أن نقول: إن قاعدة التسامح التي يقوم عليها الإسلام فتحت أمام الأمة الإسلامية السبيل إلى الاحتكاك الواسع بالأمم والشعوب، وشجعت الحضارة الإسلامية على التفاعل مع الثقافات والحضارات جميعاً، ونعني بالتسامح الديني - تحديداً - أن تكون لكل طائفة في المجتمع الإسلامي الحرية في تأدية شعائر دينها، وأن يكون الجميع أمام قوانين الدولة الإسلامية سواء، وإذا نظرنا إلى الإسلام من حيث مبادئه وتعاليمه الأصلية، نجد أنه أرقى الأديان في تحقيق مبدأ التسامح الذي هو القاعدة الأولى للتفاعل الحضاري([٤٠]).**

**فالتفاعل إذاً، في المنظور الإسلامي، هو عملية تدافع لا تنازع، وتحاور لا تناحر. والتفاعل حياة، والتصارع فناء. والتفاعل الحضاري عندنا، حوارٌ دائم ومطّرد، ينشد الخير والحق والعدل والتسامح للإنسانية قاطبة، ولا يسعى في الأرض بفساد([٤١]).**

**والتفاعل الحضاري يقي الإنسانيةَ من (السقوط الحضاري) الذي تنتج عنه (أزمة الحضارة). وهذا هو مأزق الإنسان في العقد الأخير من القرن العشرين وإلى اليوم، ويعتقد كبار فلاسفة التاريخ جميعهم في القرن الماضي، من "ازوالد شبنغلر" في كتابه "انحطاط الحضارة"، إلى "أرنولد توينبي" في كتابه (دراسة للتاريخ)، إلى "بكريم يوروكين" في كتابه (الديناميات الاجتماعية والثقافية وأزمة العصر)، إن حضارة الغرب العلمانية الإنسانية السائدة رغم ثرائها المادي وجبروتها العسكري تعاني من آلام مبرّحة، إذ فقدت القوى التي أدّت إلى سيطرة هذه الحضارة قدرتَها**

---

[٤٠])- أحمد أمين، يوم الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٥٢، ص ١٨٠-١٨١.

[٤١])- عبد العزيز التويجري، الحوار من أحل التعايش، ص ٢٣ - ٢٢، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨.

على الاستقطاب، وها هي قوى التفكك والاضمحلال تتجاوز قوى التعاضد والتماسك، والمراسي التي ثبّتت السفينة آخذةٌ في التداعي، والقيم التي جمعت الناس معاً تعاني من الاضطراب، ولم تعد العلل مقصورة على قطاع واحد أو عدد قليل من القطاعات، بل أصبح نهر الحياة برمته ملوّثاً([42]).

وبالتدافع الحضاري يُنَقّى نهرُ الحياة والحضارة من التلوّث الذي يفرزه الصراع والصدام وهيمنة الفكر المادي العلماني اللاّديني على الأفكار والأقوال والأفعال والممارسات وأنماط السلوك ونظم الفكر وأساليب الحياة، ولذلك نقول إن التدافع الحضاري هو البديل للصراع.

## النظام العالمي الجديد:

لقد تم تعريف "النظام العالمي الجديد" عدة تعريفات سياسية تهمل بُعده المعرفي، مع أن هذا البعد هو الذي يكشف حقيقته. إن النظام العالمي الجديد ما هو إلا استمرار للنظام العالمي الاستعماري القديم، وما هو إلا تعبير حديث عن الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية في عصر السيولة الشاملة التي تدور في إطار المرجعية الواحدية المادية، وهي المرجعية التي ترى أن الطبيعة والإنسان مجرد ظاهرتين ماديتين، تسري عليهما قوانين المادة، لا فرق بين الواحد والآخر. هذه الرؤية تذهب إلى أن مركز الكون كامن فيه؛ لأن الكون بأسره يتكون من مادة واحدة، ومن ثم لا مجال للتجاوز أو لفاعلية المنظومات الأخلاقية، ويتجسد هذا المركز في عنصر مادي واحد وتصبح بقية العالم بالنسبة له هي الهامش([43]) .

---

[42])- عبد العزيز التويجري، خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، مرجع سابق، ص ٣٨.

[43])- عبد الوهاب المسيري، النظام العالمي، مجلة المنار الجديدة، التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية العدد العاشر/ ٢٠٠٠

ويمكن أن يتجسد المركز في الإنسان أو في الطبيعة، فإن تمركز حول الذات الإنسانية فإنها تصبح هي المركـز، وفـي غيـاب أي مرجعيـات متجاوزة يصبح أحد الشعوب هو (الأنا) المقدسة التي ترى بقيـة البـشر والطبيعة باعتبارهما مادة محضة يمكن هزيمتها وتوظيفها وحَوْسَلَتها (أي تحويلها إلى وسيلة).

وقد أعلن الإنسان الغربي أنه هو (الأنا) المقدسة وأن العالم قد انقسم - بسهولة - إلى الأنا والآخر، والقوي والضعيف والغـازي والمغـزوّ، والمسلح والأعزل من السلاح، والغرب وبقية العالم (بالإنكليزية: ذا وست أند ذا رست The west and the rest)، ومنذ أن قام هـذا النظـام - النظام العالمي الاستعماري القديم - باقتسام العالم بدأ يـصول ويجـول، وبدلاً من أن ينشر الاستنارة والعدل انغمس في عمليات إبـادة منهجيـة رشيدة، لم يعرفها تاريخ البشر من قبـل (إبـادة سـكان الأمـريكتين)، وانغمس في عمليات (ترانسفير) (نقل السود من إفريقيًا إلى الأمـريكتين، ونقل العناصر البشرية غير المرغوب فيهـا مثـل المجـرمين واليهـود والفائض البشري والثوريين والفاسدين اجتماعياً إلى جيوب اسـتيطانية). وقد خاض هذا النظام الدولي - في الصين - حرب الأفيون الأولـى ثـم حرب الأفيون الثانية حتى يحقق أرباحاً اقتصادية ضخمة، وقد قام بنهـب ثروات الشعوب بشكل منظم، لم يعرف له التاريخ مثيلاً ومع ظهور حركات التحرر الوطني في المستعمرات - ابتداءً من الأربعينـات - قـام النظـام الإمبريالي العالمي بضربها بعنف شديد، ثم حاول في الخمسينات الالتفـاف حولها بأن منح المستعمرات استقلالاً اسمياً، وأسس نظماً سياسية عميلـة مستعدة لأن تعطيه امتيازات يفوق عائدها ما كـان يحـصل عليـه مـن الاستعمار العسكري المباشر.

إن تاريخ النظام العالمي الاستعماري القديم هو تاريخ النظام الصناعي العسكري الإمبريالي الغربي الذي حوّل العالم إلى مصدرٍ للطاقة الطبيعية والبشرية الرخيصة وإلى سوقٍ لبضائعه. وعلى الرغم من تغيُّر الأشكال (الاستعمار الاستيطاني الإحلالي - الاستعمار الاستيطاني المبني على التفرقة اللونية - الكولونيالية - الإمبريالية - الاستعمار الجديد) ، فإنه نظام عالمي واحد يحاول أن يفرض - بالقوة - حالة التفاوت بين الشعوب والأمم.(٤٤)

## العولمة والكوكبية والتعولم:

لقد سبقنا الأوائل من المفكرين في طرح مفاهيم، قريبة من التي نتدارسها الآن، فمن هذه المصطلحات: "المواطن العالمي"، "الوطنية العالمية"، الإنسان العالمي"*. والتي ترادف في الوقت الحالي مفهوم العولمة Globalization، التي هي من إنتاج تطورات اجتماعية وسياسية واقتصادية ومعرفية ضخمة، وتجدد المعرفة العلمية وتحرر الإنسان، وشيوع التعليم والصحافة، وغرس بذور الوعي الوطني.(٤٥)

"فالعالمية" كلمة محايدة، وكلمة العولمة Globalization تكاد تكون محايدة، ويترجمها البعض بالكوكبية، أي أنها تعبر عن انسيابية طبيعية أو تكاد تكون كذلك. أي أنه لا أحد أو طرف بعينه يحرك الأمور إلا التفاعلات كما هي، وكما تحدث بتلقائيتها وعواملها وتداعياتها العادية.

ولكن "التعولم" أي التحريك المتعمد لأوضاع العالم وليس الانسيابية والتطور الطبيعي، فقد يكون هدف الإعلام هو القضاء على الهوية الثقافية

---

(٤٤)- المرجع السابق.

* - سوف نشير إلى هذه المصطلحات عندما يأتي ذلك ضمن سياق نصوص المفكرين والأدباء فيما بعد.

(٤٥) - سامي خشبة، "مصطلحات فكرية، ثقافة مدنية" الأهرام، في ١/١٠/ ١٩٩٩م ص ١١

لدولة ما، فيقال أنها تمارس مثلا الغربنة Westernization، فهي خلاف ما يقال عن العولمة أو الكوكبية، ولكن التعولم يمثل فرض نمط اقتصادي ثقافي وسياسي بنوع من القصد والإجبار والإكراه مثل ما حدث في فرنسة الجزائر.

لقد بذلت في الأربعينيات محاولات من أجل إيجاد لغة عالمية موحدة "لغة الاسبرانتو" كلغة عالمية وقد باء هذا الجهد بالفشل، ومازالت المحاولات تدور حول إيجاد نوع من اللغات والتفاهم من أجل العولمة الثقافية، فهو طرح يعبر في نفس الوقت على احترام اللغة المحلية والخصوصية الثقافية لكل دولة ومنطقة وإقليم، وقد يتصور البعض أن مثل هذه اللغة قد تفرض نفسها في عام ٢٠٥٠م. ومن ثم فإننا في حاجة إلى مناقشة طبيعة هذه اللغة من حيث مفرداتها ورسمها، وسهولتها وصعوبتها، ومدى تقبلها لعلوم العصر والتقنيات الحديثة، تلك هي المسألة؟(٤٦)

وترتبط ولادة العولمة أشد ارتباطا بالثورة العلمية والمعلوماتية الجديدة، والتي تكتسح العالم منذ بداية التسعينيات. لقد أصبحت العولمة ممكنة بسبب معطيات الثورة العلمية التي أسست معظم التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتلاحقة خلال العقد الحالي (التسعينيات). فالثورة العلمية قد جعلت العالم أكثر اندماجا، وسهلت وعجّلت حركة الأفراد ورأس المال، والسلع والمعلومات، والخدمات. وجعلت المسافات تتقلص والزمان والمكان ينكمشان، وجعلت الولايات المتحدة القوة الاقتصادية العظمى المهيمنة وساهمت في انتقال المفاهيم

---

(٤٦) - حسن محمد وجيه، "نظرات اللغة ونظريات العولمة ج(٢)" الأهرام، في ٨/١٠/١٩٩٩م ص ١١

والمبادئ والمفردات والأذواق فيما بين الثقافات والحضارات بشكل سريع ومذهل.

"والعولمة كالثورة العلمية والمعلوماتية تتضمن أيضا توصيل المعلومات والخدمات الفورية إلى كل أنحاء العالم بسرعة الضوء، عبر التجارة الإلكترونية، والديمقراطية الإلكترونية، والتعليم الإلكتروني، والطب الإلكتروني، وحتى الحب الإلكتروني"([٤٧])

ماذا عن العولمة الثقافية! "إذا كانت العولمة الاقتصادية تبدو للبعض مكتملة على أرض الواقع، فإن العولمة الثقافة ليست بنفس القدر من الاكتمال، والعالم بعيد كل البعد عن أن يكون معولما عولمة ثقافية، فهي ظاهرة جديدة وتمر بمرحلة التأسيس الأولى، ولم تبرز بشكل واقعي إلا في التسعينيات.([٤٨]) فإن كان هناك إجماع حول معنى مفهوم العولمة الاقتصادية فإن ذلك غير وارد بالنسبة لمفهوم العولمة الثقافية؛ حيث إنها لم تتمكن بعد أن تجاري في تجلياتها وتطبيقاتها على أرض الواقع تجليات وتطبيقات المادية والمؤسساتية للعولمة الاقتصادية، فالعالم ليس موحدا ثقافيا كما هو موحد تجاريا وماليا.

لذلك نتيجة للغموض الذي يحيط بها فإن دول العالم التي تتدافع وتتنافس للأخذ بسلع ومنتجات وخدمات العولمة الاقتصادية، تبدو أقل اندفاعا وإقبالا وحتما أكثر ترددا وتمهلا في اندفاعها نحو مفاهيم وقيم وأفكار العولمة الاقتصادية، والتي تروج عبر الفضائيات، ومن خلال

---

[٤٧]) – الحبيب الجنحاني، "ظاهرة العولمة الواقع والآفاق"، عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ٦١.

[٤٨]) – عبد الخالق عبد الله، "العولمة جذورها وفروعها كيفية التعامل معها" عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ٧٤.

وسائل الاتصال الحديثة (الإنترنت) فكثير من الشعوب غير مطمئنة من العولمة الثقافية، وغير واثقة من كيفية التعامل معها، ففي الوقت الذي يبدو العالم فيه ميالا للانغماس في العولمة الاقتصادية، فإنه يظهر ميلا للانكماش من العولمة الثقافية.

فالثقافة وعناصرها الرئيسة كالفن والأدب والفكر، ومن ثم الحياة الثقافية عموما تظهر ميلا واستعدادا واضحا للعولمة والتعولم.[٤٩] ولو تركت الثقافة لطبيعتها وأعطيت حرية الاقتصاد لأصبحت أسرع وأكثر عولمة من الاقتصاد والجوانب الحياتية الأخرى، ويعود ذلك إلى أن الأفكار والقيم والمفاهيم تحمل في أحشائها دائما بذور العولمة، بل إن كل الأديان السماوية والأيديولوجيات تتوجه عادة إلى كل البشرية، ولا تكترث بالحدود أو التجمعات القومية؛ فرسالة الأديان هي العالمية والشمولية والتوحيدية غايتها.

فالهدف النهائي للعولمة الثقافية ليس خلق ثقافة عالمية واحدة، بل خلق عالم بلا حدود ثقافية، وهو لم يتحقق بعد، ولا نتوقع أن يتحقق قريبا، ولكن ربما يتحقق في المستقبل البعيد.

ومن ناحية أخرى فالعولمة الثقافية تتضمن أيضا بلوغ البشرية مرحلة الحرية الكاملة لانتقال الأفكار والمعلومات والبيانات والاتجاهات والقيم على الصعيد العالمي، وبأقل قدر من القيود والعراقيل والضوابط.

**ثقافة العولمة أم عولمة الثقافة!**

---

[٤٩]) – المرجع السابق، ص ص ٧٤-٧٥

فثقافة العولمة تشير إلى سؤال هام: هل العولمة سوف تنتج ثقافة خاصة بها ؟ ومن ثم فلا بد أن نعرف ما هي تلك الثقافة؟ وما التحديات التي سوف نواجهها؟ وما الاستعدادات التي يجب أن نتخذها لمواجهتها؟

أما عولمة الثقافة: فقد يكون خاصا بعولمة ثقافة معينة من الثقافات، والمشاهد اليوم هي الثقافة الأمريكية خاصة، والغربية عامة، ومن ثم علينا أن نتسلح مقدما بما سوف تفرزه العولمة من تداعيات تؤثر على هويتنا، وعلى أفكارنا، بحيث نحصن أنفسنا كنوع من "الوقاية" خير من أن نمرض ثم نبدأ في العلاج.

والغالب أن الاتجاه الأول والثاني متداخلان، فكما أن للعولمة منهجها وأسلوبها وآلياتها، التي يجب أن نعرفها، فإن لها محتواها بما يتضمنه من مكنونات فكرية ومادية وصبغتها المفروضة علينا سواء بثقافة فريدة أم عدة ثقافات؛ الأمر الذي يجعلنا نفكر ماذا عساه يكون موقعنا وموقفنا وأسلوب تربيتنا في مدارسنا وفي منازلنا من أجل مواجهة هذه التحديات، فلا نريد إغلاق الباب، ولا أن نفتحه على مصراعيه، حتى نتنفس بحرية، وبما يناسب ظروفنا، وقيمنا وعاداتنا وعقيدتنا، وأيضا وفق أولويات ومعايير ينطلق منها الاختيار الحر لكل فرد ولكل دولة.

هل تقبل الثقافة التعولم؟(٥) هناك ثلاثة احتمالات أو سيناريوهات:

السيناريو الأول: أن الثقافة لا تعولم وأن أية عولمة للثقافة ما هي إلا هيمنة لثقافة معينة على الثقافات الأخرى، هذه الهيمنة تستند على آليات من القوة خارج مجال الثقافة سواء كانت مستمدة من التكنولوجيا،

---

(٥)- حيدر إبراهيم، "العولمة وجدل الهوية الثقافية"، مجلة عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ١٠٠

أو مجال الاقتصاد أو مجال القهر السياسي، المهم أن هذه الهيمنة غير ممكنة في الوقت الحالي.

السيناريو الثاني: إن انتشار العولمة قد يحدث في مجالات مثل الاقتصاد والسياسة حيث لا تمتد إلى مجال الثقافة، لأنها قادرة على الاحتفاظ بتنوعها بوسائل عديدة طالما بقيت الفروق البشرية، ولكن هذا الاتجاه يفصل بين الجوانب الاقتصادية والثقافية، وبين السياسية منها والثقافية أيضا، مع العلم الجوانب الثقافية كثيرا ما تتأثر وتتشكل بفعل الأبعاد الاقتصادية والسياسية.

السيناريو الثالث: يعد معقولا من حيث يتوقع نوعية جديدة من العلاقات بين العولمة والثقافة لا تقوم على هيمنة ثقافية واحدة فقط، ولا على التنوع الثقافي، وإنما شيئا شبيها بما حدث لأمريكا في بداية تاريخها حين حاولت مزج الثقافات المتنوعة لديها في بوتقة واحدة Melting pot لصهر التعددية الثقافية في المجتمع الأمريكي، ولم تستطع ذلك، بل رأت الآن بأنها مجتمع الهويات المختلفة والانتماءات المتعددة متعايشة معا Salad Pool.

ولكن كيف نعيش عالمنا الراهن بواقعية دون تناقضات أو تأزم أو حساسية حيال عقدة النقص أو الخوف؟ ذلك من خلال الحوار والتكامل والتواصل الفكري حتى تتلاقى الثقافات بلا تصادم، وأن يكون هناك ندية واحترام الكيانات الصغيرة فيصبح الحجم ليس مقياس التقدير، ولكن بما لديه من فاعلية وتأثير وعطاء وقدرات مكنونة، تلك هي تداعيات العولمة إذا سارت وفق هذا المنحى.

**الهوية الثقافية (العربية الإسلامية):**

يزداد إلحاح مختلف الأمم على منح الثقافة القومية مكانها من الاعتبار والتأكيد، لا رغبة في الانكماش على الذات ولا امتيازا قوميا لكل أمة، ولكن بوصف ثقافة الأمة جزءا من كيانها في الحياة، وثروة تضاف إلى ثروات الإنسانية.

والهوية الثقافية يمكن أن توصف بأنها النواة الحية للشخصية الفردية والجماعية، والعامل الذي يحدد السلوك ونوع القرارات والأفعال الأصيلة للفرد وللجماعة، والعنصر المحرك الذي يسمح للأمة بمتابعة التطور والإبداع، مع الاحتفاظ بمكوناتها الثقافية الخاصة، وميزاتها الجماعية التي تحددت بفعل التاريخ الطويل واللغة القومية والسيكولوجية المشتركة وطموحات الغد.

إن الهوية الثقافية هي في واقع الأمر جزء عضوي من فكرة الثقافة لأنها مهما اختلفت أنواعها فإن التعبير عنها يظل ذاتيا بصورة من الصور، فالإبداع في أساسه شيء مباين للنمطيّة، مناف للتكرار، نابع من الذات الخاصية التي أبدعته، وإذا كان ذلك حقا فإنه من الحق أيضا أن الثقافة دائما عالمية من حيث الوظيفة لأنها تتوجه بها إلى كل إنسان، فهي تنطوي إذن على ظاهرتين قد تبدوان متناقضتين: الخصوصية القومية من حيث الإنتاج، والعمومية الإنسانية من حيث الوظيفة، ومع هذا فإن خصوصية الثقافة القومية شيء إيجابي لتحقيق التبادل الفكري في التعاون البشري لأنه إذا افتقدت الخصوصية اتسم الإنتاج الثقافي بالمماثلة، ولم يعد ثمة منطق لفكرة المبادلة، وهكذا فإن العنصر الهام في الإنتاج الثقافي هو خصوصيته وأصالته، أي هويته التي تميزه، والتي تتأبى على التقليد وعلى الاستلاب، وتقوم على العطاء والإضافة الثقافية المتجددة.

إن الهوية الثقافية لكل أمّة تقتضي عددا من العناصر منها:

١- وجود تراث روحي - مادي يشعر كل فرد أنه جزء منه، وأنه مكون له في الوقت نفسه.

٢- انتماء إلى ثقافة معينة يشعر كل فرد بالوجود ضمن إطارها، وبالتوحد معها، وبالمشاركة فيها، وبالحرية ضمن أجوائها.

٣- وجود شخصية اجتماعية محددة تربط أفراد الأمة بعضهم ببعض في لغة واحدة، وعادات وتقاليد متشابهة، وخصائص في العمل والتذوق وفي الإبداع الفكري والفني متماثلة، ومنظومة من القيم الروحية والأخلاقية والجمالية واحدة.

بهذا كانت ثقافة الأمة العربية قوام شخصيتها، والمعبر الأصيل عن تطلعاتها، والدعامة الحقيقية لوحدتها الشاملة، وكان الحفاظ على تراثها وانتقاله بين الأجيال وتجديده هو ضمانة تماسكها ونهوضها بدورها الإبداعي المتجدد.

ليست الهوية الثقافية مركبا جامدا من الخصائص والقيم والتقاليد، ولكنها مجموعة من المشاعر والأفعال ومن السمات التاريخية والأبعاد الفكرية والفنية والروحية، ومن معطيات السلوك الحية النامية تغتني بالحوار وبالتطور وبالأخذ والعطاء والإبداع الذاتي، فهي تتحدد وتعيد خلق ذاتها في إطار خصائصها لأنها في حركة داخلية مستمرة، وتتغذى بالموروثات العريقة للمجتمع، وبالقدرات الداخلية الإبداعية فيه كما تتغذى بالإسهامات الخارجية عن طريق الاستيعاب والتحوير والتمثل، إنها السعي الدائم إلى مشروع ثقافي جديد يكفل خلق المستقبل من أضلاع الماضي.

إن الثقافة العربية تظل واحدة من أعرق ثقافات الدنيا في الزمن، وأوسعها امتدادا في المكان، وأكثرها غنى في العطاء القومي والإنساني على السواء، وقد غذت وما تزال تغذي بقيمها وإبداعها الأجيال بعد

الأجيال منذ أقدم قرون التاريخ، فقد كانت واحدة من ثقافات قليلة أخذت الصفة العالمية قبل هذا العصر الحديث، سواء في جمعها ثمرات الحضارات التي سبقتها وتمثّلها أو في انتشارها وتجاوب قيمها ومفاهيمها لدى أكثر الشعوب المتحضرة في عهدها.

ولقد قامت جذور هذه الثقافة العربية على الإسلام في المنطقة العربية، وكان الموقع الجغرافي للشعوب العربية من جهة وأسلوب حياتها من جهة أخرى يؤهلانها منذ القديم للتفاعل والتعامل مع جميع شعوب العالم على السواء، وذلك عن طريق التجارة والتبادل التجاري اللذين كان العرب سادتهما قبل الإسلام وبعده بموقعهم المميز على أطراف بحار الحضارات: الأبيض والأحمر والهندي.

ولقد كان دور الثقافة العربية في إطار الثقافة العالمية على الدوام دور إبداع وإضافة وعطاء، وظلت رغم خصوصياتها ثقافة إنسانية شاملة لا بتراثها الإسلامي فقط وهو ذروة عطائها، ولكن بما تمثلته وبما تجاوزته من عناصر الحضارات الأخرى أيضا، وبلغتها العربية التي ظلت لغة العالم فكرا وعلما واقتصادا وسياسة وحضارة على مدى قرون عديدة، وبفنونها الأثرية والفنية والأدبية التي ما تزال تشكل ثروة جمالية لأبنائها وللعالم، وآصرة من أقوى أواصر الوحدة والتماسك بين أجيالها، وهذا يعني أنها بالإضافة إلى دورها القومي ذات دور عالمي أيضا، وهذا الدور، رغم كل ما أحاق به من تراجع خلال القرون الخمسة الأخيرة فإنه ما يزال حيا قائما لدى الأمة العربية، ومن ورائها جميع الشعوب الإسلامية في آسيا

وإفريقيا خاصة، وهذا وحده كاف لكي يجعل الثقافة العربية رسالة حضارية، وركنا ركينا في ثقافات العالم. (٥١)

ولقد كانت الثقافة العربية – وما تزال ككل الثقافات الأخرى الأصيلة – ذات وظيفة تاريخية أساسية في توحيد الأمة العربية في الوجدان العميق ومنابع الإبداع ومناهج التفكير، وكل خطط التنمية الثقافية العربية إنما تنصبُّ – بين ما تنصبّ عليه – على تقوية وظيفتها التوحيدية، ولا تنبع هذه الوظيفة من دورها التاريخي فقط ولا من مجرد الرغبات والآمال الانفعالية، ولكن من المصالح المباشرة للأمة العربية حاضرا ومستقبلا، ضد عوامل التجزئة التي تتألب عليها من كل صوب، على أن وظيفة السعي إلى تحقيق الوحدة ليست من المعطيات الثابتة الأبدية، بل هي عملية حية إذا لم تجر تغذيتها باستمرار بالعناصر المبدعة المحركة تراجعت باستمرار، وخاصة في هذا العصر الذي تتعرض فيه الثقافة العربية الموحدة إلى هجمات الاستلاب والتفتيت بسبب وجودها بين الثقافات العظمى المعاصرة، وتزعزع عناصر الحصانة والأمن الذاتي فيها.

والثقافة العربية على هذا تراث عريض بقدر ما هي حاضر ثقافي عريض أيضا، وهي تضم في ثناياها ألوانا من الثقافات المحلية، ودور هذه الثقافات فيها كدورها ضمن جميع الثقافات الكبرى، وهو أنها تزيد في غناها وألوانها، وتنوع من عطائها لا سيما وهي تعيش فيها ومعها وضمن فلكها الواحد منذ العصور الإسلامية الأولى، وتتفاعل معها أخذا وعطاء وإنتاجا وتعبيرا طوال هذه العصور. ولقد أسهم الكثير منها في تكوين الثقافة الإسلامية لما إحتضنت هي بدورها عطاء تلك الثقافات بطبيعة

---

(٥١) – حمد الطيب، "خصائص الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية"،أبحاث مؤتمر حقيقة الإسلام في عالم متغير، القاهرة: وزارة الأوقاف، ٢٠٠٣، ص ٩٩٣.

السماحة الإسلامية فيها، واعتبرته جزءا منها ومن كياتها الأصيل ومن تجاربها الثقافية المتنوعة.

على أن التنوع لا يعني الصراع والتمزيق للوحدة الثقافية العربية، والمحاولات التي تهدف إلى خلق ثقافات محلية أو إيجاد كيانات ثقافية متناحرة وما يستعار لهذه وتلك من شبهات تاريخية، أو مناهج عامية في التعبير، أو طائفيات ذات أغراض، فإنما هو من عوامل الهدم التي لا يراد بها وجه الحق ولا خير هذه الأمة.

إن دور الثقافة في حياتنا القومية المعاصرة والمستقبلية يتضمن بالضرورة:

أ ـ زرع الثقة والأمل في الجماهير العربية من جديد بعدما أصابها من الهزائم والنكبات والإحباطات، فبدون الثقة بالذات والأمل في الغد لا يمكن عمل شيء لإخراج هذا الوطن العربي من واقعه الحالي.

ب ـ وضع الأسس الفكرية للطفرة الحضارية النوعية التي تحتاجها هذه الأمة في هذا العصر دون التفريط بالقيم الروحية والقومية والإنسانية التي تصوغ ذاتها وهويتها وتغني عطاءها الحضاري.

ج ـ إعادة تأكيد المحاور الأساسية والأهداف الكبرى للأمة العربية التي دار حولها نضال جماهيرها منذ عصر النهضة وهي:

- الاستقلال والتحرر في مواجهة الهيمنة الأجنبية والاستلاب.
- الوحدة القومية في مواجهة التجزئة والإقليمية الضيقة.
- الديمقراطية في مواجهة الاستبداد.
- التنمية الذاتية في مواجهة التخلف أو النمو المشوه.

- الأصالة والاعتزاز بقيمها الأخلاقية والإسلامية في مواجهة التغريب والتبعية الثقافية.
- الحضور القومي بين الأمم بالإبداع والإنتاج في مواجهة حضارة الاستهلاك والتقليد.

هذه المحاور إنما تطرح كعناصر عضوية مترابطة في مشروع قـومي حضاري كبير. والثقافة بكل رموزها التعبيرية وقدراتها وشحناتها الوجدانية هي جزء لا يتجزأ من كل محور، وهي التي تعطي المـشروع كلـه قوتـه المعنوية، وإطاره العقلاني والحضاري، وهي التي تحقق فيه التوازن بـين قيم الحركة (التجديد) وقيم الثبات (المحافظة) بحيث لا تطغى واحـدة فيهـا على الأخرى.

ومن ثم نعرض التحديات التي تواجه العالم الإسلامي ونقدم واحدة منها، العولمة، لنعرف موقف الإسلام وبعض المفكرين منها، وتداعياتها، والمتطلبات التربوية للتعامل معها، وهذا ما سنقدمه في الفصل التالي.

# الفصل الثاني

## العولمة والتعددية الثقافية
## في ميزان الإسلام

# العولمة والتعددية الثقافية

## في ميزان الإسلام

### مُقدِّمة

قام هذا النظام الجديد بغرس كل أنواع الاستعمار في عالمنا العربي (الاستعمار العسكري في مصر، السودان، ليبيا، المغرب، تونس، الصومال، العراق، جيبوتي، سورية، لبنان وأريتريا - الاستعمار الاستيطاني في الجزائر - الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في فلسطين)، وقام بنهب هذه المنطقة، إما مباشرة إبَّان فترة الاستعمار العسكري المباشر أو من خلال التحكم في أسعار المواد الخام (خصوصاً النفط)، وعن طريق بيع أسلحة ببلايين الدولارات لنظم يضمن هو بقاءها في الح[illegible]، ويعلم جيداً أنها غير قادرة على استخدام هذا السلاح، كما أثبتت الخبرة التاريخية التي يريدنا أن ننساها .

وتتضح هوية هذا النظام العالمي الإمبريالي المغلق في ظهور الفلسفات العنصرية والداروينية والنيتشوية التي تقسم العالم - وبحدة - إلى الأنا والآخر، وتجعل الذات القومية هي المعيار الوحيد للحكم، وتجعل الغرب هو المركز، وتجعل الإنسان الأبيض هو صاحب المشروع الحضاري الوحيد الجدير بالاحترام والبقاء، ومن هنا عُبئ الرجل الأبيض الشهير، فهو وحده القادر على اختيار الطريق الصحيح، أما الآخر فهو عاجز ضالّ. وفي هذا الإطار ظهرت الفاشية والنازية ثم الصهيونية وهي دعوة لحل مشاكل أوروبا (المسألة اليهودية) عن طريق تصديرها للشرق .

فحينما كان هِرتزل يتحدث عن إنشاء دولة يهودية يضمنها "القانون الدولي العام" –فإنه كان يعني "القانون الغربي الاستعماري"، الذي يتحكم في العالم ويقسمه حسب رؤيته ومشيئته، ثم صدر وعد بلفور في هذا الإطار، إذ أعطت بريطانيا الحق لنفسها في أن تمنح أرض فِلسطين للفائض البشري اليهودي في الغرب، وأن تنقل من فِلسطين سكانها الأصليين (تمت الإشارة إليهم باعتبارهم العناصر "غير اليهودية"، أي "غير الغربية"، ومن ثم فهم يقعون خارج نطاق الحقوق والمسئوليات)، ثم قام النظام الدولي – مرة أخرى من خلال هيئة الأمم المتحدة – بتقسيم فِلَسطين ومنح الوجود الصهيوني شرعية مستمدة من شرعيته الدولية هذه، ثم استمر النظام الدولي – متمثلاً في شِقَّيه الرأسمالي والاشتراكي – بالاعتراف بالدولة الصهيونية، ودعمها إما بشرياً عن طريق نقل المادة البشرية من شرق أوروبا، أو مالياً وعسكرياً عن طريق الدعم المالي والعسكري من غرب أوروبا والولايات المتحدة، وهو دعم ظل يتزايد في حجمه ونوعه يوماً بعد يوم، حتى وصل إلى التحالف الاستراتيجي المعلن بين "إسرائيل" والولايات المتحدة، مؤكداً بذلك أن الغرب – صاحب النظام الدولي – هو المهيمن على العالم، وأن العالم هو المسرح، وأن الجنس البشري هو المادة التي وظفها لصالحه .

هذه رؤية ثنائية حادة تنكر تاريخ الآخر وإنسانيته، ولا تقبل به إلا كمادة استعمالية، وقد تكررت ممارسات النظام الإمبريالي الدولي القديم بأشكال تتراوح بين درجات مختلفة من الحدة والتبلور في أنحاء آسيا وإفريقيَّة وأمريكا اللاتينية، وكان يمكن للاستعمار أن يستمر على شكله القديم، ولكن حدثت تطورات تاريخية عميقة لا تشكل لحظة إفاقة أخلاقية تاريخية – وكيف يمكن أن نتوقع هذا من حضارة مؤسسة على أساس القانون الطبيعي والفلسفة النيتشوية والداروينية ؟! – وإنما تشكل لحظة

إدراك ذكية من جانب الغرب لموازين القوى، أدت إلى ظهور النظام العالمي الجديد الاستعماري .

ونحن نلخص أسباب ظهور هذا النظام الجديد فيما يلي:[1]

١- أدرك الغرب عمق أزمته العسكرية والثقافية والاقتصادية، وأحس بالتفكك الداخلي وبعجزه عن فرض سياساته بالقوة.

٢- أدرك الغرب استحالة المواجهة العسكرية والثقافية والاقتصادية مع دول العالم الثالث، التي أصبحت جماهيرها أكثر صحواً، ونُخبها أكثر حركية وصقلاً وفهماً لقواعد اللعبة الدولية.

٣- أدرك الغرب أنه على الرغم من هذه الصحوة، فثمة عوامل تفكك بدأت تظهر في دول العالم الثالث، فقد ظهرت نخب محلية مستوعبة تماماً في المنظومة القيمية والمعرفية والاستهلاكية الغربية - يمكنه أن يتعاون معها ويجندها، وهي نخب يمكن أن تحقق له - من خلال السلام والاستسلام - ما فشل في تحقيقه مس خلال الغزو العسكري .

لكل هذا، أدرك الغرب إمكانية اللجوء للإغواء والإغراء بدلاً من القمع، والاستفادة من التفكك لضرب التماسك بدلاً من الهجوم التدميري المباشر؛ وبذا يحل إشكالية عجزه عن المواجهة ويتخلى عن مركزيته الواضحة وهيمنته المعلنة، ليحل محلها هيمنة بنيوية تغطيها ديباجات السلام والديمقراطية التي ينقلها البعض ببّبغائية مذهلة، ويمكن أن نتعامل بشيء من التفصيل مع التغيرات العالمية التي تشكل إطاراً لظهور النظام العالمي الجديد كما يلي :

[1]- عبد الوهاب المسيري، النظام العالمي، موقع الوحدة، في ٢٠٠٣/٦/٥.

أولاً : على المستوى العسكري :

١- أدت مرحلة الحرب الباردة بين الدولتين العظميين إلى إرهـاقٍ متبـادل لهما، نتيجة الدخول في سباق للتسلح لا نهاية لـه، خـصوصاً وأن تطوير تقنية السلاح أصبحت مسألة مكلفة للطرفين بشكل لا يطيقـه أي منهما، وعلى الرغم من "انتـصار" الولايـات المتحـدة، إلا أن النزيف قد أثر فيها، وقد أصبحت الحروب الحديثة أمراً مكلفاً للغاية، يتطلب تمويلاً ضخماً يصعب على أي دولة - بما في ذلك الولايـات المتحدة - القيام به، خصوصاً وأن ثمة أزمة اقتـصادية عالميـة، تجعل من الصعب على الشعوب الغربية القبول بتخصيص اعتمادات عسكرية كبيرة في وقت تقوم فيه كثيرٌ من الدول الغربية بتـصفية مؤسسات الرفاه الاجتماعي .

٢- تراجعت القدرات العسكرية للاستعمار الغربي؛ بسبب تـصاعد معـدلات العلمنة والتوجه الحاد للإنسان الغربي نحو المنفعة الشخصية واللذة المباشرة التي لا يمكن إرضاؤها إلا بالإشباع الفوري، وقد أدى هذا إلى انخفاض الروح النضالية لدى الإنسان الغربـي وإلـى ارتفـاع تكاليف الحملات العسكرية . وقد صرح المتحدثون باسم المؤسـسة العسكرية الأمريكية بأن إمكانياتها قد أجهدت تماماً أثناء العمليتـين المتزامنتين لإنزال الجنود الأمريكيين في كلٍّ من غرانادا ولبنـان، وذلك على الرغم من صغر حجم العمليتين؛ بـسبب تـضخم قطـاع الخدمات في القوات المسلحة - تماماً كما يحدث فـي المجتمعـات الاستهلاكية الحديثة، إذ يتطلب إنزال جندي أمريكي واحـد خـدمات عدة جنود، يصل عددهم أحياناً إلى عشرة، مما يعني أن إنزال عشرة آلاف جندي يشغل ما بين خمسين ومائة جندي آخر ! (وقـد كانـت

حرب الخليج خليطاً من المأساة والملهاة في هذا المضمار؛ بسبب معدل الرفاهية العالي)[٢] .

٣- تراجعت الهيمنة العسكرية الغربية؛ بسبب ظهور دول لها قوة عسكرية ضاربة وقوة نووية غير خاضعة للهيمنة الغربية، مثل كوريا الشمالية والصين، وربما باكستان.

٤- أدرك الغرب - في الوقت نفسه - عبث المواجهة العسكرية مع القوى المجاهدة غير الرسمية، خصوصاً بعد تجربته المريرة في فيتنام (تجربة الانتفاضة الفلسطينية المستمرة وتجربة أفغانستان الناجحة).

٥- ظهور أسلحة دمار رخيصة مثل الصواريخ ذات الرؤوس الميكروبية (قنبلة الفقراء النووية على حد قول أحد المعقلين)، بل أثبتت حرب أفغانستان مقدرة الجماعات الفدائية على الحصول على أسلحة ذات مقدرة تدميرية عالية، لا يحتاج استخدامها إلى متخصصين وإلى دورات تدريبية .

ثانياً : على المستوى الثقافي :

١- تراجعت المركزية الغربية على المستوى الثقافي؛ بسبب ظهور كتلة العالم الثالث، وظهور حركات بعث قومي فيها؛ بسبب تزايد الوعي بالذات الثقافية؛ وبسبب أزمة الغرب الذي لم يعد نموذجاً جذاباً ناجحاً كما كان في الستينات، ومما ساعد على ذلك ظهور أقليات ثقافية إثنية داخل العالم الغربي ذاته لا تقبل بالهيمنة الثقافية الغربية أو بمركزيته الثقافية.

٢- وقد حدث هذا في وقت تمر فيه الحضارة الغربية بأزمة عميقة، فلم يعد الغرب واثقاً تماماً بنفسه كما كان الأمر من قبل؛ وذلك مع تفشي

---

[٢]- عبد الوهاب المسيري، النظام العالمي، مرجع سابق.

النسبية الثقافية وظهور مراكز اقتصادية عسكرية وثقافية أخرى في العالم، ومع تفاقم الأزمة الاجتماعية في الداخل (الجريمة - تفكك الأسرة - الإيدز - المخدرات - الإباحية) ؛ ولذا لم يعد قادة العالم الغربي قادرين على الحديث عن تفوق الجنس الأبيض، كما كان عهدهم في الماضي القريب .

٣- مع هذا، لاحظ الغرب أن ثورة المعلومات والنظام الإعلامي الجديد - بأفلامه وكتبه ومرئياته ومراكز بحوثه - لديه مقدرة هائلة على الاختراق، تساعد على نقل المنظومة القيمية الغربية إلى كل أرجاء العالم، بعد أن كانت محصورة إلى حد كبير في الغرب .

٤- أدرك الغرب أنه ظهر في العالم الثالث نُخبٌ محلية تنتمي (اسماً) إلى شعوبها، ولكنها تنتمي (فعلاً) من ناحية الرؤية والتطلعات والأحلام وأسلوب الحياة - إلى العالم الغربي . ومن الملاحظ أن تصاعد الوعي القومي صاحبه أيضاً تصاعد في معدلات العلمنة والترشيد والأمركة في كل أنحاء العالم، وتم اختراق كثير من أعضاء النخب الثقافية، كما تم الاستيلاء على أبنائهم، وبدأ الحلم الأمريكي يتسرب إلى قطاعٍ لا بأس به من الجماهير، وهذا ما يشير إليه البعض بظاهرة الكَوكَلَة (نسبة إلى مشروب الكوكا كولا) أو الكوكاكولانية بدلاً من الكولونيالية، والكوكاكولانية هي اختراق المنظومة القيمية الغربية لأحلام الناس وعقولهم من خلال برامج التلفاز - على سبيل المثال - دون اللجوء إلى القوات العسكرية، وقد ساهمت ثورة المعلومات في هذه العملية .

ثالثاً : على المستوى الاقتصادي :

١- تواجه الولايات المتحدة - قائدة العالم الغربي - مشاكل المديونية وعجز الميزان التجاري، فالدَّيْن الأمريكي يزيد على ثلاثة تريليونات

دولار، وانخفضت حصة الناتج القومي الإجمالي الأمريكي من الناتج العالمي إلى الثلث. ويتنبأ بعض الاقتصاديين بأن الولايات المتحدة - التي أضعفها عقدان من الركود - ستصبح بحلول عام ٢٠٠٠ ثالث قوة اقتصادية بعد أوربا واليابان، اللتين سوف تتفوقان على أمريكا من حيث الناتج القومي الإجمالي وحجم الاستثمارات في الخارج وحجم الصادرات.

٢- حدث هذا في وقت بدأت تظهر فيه مراكز اقتصادية غير غربية تُطور نفسها خارج شبكة الهيمنة الغربية مثل اليابان والصين وماليزيا وغيرها .

٣- لاحظ الغرب أن كثيراً من دول العالم الثالث أصبحت واعية بمصالحها الاقتصادية، وبآليات السوق المحلية، وكيفية السيطرة عليها، وبآليات إدارة الحكومة والاستثمار في الداخل والخارج وأصبح لدى كثير من حكومات العالم الثالث خبرات محلية ومستوردة تجعل عملية النهب الاستعماري القديمة - التي بدأت باستبدال المرايات بالأراضي - صعبة، بل ومستحيلة .

٤- أدَّى تطور الاقتصاد الغربي وتمدد السوق الغربية إلى ظهور ما يشبه الاقتصاد الدولي - وهو اقتصاد غربي ساحته كل الدول، وظهرت الشركات عابرة القارات التي تحمل الرأسمال الغربي في كل مكان، بحيث يتبعها أعداد هائلة من الموظفين والمستفيدين، وهي تحمل معها أنماط الاستهلاك في السوق الغربية باعتبارها كياناً آلياً يتطلب تنميط الآخر .

٥- لاحظ الإنسان الغربي أن ثمة قضايا جديدة لا يمكن مواجهتها إلا في إطار عالمي، وهو ما يتطلب التعامل مع حكومات العالم الثالث، فثمن

التقدم لم يعد مجرد تلويث نهر أو إصابة مجموعة من الناس - مثلاً - بداء الكبد، فنحن بدأنا نسمع الآن عن ظواهر ذات طابع كوني، مثل ثقوب الأوزون وسخونة الغلاف الجوي، وفي عصر الإمبريالية الغربية كان الإنسان الغربي يُصدِّر للشرق فواتير التقدم وينساها، أما الآن فإن ثقوب الأوزون لا تعرف الفرق بين الشرق والغرب، وتذكره - الإنسان - بالدمار الذي يحيط بالجنس البشري .

٦-وإذا أخذنا انتشار المخدِّرات - باعتباره أحد النتائج السلبية للتقدم - فإن هذا يعني أنها هي الأخرى تسهم في عملية تدويل العالم، وفي القرن الماضي، كان الاستعمار الإنكليزي يدخل حرب الأفيون الأولى والثانية؛ ليفرض على سكان الصين تناول الأفيون بقوة السلاح ويحقق الربح لنفسه، ومع هذا كان المجتمع الإنكليزي يستمر في الحفاظ على أخلاقياته الفيكتورية المحافظة، وحتى في الستينات، كانت الشرطة الأمريكية لا تمانع كثيراً من وجود المخدرات في حي هارلم الأسْوَد في نيويورك، وكأن هذا يعد شكلاً من أشكال الضبط الاجتماعي، أما الآن، فإن كارتل إسكوبار في كولومبيا، وكذلك المثلث الذهبي - تمتد أياديهم لتصل إلى أولاد الطبقة المتوسطة البيضاء في نيويورك ولندن وضواحيهما، والمخدرات التي تُزرع في منطقة الإشعاع النووي في تشرنوبيل - ولذا فهي تنمو بسرعة سرطانية - تجد طريقها إلى كل أرجاء المعمورة ! .

إن ما حدث ليس اختفاء العالم ذي القطبين والتلاقي الأيديولوجي بين القوى العظمى المتصارعة (المتمثلة في روسيا - اليابان - العالم الغربي) وإنما هو - أيضاً - تراجع المركزية الغربية وظهور مراكز عديدة تتفاوت قوةً وضعفاً، وإدراك الغرب لذلك، وإدراكه - أيضاً - لمواطن الضعف في القوى المقاوِمة له، كل هذا أدى إلى أن يتبنى الغرب

استراتيجية جديدة وهي الاستعمار العالمي الجديد، فهو - من الآن فصاعداً - سيلجأ إلى التفكيك بدلاً من التدمير وإلى الإغواء بدلاً من القمع بقدر الإمكان، فالآلية الأساسية للقسر - أي سحق إرادة الشعوب - أصبحت مكلفة للغاية، إن لم تكن مستحيلة تماماً .

وجوهر الإغواء هو إيهام الآخر بأنه شريك مع الاستعمار الغربي في عمليات الاستثمار، بل وشريك (صغير) في عمليات النهب ومستفيد منها، ويواكب هذا إغواءٌ لأعضاء النخبة عن طريق إفسادهم ورشوتهم، بل وإغواء الشعب نفسه، إما مباشرة عن طريق وسائل الإعلام الغربية، أو عن طريق النخب المحلية، وتصعَّد في الوقت ذاته عمليات تفكيك الدولة القومية كإطار لتجميع القوى الشعبية المختلفة ضد الإمبريالية أو ضد الهيمنة الغربية، وذلك عن طريق المنظمات الدولية وإثارة الأقليات وإثارة مشاكل الحدود .. الخ .

وانطلاقاً من ثنائية الأنا والآخر العنصرية الصلبة، كان النظام الإمبريالي القديم يحاول أن يوقف عمليات التحديث في أي مكان في العالم، والتي تحدث من أجل أن يصبح العالم الغربي متقدماً، منتجاً ومستهلكاً، ويصبح العالم الثالث متخلفاً بُدائياً مُصَدِّراً للمواد الخام والعمالة الرخيصة ومستهلكاً ضعيفاً لبعض بضائع أوروبا، أما النظام الإمبريالي الجديد المزامن لعصر الاستهلاكية العالمية - فيرى أنه من الضروري ترشيد العالم بأسره، وتحويله كله إلى حالة المَصنع والسوبر ماركت؛ ولذا فلا بد أن تتقدم شعوب الأرض بما فيه الكفاية؛ لتصبح شبه منتجة، شبه مستهلكة، فالبدوي في صحراء نَجد والهندي الأحمر في براري أمريكا والقروي في الصعيد - يشكلون عائقاً يقف أمام النظام الإمبريالي الجديد المتمثل في الاستهلاكية العالمية؛ فهم ليسوا في حاجة إلى الهامبورجر والسيارة أو الفيديو ومن ثم فلا يمكن تجويعهم أو حرمانهم أو الضغط عليهم؛ فهم

يشكلون ثغرةً في نظامٍ يشبه الآلة ولا يتحمل ثغرات، ويجب أن تكون أجزاؤه جزءاً من الكل الآلي، فمثل هؤلاء الفقراء مستقلون قادرون على الحفاظ على أبنيتهم الثقافية وقيمهم المطلقة وعلى اتزانهم مع الذات ومع الطبيعة، وهذا أمر يهدد النظام العالمي؛ ولذا، لا بد وأن "يتقدم" الجميع؛ حتى يدخل الجميع النظام العالمي، ويتم هذا من خلال بيع الأحلام الوردية عن الرخاء الاقتصادي وتعظيم اللذة أو الوعد بها، والتصعيد المستمر للرغبات الاستهلاكية والجنسية، وهو تصعيد يتم من خلال البث التلفازي ووسائل الإعلام الداخلية والخارجية .

ولكن يجب أن يتم التقدم تحت مظلة البنك الدولي وصندوق النقد، داخل إطار النظام العالمي الجديد الذي تحكمه بنية التفاوت والمنظومة القيمية الاستهلاكية؛ ولذا يجب ألا يسمح بإدخال التنمية المستقلة، فهي أيضاً تُحدث ثغرة في النظام الدولي، فهي قد توقف توسع الشركات متعددة الجنسيات وقد تعوق التنمية تحت مظلة البنك الدولي، وأما التنمية في إطار النظام العالمي الجديد، فإنها ستضمن أن تكون شعوب العالم الثالث نصف منتجة ونصف مستهلكة، حتى يستمر اعتمادها المذل على الغرب، ولا شك أن عمليات تصعيد التوقعات الاستهلاكية، وعملية التسخين - الاستهلاكية الجنسية - التي تتعرض لها شعوب العالم الثالث، ستجعل من المستحيل تحقيق أي تراكم رأسمالي، وستبدد الطاقة الثورية أولاً بأول، وتختفي الرغبة في السمو وفي الجهاد .

والاستهلاكية العالمية - التي ستحول العالم إلى سوق كبيرة لا يسودها إلا قوانين العرض والطلب وتعظيم المنفعة المادية واللذة الحسية التي تؤدي إلى سيادة حالة المَصنّع في العالم بأسره - هذه الاستهلاكية العالمية وجدت أن من صالحها أن تفتح الحدود، وأن تختفي القيم والمرجعيات تماماً، حتى يفقد الجميع أي خصوصية تُجنّبهم أن يصبحوا آلة

إنتاجية استهلاكية وقطع غيار في الوقت ذاته، ومن هنا كان الحديث عن الديمقراطية بطريقة انتقائية؛ فهي أداة النظام الاستهلاكي العالمي الجديد في فتح الحدود وإضعاف الدول القومية المركزية الصغيرة، حتى يتسنى له – النظام الاستهلاكي العالمي – ترشيد البشر وإزالة أي عوائق إنسانية أو أخلاقية، وحتى تصبح كل الأمور متساوية وكل الأمور نسبية ويسود تساوٍ معرفي كامل، هو في واقع الأمر عملية تسوية، وتصفّى كل الثنائيات، فالأجساد مادة والعقول آليات والعالم عقارات والأوطان فنادق .

وأما ما ينفع الإنسان الطبيعي فهو الانخراط الرحِمي – نسبة إلى الرحم – في المنظومة الآلية، ويصبح الجميع سواسية مثل أسنان المُشْط الأمريكي البلاستيك، فيتخففون من عبء الهوية والضمير والاختيارات الأخلاقية المركبة![٣] .

ولنلاحظ أن ما تساقط هنا ليس خصوصية قومية بعينها، وإنما مفهوم الخصوصية ذاته، وليس تاريخاً بعينه، وإنما فكرة التاريخ ذاتها، وليس هوية بعينها، وإنما كل الهويات، وليس منظومة قيمية بعينها، وإنما فكرة القيمة ذاتها . وليس نوعاً بشرياً بعينه، وإنما فكرة الإنسان المطلق ذاتها، الإنسان ككِيان مركب، لا يمكن ردّه إلى ما هو أدنى منه، لقد اختفت المرجعية – أي مرجعية – وظهر عالم لا خصوصيات فيه ولا مركز له.

[٣]- عبد الوهاب المسيري، النظام العالمي، مرجع سابق.

## العولمة جسور للتواصل:

في مطلع القرن الحادي والعشرين، ظهرت على مسرح العالم أحداث فرضت نفسها على الثقافة والتربية، وانعكست بدورها على الإنسان في طريقة تفكيره وأسلوب تعامله مع الآخر وفي سلوكه اليومي، مما يجعلنا نتأمل ما جاء به القرن الحالي ليمهد للدخول في الألفية الثالثة التي نشاهد إرهاصاتها في صور شتى لعل من أبرزها العولمة بمظاهرها الاقتصادية، والثقافية، والسياسية، والعسكرية، فضلا عن تأثيراتها على الإنسان الذي يتفاعل معها.

ومن المفيد أن نقدم عرضا لأبعاد العولمة، من منظور التعددية الثقافية التي ستعمل العولمة على إذابتها لتصبح هناك ثقافة واحدة، كما أن من المفيد أن نعرض لمجمل الآثار والتداعيات التي سوف تنعكس على التربية وعلى قيم الفرد وعلى الخصوصيات الثقافية، لنخلص من كل ذلك إلى تقديم بعض التصورات التي قد تفيد في مواجهة التحديات العالمية، مع مطلع الألفية الثالثة ونحن متسلحين بأدوات ومهارات تجعلنا نتبوأ مكانا متميزا بين الأمم المتقدمة.

والجدير بالذكر أن الدعوة إلى الوحدة العالمية، والنظرة الإنسانية العالمية لحقوق البشر هي من صميم قيم الإسلام، والأديان السماوية الأخرى.

## الإسلام والتعددية الثقافية:

في الإسلام عقائد وتعاليم تشكل فكرة الوحدة الإنسانية، وروح العولمة، ويمكن أن نقارنه بالطروحات الحالية، ونقوّمها في ضوئه، فالقرآن الكريم رسالة للبشر كافة، ورسالة عالمية لكل الأجناس وفي هذا

يقول الحق تبارك وتعالى للرسول ﷺ "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"(الأنبياء ١٠٧).

فالاتجاه نحو تقريب العالم دعوة قديمة قدم التاريخ لا ترتبط بالتطورات العلمية والتكنولوجية الراهنة، كما أن الدعوة لدمج العالم ليست دعوة حديثة، بل إنها ارتبطت تاريخيا بالديانات السماوية القديمة، في تأكيدها على فكرة وحدة البشرية أمام الخالق، وبالتالي فإن الجوهر بالنسبة لكل الديانات هو دعوة الشعوب والأمم للتقارب، والتكافل تحت راية الإيمان بوجود رب واحد، وخالق واحد، وقيم وقناعات ومسلمات مشتركة تحكم السلوك الإنساني في كل أنحاء العالم.[٤] ولا شك أن الإسلام كان في مقدمة الديانات السماوية التي دعت الشعوب والقبائل للتعارف والتوحد."يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لتعارفوا (الحجرات ١٣) . ولكن الطرح الإسلامي ليس فرضا وإملاء على الآخرين أو إكراه "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ" (البقرة ٢٥٦)، وبالطبع فإن فكرة تكوين وتشكيل عقلية البشر وجعلهم متفقين في كل شيء متشربين لثقافة واحدة على طريق واحد، بدون تعدد المشارب، فهذا مستحيل وضد طبيعة البشر؛ لقول الخالق جل شأنه للرسول ﷺ "لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ" (الأنفال ٦٣)

## العولمة قبل نصف قرن:

رأى المفكرون أن التعددية الثقافية هامة، والوعي بالمشكلات العالمية وروح الانتماء للإنسانية ضروري، فكان على الجامعات رسالة قد ناقشتها مجلة الثقافة تحت قضية الإنسان العالمي، من خلال عرضها لمؤتمر اليونسكو عن الجامعات في عام ١٩٤٨، ومنها أن رسالة التعليم الجامعي

---

[٤]) – محمد عباس، "الثقافة العربية وتحديات العولمة" مجلة شوون عربية، العدد ٦١ -ربيع ١٩٩٩،

هو دعم التفاهم الدولي خلال دراسة مفهومة وإنشاء أقسام وكليات دولية وتدريب الخرجين على الوظائف ذات الصبغة الدولية وتشجيع الدارسين على الرحلات والمعسكرات والاجتماعات مع شباب الدول الأخرى"(٥).

وفكرة سيادة شعب على سائر الشعوب، أو انفراد حاكم مستبد ، أو سيطرة دولة على العالم يرفضها العقاد كما يرفض أفكار الفلاسفة القائمة على النزعة العنصرية، فيقول: "والعجب أن سيادة شعب على سائر الشعوب هي الخرافة التي لم تعد قط في زمان مضى ولن تعد يوماً في زمن مقبل والناس لا يملكهم واحد مهما علا في ملكه واستطال... نعم إن الإخاء العالمي كلمة قديمة ولكن الوحدة العالمية لم تصبح حقيقة من الحقائق الملموسة قبل هذا الجيل يعني هذا الجيل الذي نحن فيه تقاربت أجزاء العالم حتى تسنى لمن في الشرق الأقصى أن يسمع من أقصى المغرب"(٦).

وقد تنبأ العقاد بما سوف يحدث اليوم حين قال إن المسافات تقلصت بين ثقافات الدول، وإن العالم أوشك أن يصدر عملة موحدة وقد حدث ذلك في أوربا ولنقرأ نص كلماته: "وفى هذا الجيل تم السفر من أطراف العالم إلى أطرافه في أقصر من الوقت الذي كان أبناء القطر الواحد يسافرون فيه من إقليم إلى إقليم وفى هذا الجيل أو شك الناس أن يتعاملوا بعمله مشتركة وأن يعمدوا على سوق واحدة أو أسواق كأنها اجتمعت في سوق وفى هذا الجيل أصبح الخطر من العدوان على أمة خطراً على الأمم كافة فالوحدة العالمية الآن مولود مرقوب يستغل الحياة ليدرج من الطفولة إلى الفتوة

---

(٥) - مؤتمر الجامعات، مجلة الرسالة، س١٠، ع٥٢، ١٩٤٨، ص ١٠ .

(٦)- عباس محمود العقاد، "النظام والتربية القومية"، مجلة الرسالة ، ع ٥٢٧ ، ٩ أغسطس ١٩٤٣ص ٣٢

والذي شاخ وعفي عليه الزمان هو سيادة شعب على سائر الشعوب أو هو استسلام العالم لحكم ."[٧]

ولقد تحدث العقاد، منذ أكثر من ٥٦عاما، عن الوحدة العالمية التي تسمى الآن "بالعولمة"، ومن ثم لا خوف من العولمة – من وجهة نظر العقاد – كما يؤكد ويؤيد تعلم اللغات الأجنبية لأهميتها في التقارب بين الثقافات، والعمل على التفاهم فيما بينها فيقول: " لا غنى عن تعلم اللغات الأجنبية بأية حال وبخاصة في هذا العصر الذي اشتبكت فيه العلاقات العالمية والمصالح الدولية في كل مطلب من مطالب الحياة العامة أو الخاصة أما التدريس باللغة الأم فذلك هو الواجب المستحسن حتى تحققت شروطه الضرورية وأول هذه الشروط توافر الكتب والمراجع التي تشرح العلوم للطلبة بلغتهم في كل مرحلة من مراحل التعليم إلى أعلى درجات وشيوع المصطلحات العلمية والفنية التي تساعد المعلم والمتعلم على أداء المعنى الدقيق في التعليم وبعد هذا لا غنى عن إتقان لغة أجنبية،.. وستنتهي كل محاولة من هذا القبيل إلى الفشل لاستحالة العزلة الثقافية في الزمن الذي نحن فيه أو قد كانت في الواقع مستحيلة في كل زمن."[٨]

## تجليات وملامح العولمة: [٩]

١- الانحسار التدريجي لسلطة الدولة.

---

[٧]- عباس محمود العقاد، "النظام والتربية القومية"، المرجع السابق، ص ٣٣.

[٨]- عباس محمود العقاد، "اللغات الأجنبية"، جريدة البلاغ، العدد ٧٨٥، القاهرة في يوم الخميس ١١ من ربيع الثاني سنة ١٣٤٤.

[٩]- أحمد مجدي حجازي، "العولمة وتهميش الثقافة الوطنية،" **مجلة عالم الفكر**، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ص ١٤٠-١٤٢.

٢- تعظيم الفائض الاقتصادي على مستوى العالم، وليس الدولة وتغيرات موازين القوى بحيث أصبحت الشركات متعددة الجنسية هي القادرة على التحكم عن بعد في بناء القوى المحلية وفقا لمصالح تلك الشركات من خلال أنشطتها المتنوعة وتغلغلها .

٣- . الهرولة المستمرة للبلدان النامية نحو العولمة لا تؤهلها قدرتها على تحقيق إنتاجية وطنية تمكنها من التعامل مع السوق العالمي من موقع التكافؤ.

٤- تداخل متعاظم عبر الحدود القومية لشئون الثقافة السياسية ونتيجة العولمة فإن الدول الكبرى تفرض ثقافتها ومنتجاتها بشكل يكتسح كل أشكال الحياة في الدول النامية، باستخدام كل وسائل القهر المادي والسياسي والإعلامي لتصدير منتجاتها الخاصة على شكل أنه نمط إنساني عالمي، (تحت مبدأ العملة الجيدة تطرد الرديئة).

٥- تنميط متزايد من السلوك البشري في اتجاه ثقافة معممة، أو ما يسمى بثقافة الأمركة خاصة في ظل الاتصال السريع، واتساع الأسواق، وإزالة الحواجز وانتشار الأفكار الاستهلاكية، فتصبح بعض مجتمعات مستهلكة، ليس لها موقع بين الدول الكبرى.

٦- اندماج الثقافة في العولمة الاقتصادية، الذي تفرضه قوة الدول المالكة لآليات الاتصال وتقنيات المعرفة، فستكون أكثر قدرة على التسويق العالمي، مما يجعل عدم تكافؤ بين الدول الأخرى، فيصبح التثاقف والتبادل الثقافي بين الشعوب ضرب من الخيال.

٧- تكوين نخبة من القوى العالمية من رجال الأعمال لا تنتمي إلى بلد معين تسعى لنقل نشاطها في أي مكان تريد وفق مقتضيات تعظيم العائد المادي على نطاق عالمي.

٨- عدم مواءمة ما يتم استيراده من النماذج الغربية لطبيعة احتياجات بلدان العالم النامي مما يشكل تيارات مناهضة تقابل العولمة مثل السلفية، تحت تبرير الخصوصية للدولة والمحافظة عليها، ومن ثم يرى البعض بأن الهجوم الكاسح للعولمة سوف يؤدي إلى المزيد من التشبث بالثقافة والهوية القومية([١٠]).

٩- "تشكل عولمة الإعلام والاتصال تهديدا للتعددية الثقافية، وطمسا للهويات الثقافية للشعوب، وقد ساعد على ذلك حالة الثقافة في بعض المجتمعات الأقل تطورا. فالثقافة العربية مثلا تعاني من ازدواجية نتيجة احتكاكها مع الثقافة الغربية بتقنياتها وعلومها وقيمها الحضارية، بالإضافة إلى التمايز الواضح بين ثقافة النخب وثقافة الجماهير، والنتيجة استمرار إعادة متواصلة ومتعاظمة للازدواجية نفسها، ازدواجية التقليدي والعصري، وازدواجية الأصالة والمعاصرة، في الثقافة والفكر والسلوك".(١١)

١٠- تعاظم الهوس المالي (الرجل الريعي) حتى في البلدان الأقل نموا حيث انتشار سوق الأوراق المالية، مثل الدول الرأسمالية الكبرى، وبناء عليه تم إعادة هيكلة الاقتصاد في هذه الدول بما يخدم المؤسسات الكبرى (متعددة الجنسيات مثال ذلك في مصر).

١١- والموقف من العولمة أخذ أشكالا منها: موقف الانكماش، والتقوقع، وموقف الانغماس والاستغراق، وموقف الوسط"الانغماش".

---

[١٠])- أحمد مجدي حجازي، "العولمة وتهميش الثقافة الوطنية المرجع السابق ص ص ١٤٠-١٤٢.

[١١])- راجع محمد عابد الجابري، العرب والعولمة: العولمة والهوية الثقافية، تقييم نقدي لممارسة العرلمة في المجال الثقافي في مجموعة بحوث: العرب و، مولمة، الندوة الفكرية تحرير أسامة الخولي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ديسمبر ١٩٩٨ ص ٢٩٧.

فالمنكمش يتهم المنغمس بالعلمانية والانحلال والتغريب والأمركة، والمنغمس يتهم المنكمش بالرجعية والتطرف والتخلف والماضوية، والمنغمش يتهم الآخرين بالتطرف، أو أنه أفضل منهما، فكل الحالات الثلاث مطلوبة مشروعة للتعامل مع العولمة ومستجداتها.([12])

فنحن قادمون على ثقافة وليدة شاملة وفي نفس الوقت هذه الثقافة (العالمية) يستحيل أن تمحو التعددية، وقد نلاحظ هذا على المستوى المادي بتقبل الشباب الجانب الخارجي والمظهري من المنتجات مثل الملابس كثقافة استهلاكية فهي قشور خارجية، فقد نجد فتاة محجبة وترتدي بنطلونا من "الجينز"، أو شابا يصلي ويدخن سجائر أمريكية، ولكن على مستوى الفكر نلاحظ انتشار حقوق الإنسان، وقيم الديمقراطية، فليس بسبب قوة مصدرها الإعلامي على فرضها في عقول المتلقين، ولكن بسبب الرسالة الإنسانية المتضمنة فيها ، وفي الاستهلاك ما يتبناه الناس وهو الجانب السهل في الثقافة، والذي يمكن تقليده دون جهد، ولذلك ليست هناك حتى الآن آثار سلبية كبيرة على الثقافات المحلية ربما تظهر في المستقبل، ومع التغييرات البطيئة تتحول الاتجاهات وأساليب المعيشة ومن ثم تتغير الثقافات وتتمحور حول أفكار مشتركة كثيرة تضعف على أثرها الثقافة المحلية، "فالماكدونلد" أصبح منتشرا وكادت تختفي محلات "الكُشري"، والأكلات الشعبية المعروفة.

---

[12])- عبد الخالق عبد الله، "العولمة ومحاولة دمج العالم" مجلة العربي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٤٦٥ أغسطس ١٩٩٧، ص ص ٣٩

في النهاية فإن للعولمة جوانبها السلبية، في حين تظهر جوانبها الإيجابية عندما تلبي مفردات العولمة الثقافية احتياجات إنسانية حقيقية وغير مزيفة.

ومن بين المتناقضات التي تطرحها العولمة ما يقوله بطرس غالي: "إننا نعيش في غمرة ثورة شملت المعمورة بأجمعها.. إن كوكبنا يخضع لضغط تفرزه قوتان عظيمتان متضادتان: إنهما العولمة والتفكك."([13])

فيعايش العربي اليوم ثقافتين متناقضتين، غير متكافئتين، ثقافة تراثية مفعمة بالمواطنة والأصالة، وأخرى تغريبية تسلبه المحلية والتراث، وبين ثقافة الغنى والرفاهة وثقافة المعاناة والعوز، وبين ثقافة المادة والمظهر، في مقابل مبادئ الروح والعقيدة والتأمل، وبين ثقافة الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وممارسات قهر من بعض الحكومات والسلطة، بين ثقافة تبدو في المكان بعيدة، وبين حضورها القريب في كل مكان، بين ثقافة الخصوصية والتفرد، وثقافة العامة في متناول الجميع والموحدة في النمط والدرجة وأسلوب الحياة والتفكير، بين ثقافة الوحدة العالمية في المكان، والانفصالات الإقليمية الجغرافية، بين ثقافة الذات والانتماء، وثقافة الاغتراب والانبهار بالغرب، بين المغايرة في تعدد الثقافات المطروحة، وبين المسايرة والانصياع لعالم جديد، بين ثقافة الكتمان والتستر والصمت، إلى ثقافة الشفافية والانكشاف على أضواء التكنولوجيا والإعلام، ثقافة فيها سلطة الدولة تتحكم في الشعب عن قرب، أمام ثقافة تنال من سلطة الدولة وهيمنتها فتتحكم في الشعب عن بعد ليس من قبل الدولة بل من خارج الحدود، ثقافة كان يتعامل فيها الفرد بالمثل والندية، إلى ثقافة يشعر فيها بالدونية، يضاف إلى ذلك ظهور مفاهيم

---

[13])- أحمد مجدي حجازي، "العولمة وتهميش الثقافة الوطنية" مرجع سابق، ص ١٢٣.

أخرى متقابلة مثل: الـشرق والغـرب، الـشمال والجنـوب، الجمعيـات اللاحكومية، الشركات العملاقة عابرة القارات.

ويقول البعض "إن العالم يزداد تشرذما بازدياد وتائر توحيـده".(١٤) فكلما تعمقت الكوننة الاقتصادية تـشرذمت الأبنيـة الـسياسية، فتظهـر النزاعات القومية كرد فعل لهذه العملية، وتأخذ هذه النزعات صورا بالغة التطرف دفاعا عن الانتماء سواء كان وطنيا أم قوميا أم دينيـا. وخاصـة أنها عولمة مفروضة من الشمال على الجنوب، بهدف تعميم نظم الحيـاة الثقافية الأمريكية، لهذا فإنها ثقافة مصطنعة بعولمة زائفة "لا تبادل فيهـا ولا تعامل بالمثل".(١٥)

وينظر آخرون إلى العولمة على أنها "شـكل مـن أشـكال كوننـة الخصخصة، وخصخصة الكوننة لتـصبح مؤسـسة صـغيرة".(١٦) كلهـا تناقضات تطرحها العولمة.

وقد فقدت الدول السيطرة على التداول الحر للأخبار، والمعلومـات التي تتم عبر وسائل ووسائط تقنية حديثة، لقـد أصـبح ملايـين البـشر متوحدين تلفزيونيا، وتليفونيا، ومن خلال البريـد الإلكترونـي بـشبكات الإنترنت، "متابعة مراسم دفن ديانا، والملك حسين، ومشاهدة المباريـات الرياضية"(١٧).

---

(١٤)- سيد يس، "أوراق ثقافية" جريدة الأهرام، القاهرة في ١٤/٨/ ١٩٩٥م صفحة ١٩.

(١٥)- المرجع السابق، ص ١٩.

(١٦)- Roland Robertson. Globalization and social Modernization: A note on Japan and Japanese Religion in Sociological Analysis, London: ١٩٨٧. P.٢٢١.

(١٧)- عبد الخالق عبد الله، "العولمة جذورها، مرجع سابق ص ص ٧٦-٧٧

لا شك أن حركات التطرف بكل أشكالها، وهو ما نجده منتشرا في أجزاء كثيرة من العالم، هو نتاج آليات الهيمنة الرأسمالية وتشجيعها للثقافات المحلية المتعارضة، فالعولمة بطبيعتها هي النقيض الحقيقي لوجود عوالم أخرى. ([18])

وتراجع أدوار العملية الثقافية والاجتماعية في الدول النامية، بسبب الاختراق الكاسح للعمليات الاقتصادية والإعلامية والثقافية. حيث بات واضحا أن الاختراق الثقافي (خاصة في ظل العولمة بآلياتها المعاصرة ) يعمل على تهديد منظومة القيم الأصيلة ويشكل نوعا من الازدواجية الثقافية التي تجتمع فيها تناقضات الأصالة والمعاصرة مما يؤدي إلى تهميش أو تغيير ملامح الثقافة الوطنية.([19])

ربما تكون هناك تساؤلات كثيرة هي جزء من تكوين سمات شخصية جديدة تحمل بين طياتها تناقضات ثقافية في ظل متغيرات عصرية مفروضة على الإنسان العربي في الزمن المعاصر، فالاغتراب والفردية والمادية والاستهلاك الترفي هي سمات سائدة في مجتمعاتنا العربية حيث تحولت الثقافة العربية إلى ثقافة من نوع جديد، حتى أصبح كل شيء الآن يمكن أن يباع ويشترى "حتى روح الإنسان نفسه"([20]) ويخضع لقانون العرض والطلب.

---

[18])- أحمد مجدي حجازي، "، مرجع سابق، ص ١٣٣.

[19])- على وطفة، "الثقافة وأزمة القيم في الوطن العربي"، المستقبل العربي، بيروت: معهد دراسات الوحدة العربية، العدد ٢٠١٢ فبراير ١٩٩٥/ ص ٣٥-٦٦.

[20]) – جلال أمين، ماذا حدث للمصريين؟ تطور المجتمع المصري في نصف قرن ١٩٤٥-١٩٩٥، القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٨، ص ٢٨٣

## الآثار السلبية للعولمة:

نرى اليوم أمريكا أصبحت القوة العظمي الوحيدة التي انفردت على الساحة العالمية دون منافس، فالحكومة الأمريكية تتصرف حاليا وكأنها هي الحكومة الوحيدة في العالم، "والرئيس الأمريكي المنتخب من الشعب الأمريكي يتصرف وكأنه رئيس العالم"([21]) لسان حاله (العالم أنا .. وأنا العالم)، فلا شك أن الاقتصاد الأمريكي يبدو وكأنه هو المحرك الأساسي للاقتصاد العالمي، والثقافة الأمريكية تسعى لتكون الثقافة العالمية الواحدة المقبولة للجميع، فهي تسعى جاهدة لأمركة العالم، وهذا أسوأ ما في العولمة.

في ظل آليات الهيمنة العالمية تحولت الثقافة الاستهلاكية consumer culture وهي إحدى مجالات تدويل النظام الرأسمالي، إلى آلية فاعلة لتشويه البني التقليدية وتغريب الإنسان، وعزله عن قضاياه وإدخال الضعف لديه والتشكيك في جميع قناعاته الوطنية والأيديولوجية والدينية، وهكذا تعد العولمة أحد التحديات التي تقف أمام بناء المجتمعات التقليدية لأنها تحطم قدرات الإنسان فيها، وتجعله إنسانا مستهلكا غير منتج، ينتظر بما يجود به الغرب، وقد تعددت آليات هذه الهيمنة كما وكيفا بين ثقافات قومية وأخرى، وهذا يظهر بوضوح من خلال ما تبثه الإذاعات المختلفة، حتى العربية، إظهار تفوق الحضارة الغربية، وتغلغل قيم الرأسمالية في المؤسسات الوطنية ذات الصلة بالثقافة، ومناهج المدارس والجامعات ومراكز البحوث كلها تشير إلى ذلك، بالإضافة إلى ما تقدمه المؤسسات من منح ومواد إعلامية وبحوث تجرى عن طريق المؤسسات

---

[21]) – الحبيب الجنحاني، "ظاهرة العولمة الواقع والآفاق" مجلة عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ٤٧.

الرأسمالية، كلها تصب في إطار ترسيخ تفوق الغربي إلى ما عداه من الجنسيات الأخرى.*

إن الخطر الأكبر في عملية العولمة أنها تفرض من الخارج، فهي ليست نتاجا لتفاعلات بين الحضارات والمذاهب المتباينة على مستوى العالم ككل، بل هو الأمر الذي يكشف بشكل أو بآخر، أن العولمة مرحلة معاصرة من مراحل الرأسمالية ، أو كما يصفها منظرو ما بعد الحداثة بأنها مرحلة متأخرة من مراحل الحداثة في ظل ليبرالية جديدة أشار إليها البعض بأنها تمثل نهاية التاريخ، أو كما أشار إليها آخرون بأنها هجمة معاصرة للرأسمالية تستهدف تنميط العالم بالشكل الذي يخدم مصالح القوى الرأسمالية العالمية المسيطرة، وبالذات الشركات متعددة الجنسيات.(٢٢)

والأصوليات الدينية وغير الدينية، تعارض العولمة لأسباب تبدو في ظاهرها متناقضة وهي التعميم والنسبية، فهي ترى أن العولمة تحاول أن تعمم نموذجها الحضاري وتفرضه على العالم بكل الوسائل الممكنة، ومن ناحية أخرى تعتبر أن فكر العولمة يؤمن بنسبية الأشياء مما يهدد الفكر الأحادي والمؤمن بمطلق، فالعولمة مضمونها ورؤيتها الفكرية هي تعبير عقلي عن مرحلة الحداثة وما بعد الحداثة، وقد مثلت بهذا مرحلة متقدمة في العقلانية والتطور الاقتصادي والتكنولوجي والعلمي، كما تميزت

* – من خلال ما نلاحظه في سوق العمل بدول الخليج العربي مثلا نجد أن الطلب على خريجي الجامعات الأمريكية والأوربية عند التعاقد وكأنها تدعم فكرة التفوق الغربي.

[٢٢])– أحمد مجدي حجازي، "العولمة وتهميش الثقافة الوطنية،" ، مرجع سابق، ص ١٣٩.

بالعلمانية أي فصل الدين عن الدولة والحياة العامة، ولذلك كان لابد أن تتناقض العولمة مع الأصوليين وعلماء الدين. (٢٣)

فهل العولمة عملية غسيل حقيقية للأدمغة؟ كما أشار "مارتن وولف" في الحقيقة يشعر الإنسان بأنه أسير أفكار معينة، وطريد عالم غريب عليه قد يشعره بالغربة والانسلاخ، أو العداء والعدوانية على كل هذا الصخب العالمي الوافد.

- فستصبح العولمة مقلقة، إذا كانت تعني المزيد من الهندسة الوراثية وتوظيفها تجاريا وعنصريا وعسكريا. (٢٤)
- ستكون العولمة مقلقة إذا سعت الشركات العالمية لاستغلال ثروات الشعوب والسيطرة والمنافسة للشركات الصغيرة حتى تخرج من دائرة المنافسة، فتحتكر الشركات الكبرى المجال.
- وستصبح العولمة مقلقة، إذا ما زادت الفجوة الاقتصادية بين الدول الفقيرة والغنية، ودول الشمال والجنوب.
- وستصبح العولمة مقلقة، إذا تضمنت احتمال صراع أو صدام الحضارات، ودخولها في حروب.
- وستصبح العولمة مقلقة، إذا كانت تعني الأمركة وانفراد الولايات المتحدة الأمريكية بشأن العالم وفرض ثقافتها، ونشر نموذجها الحياتي.

---

٢٣)- حيدر إبراهيم، "العولمة وجدل الهوية الثقافية"، مجلة عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ص ١٠٧-١٠٨

٢٤)- عبد الخالق عبد الله، "العولمة جذورها، مرجع سابق ص ٨٩

- وستصبح العولمة مقلقة، إذا كانت تعني المزيد من اغتراب الإنسان حيث يبدأ بفقد السيطرة على تسارع التحولات الفكرية، والمعايير المتباينة، فيظهر في جهازه النفسي والذهني عجزا عن المتابعة، فيقع في صراع بين المسايرة والمغايرة، لتيار جارف قد يتعارض مع قيمه وعقيدته([٢٥])

إذا كانت العولمة توحي بكل هذه التداعيات، فهي موحشة وستجد كل الرفض من الشعوب حتى يسمونها "الغولمة".

"إن المنافسة المعولمة أصبحت تطحن الناس طحنا، وتدمر التماسك الاجتماعي، وتعمل على تعميق التفاوت في توزيع الدخول والثورة بين الناس"([٢٦])

يجب ألا ننظر إلى العولمة من زاوية ضيقة، تشاؤمية أو تفاؤلية، وإنما يجب أن نضع العولمة في الإطار الواقعي الصحيح، فالعولمة ما هي إلا واقع لابد من الاعتراف بوجوده. وبالتالي هل نحن مستعدون لمواجهة تحدياتها؟

وقد ينظر البعض للعولمة وآثارها إلى أنها الجزء الممتلئ من الكوب.

## مميزات العولمة:

يرى البعض أن العولمة الثقافية لا تلغي الخصوصية، حيث توجد مميزات تنتجها العولمة تتلخص فيما يلي:

---

[٢٥])- المرجع سابق ص ٨٩

[٢٦])- هانس بيتر مارتن، هارالد شومان، فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة عدنان عباس علي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ٢٣٨، اكتوبر ١٩٩٨، المقدمة ص ١٥.

- عولمة قضية حقوق الإنسان.
- تنوع مصادر المعلومات المتاحة للمجتمع المدني.
- تنامي دور المؤسسات الدولية غير الحكومية.
- الثورة الهائلة في تكنولوجيا الإعلام والاتصال.(٢٧)

من منظور قضية العولمة يمكن القول إن قيم الديمقراطية تعتبر ذات طابع عالمي باعتبارها قيما إنسانية عليا، وعامة، وثيقة الصلة بالتطور الإنساني، بل إن الدين الإسلامي (الذي يعتبر في نظر الغرب، بمثابة العدو الجديد للحضارة الغربية)، رفع بعضا من القيم الديمقراطية إلى مرتبة التكليف الشرعي.(٢٨)

أما عن الجانب الاجتماعي في العولمة، فقد برزت في الآونة الأخيرة المنظمات الأهلية غير الحكومية كقوة فاعلة مؤثرة من خلال مؤتمرات عالمية ولقاءات مثل: "مؤتمر قمة الأرض" في ريو دي جانيرو"، ومؤتمر حقوق الإنسان في فيينا، ومن المنظمات: "أطباء بلا حدود"، و "منظمات السلام الأخضر". والمنظمات النسائية العديدة مثل "منظمة أخوات حول العالم".

إن العولمة تعني أن الأقدام ستظل ثابتة في أرض الوطن بيد أن الهامات ستزداد طولا، والرؤية ستمتد إلى مسافات بعيدة بعد الأفق، ولن تتمكن الشجرة المحلية من حجب رؤية الغابة العالمية.(٢٩)

---

٢٧)- حسنين توفيق إبراهيم، العولمة : الإبعاد والانعكاسات السياسية، عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ص ١٩٨-١٩٩.

٢٨)- فهمي هريدي، الإسلام والديمقراطية، القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٣. ص ٢١٧

٢٩)- المرجع السابق، ص ٧٨

فالتبشير بالقيم الديمقراطية والدعوة إليها شيء وتطبيقها في الواقع شيء آخر، فبالرغم من تشدق الولايات المتحدة بالديمقراطية وحقوق الإنسان، إلا أن سياستها تأخذ بالمعايير المزدوجة، وتتعامل مع هذه القضية بطريقة براجماتية ( مثلا: موقف أمريكا من بطرس غالي).

وسلع هذه الثقافة توحد شباب العالم الذي يأخذ في استهلاك كل ما هو جديد "من هامبورجر تداعيات ثقافة العولمة، توحي باحتمال نشر الثقافة الاستهلاكية والشبابية عالميا، من حيث الأزياء، والمأكولات، و"بيتزا"، ومياه غازية، وأفلام سينمائية، وأغاني عالمية مختلفة، "لمادونا"، و"مايكل جاكسون"، ويلبس ملابس الجينز، وماركات "كلفن كلاين"، و"بينيتون"، ويشاهد أفلام مثيرة مثل "التيتانك"، الحديقة "الجروسية"، حرب النجوم.." (٣٠)

ومن التداعيات التي شعر بها العالم هو أنهم "كلهم في الهم شرق": "قضايا البيئة، وتلوثها بالنفايات النووية"، و"الانفجار السكاني"، و"الإرهاب"، و"الفقر"، و"حقوق الإنسان"، و"المخدرات"، و"نقص المياه العذبة"، وغيرها من القضايا، وفكرة التأثير المتبادل والآثار المترتبة على كوارث العالم مثل ثقب الأزون، فأصبحت أية كارثة تقع على دولة ما، ينعكس على كل العالم مثل الذي يجلس في حجرة ويدخن فيلوث الجو العام، هكذا نعيش الآن، وقد أصبح من الواجب أن نهتم بما يجري للغير من أحداث، لأن المشاركة الوجدانية العالمية مطلوبة، وهذا مثال السفينة التي أراد شخص أن يخرقها ليشرب، فإن تركوه هلك وهلكوا معه.

---

(٣٠) – عبد الخالق عبد الله، "العولمة جذورها، مرجع سابق ص ٧٩-٨٠

الثورة العلمية والمعلوماتية هي التي جعلت عالم اليوم أكثر انـدماجا، وهي التي سهلت حركة الأفراد ونشر الأفكار، وقلصت المسافات، وجعلت التحولات سريعة، ومذهلة.

## تصارع أم تصالح:

من توابع العولمة الثقافية: أنها تتجه نحـو صـراع الحـضارات Clash of Civilization ونحو الهيمنة الثقافية، لثقافة واحـدة علـى سائر الثقافات، ونحو نشر الثقافة الاستهلاكية وجعلها الثقافة الأكثر رواجا على الصعيد العالمي.

"ويمكن للعولمة الثقافية أن تمهد الطريق إلى ترسيخ انقسام العـالم على مناطق حضارية مغلقة، وتزداد انغلاقا، وتـستعد لمواجهـة بعـضها البعض، فبعد انتهاء الحرب البـاردة، وانتهـاء الـصراع بـين الـشرق الاشتراكي، والغرب الرأسمالي، أصبح الانقسام الحضاري والثقـافي أكثـر وضوحا من أي وقت آخر، كما أنه ازداد خلال التـسعينيات عـن احتمـال صراع حضاري خلال المستقبل القريب، خاصة في نقاط التقـاء المنـاطق الحضارية الكبرى"([٣١])، التي يراها "هنتنجتون" Huntington " صراعات حضارية" وتكوين النظام العالمي الجديد.

ويرى "هنتنجتون" أن الحضارات هي القبائـل الإنـسانية، وصـدام الحضارات هو صراع قبلي على نطاق كوني".([٣٢]) ويرى الحضارات الحالية التي قد تتصارع هي :

١)- الحضارة الانجلو سكسونية تشمل دول أوربا الغربية وأمريكا وكندا، وهي تقود العالم حاليا.

---

[٣١])- S. Huntington,"**Clash of Civilizations**, London: Touchstone Books, ١٩٩٦,P.٢٧

[٣٢])- S. Huntington,"**Clash of Civilizations**, Op.Cit.,P.٣٣١

٢)- الحضارة البوذية والكونفوشية والهندوسية: تشمل جنوب شرق آسيا.

٣)- الحضارة السلوفاكية والأرثوذكسية: تشمل معظم دول أوربا الشرقية والبلقان وروسيا.

٤)- الحضارة الإسلامية: الدول العربية وإيران وباكستان وماليزيا وإندونيسيا، وبعض دول أفريقيا.

٥)- الحضارة الكاثوليكية: تشمل جنوب أوربا ومعظم دول أمريكا اللاتنية.

٦)- الحضارة الزنجية: معظم دول أفريقيا.

فإن العولمة، كما يشير البعض، "تحمل في طياتها نوعا أو آخر من الغزو الثقافي* أي من قهر الثقافة الأخرى لثقافة أضعف منها" .(٣٣)

**التعددية الثقافية والانتماء:**

العولمة قد تبرز بوضوح الهوية والمواطنة العالمية التي ستحل تدريجيا محل الولاءات الوطنية.

فيتعود العالم بنظرته على ذاته أنه كتلة واحدة ذات ضمير مشترك وبقاء وفناء واحد، وتشترك مع بعضها البعض في قيم عميقة تتخطى كل الخصوصيات الحضارية والثقافية.

والفرد في ظل العولمة الثقافية يتكشف له البعد الكوني، ويتعرف على هويته الإنسانية أكثر من أي وقت آخر، ولكن بروز الهوية العالمية في ظل العولمة لا تعنى تراجع أو تهميش أو نفي الهوية الوطنية للفرد،

---

*)- من خلال الواقع اقترح تسميته "الاستعمار الفكري"، في ضوء معطيات العولمة.

٣٣)- جلال أمين، "العولمة والهوية الثقافية" مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٣٤، أغسطس، ١٩٩٨، ص ٦٠

الأهمية بنفس الترتيب المذكور، فيقول: "قد يكون أشد ما انتمي إليه ليس هو أهم جانب من جوانب حياتي، فربما كانت العقيدة الإسلامية من حيث الأهمية أهم جوانب حياتي، لكن انتمائي لأسرتي ولقريتي، ولوطني، ولعروبتي، وللإنسانية جمعاء يجيء فيه ترتيب الدرجات على أساس آخر غير أساس الأهمية، وقد يكون هذا الأساس هو المشاركة الوجدانية، بيني وبين أفراد أسرتي أقوى - بالطبع - من المشاركة الوجدانية بيني وبين مسلم الصين، دون أن يغيّر هذا الموقف الوجداني من حقيقة كون إسلامي أهم جانب من جوانب حياتي".([39])

كما يرى زكي نجيب محمود أن لكل فرد دربين من الولاء، فولاء للهدف الذي من أجله تعيش مجموعته الصغيرة كالأسرة، وولاء آخر يشترك فيه جميع المواطنين وهو الولاء للوطن.([40]) ومن ثم فتعددية الولاءات تأتي تجاه الثقافات التي ينتمي إليها الفرد، ومن ثم أولوياتها تتحدد وفق عقيدة الفرد وظروفه، وستظل هناك أولويات للدين، والوطن والعروبة، والعالم، والإنسانية، وقد يجسد ذلك المثل الشعبي "أنا على أخويا، وأنا وأخويا على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب".

ويرى عبد الحليم منتصر" أن الثقافة تتصل في بعض مناحيها بالأوطان أو القوميات، أما العلم فلا وطن له كما يقولون"([41]) ؛ فسوف تظل الثقافة طابعا مميزا للمجتمعات، ولكن العلم ونظرياته سيظل بلا هوية ينتمي إليها، حيث إنه يستخدم في كل ثقافة بأسلوب معين، وتصبغ عليه ثقافتها، فتطلق على تطبيقات العلم مسميات تتفق ولهجتها وتقاليدها فانظر مثلا

---

[39])- زكي نجيب محمود، في مفترق الطرق، القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٨، ص ٣٥٩

[40])- زكي نجيب محمود، قيم من التراث، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٧، ص ٣٩٠

[41])- عبد الحليم منتصر، "الثقافة والمثقفون" مجلة رسالة العلم ، يونيو ١٩٦٤، العدد الثاني ص ص ٥٣-٥٨

للهاتف الحديث المتحرك مع الشخص في كل مكان يسمى في مصر "المحمول"، وفي الكويت يسمى "النقال"، وفي السعودية والإمارات يسمى "الجوال" وفي الأردن يسمى "الخلوي".

وزكي مبارك يدعو أيضا إلى الاتصال بالعالم، ولا ننغلق فيقول:"الاستقلال في عالم السياسة هو السيادة، وهو شيء يختلف عن الانعزال، فالأمة المستقلة تسود ولكنها لا تنعزل، لأن العزلة ليست من مذاهب الأحياء، وكذلك نقول في استقلال الثقافة العربية عن الثقافات الأجنبية، فنحن نريد أن تكون للأمم العربية ثقافة لها خصائص وأصول، ولكننا ننكر انقطاعها عن الثقافات الأجنبية، لأن الانقطاع عن العالم من علائم الضعف والخمود"([٤٢]). حيث يرى أن في التواصل الثقافي قوة وضرورة لتلاقح الفكر والإنتاج الثقافي.

ويرى العقاد أن المواطن العالمي يجب أن يهتم بمشكلات العالم وينتمي إليه من حيث المشاعر فيقول:" كذلك كان للناس في العصور الأولى "عالمية" غير هذه العالمية التي نتحدث بها في الزمن الأخير، كان "المواطن العالمي" موجوداً قبل المواطن العالمي الذي نتحدث عنه أحياناً في هذا القرن العشرين، وكان المواطن العالمي قديماً إنساناً ليس له وطن يستقر فيه أو يجب أن يستقر فيه، وإنما كان شعاره هو شعار أمثاله في هذه الدنيا الواسعة، وهو : "بلاد الله لخلق الله!".

أما "المواطن العالمي" في القرن العشرين فمختلف كل الاختلاف عن ذلك المواطن العالمي الذي يرادف حينا معنى الشريد، فالمواطن العالمي في القرن العشرين إنسان له وطن يغار عليه، ولكنه رشيد كريم في الغيرة

[٤٢]- زكي مبارك، "الثقافة العربية هل ينبغي استقلالها عن الثقافات الأجنبية؟" مجلة الهلال ، نوفمبر، ١٩٣٦، ص ص ٢٨-٣١

على وطنه، لأنه يعمل لمصلحته الكبرى، ويعلم أننا في زمن لا تنفصل المصلحة الكبرى لوطن من الأوطان عن مصلحة العالم كله، أو مصلحة بنى الإنسان في جميع الأقوام والأوطان.

ويدين المواطن العالمي" بالوطنية العالمية لأنه يدين اليوم بحقيقة لا شك فيها،. وهى أن سلام وطنه موقوف على سلام العالم بجميع أجزائه وأنحائه، سواء كان منسوباً إلى أمة صغيرة فقيرة أو كان منسوباً إلى أمه قد بلغت الغاية في القوة والثراء."(٤٣)

ويواصل العقاد فكرته بقوله: "الوطنية كما نفهمها اليوم شعور حديث، لا نظن أنه يرجع إلى أكثر من مائتي سنة، ولكن الناس لم يخلوا قط من شعور يماثل الوطنية الحديثة، فكانوا ينتمون تارة إلى القومية وتارة إلى الدولة، وتارة إلى الجامعات التي تقوم على العنصر أو الاعتقاد، وكانوا في هذه الأحوال يعرفون "الوطنية" بمعنى العاطفة التي تربط الإنسان بمسقط رأسه وبيئة أهله ومهد نشأته وشبابه .. لأن انتماء الناس إلى قطاعات متعددة في قطر واحد يربطهم بضروب شتى من الولاء، ويعودهم ضروباً من المحالفات والمخاصمات تتغلب فيها الزمرة والطائفة على الأمة أو الدولة نفسها في بعض الأمور."(٤٤)

ومن ثم فإن الانتماءات المتعددة بين ثقافة الفرد الخاصة، والثقافة العالمية يراها العقاد على النحو التالي: " وستظل "الوطنية العالمية" فكرة يفهمها من يحب أمته ويحب الأمم الإنسانية معها، وتظل ضرورة يذعن لها السياسي الذي يخشى مغبة الغفلة عنها والاجتراء على حدودها، ولكنها لن تصبح "عاطفة" وجدانية بالفكرة والضرورة، بل ستصبح كذلك بالعادة التي

---

٤٣) – عباس محمود العقاد، "حديقة الأفكار"، مجلة الرسالة، ص ١٤

٤٤) – عباس محمود العقاد ،"المواطن العالمي"، مجلة الرسالة، ص ٢٤

يألفها الناس أولاً وهم يفكرون في أسبابها، ثم ترسخ ألفها في طباعهم بغير تفكير في تلك الأسباب، ويومئذ يصح أن يقال إن "المواطن العالمي" قد وجد على الكرة الأرضية كما وجد المواطن القومي من قبله، لأنه يشعر بحب العالم شعوره بحب القريب والصديق والأليف المرموق"([45]).

ويضيف العقاد: "إن نجاح المساعي التي تبذل للتقريب بين أجزاء العالم والتوفيق بين الأمم الإنسانية وشيك أن يضمن حرية الفرد في وطنه وفى عالمه وأن يجعل الاتفاق على هذه الحرية عملياً قريباً من الاتفاق عليها علمياً بين سائر الشعوب؛ فلنتفق اليوم على أن حرية الفرد مقدسة ما لم تتعرض لما هو أقدس منها ولنترك التفسير والتطبيق للزمن فهو وحده الكفيل بتقريب العمليات من النظريات في مسائل الضمير ومطالب الحرية".([46])

مما تقدم نرى أن التعددية الثقافية قائمة، وستظل قائمة، فلن تلغي العولمة الخصوصية، ولكن سؤالنا الآن: هل نحن لدينا الإمكانات، وقادرون على النهوض بمهامنا ومستعدون للمواجهة؟ حيث إن الصراع القادم صراع وجود، صراع حضاري، القوي هو الذي يملك المعلومة، الذي يمكن أن يضيف للإنسانية شيئا جديدا؟ فهل نحن الآن كذلك؟ تعالى لنرى ماذا يقول العلماء والمفكرون؟

ومن الأهمية أن نسأل عن واقعنا الثقافي، وهل نحن على استعداد لمواجهة تحديات العولمة؟

لنعرض رأي بعض المفكرين حول واقعنا الثقافي، وسلبياته فيقول زكي نجيب محمود: "إنني أقولها صريحة ورزقي على الله، وهي أننا على

---

[45]) – عباس محمود العقاد، "حديقة الأفكار" مرجع سابق ص ١٦

[46])- عباس محمود العقاد، "الفرد و الدولة " بجلة الرسالة، ص ١٣

درجة من التخلف أدعو الله ألا تطول معنا بحيث ندخل عصرنا هذا ، وعقيدتي أننا لو استطعنا أن ندخل القرن العشرين في آخر أعوامه لكان ذلك خيرا نحمد لله عليه". ويضيف: "لست أعرف في مصر مؤسسة واحدة أصابها كل ما أصاب التعليم الجامعي من تدهور وضعف، فإذا أردت أن ترسم خطا بيانا يصور لك التعليم منذ نشأته حتى اليوم، فأغلب ظني أن الخط المرسوم سينحدر بك انحدارا مطردا".(٤٧) ويأمل أن تحدث نهضتان للأمة العربية الأولى تعود الأمة العربية رائدة كما كانت، والنهضة الثانية: أن نتغير في أسلوب تفكيرنا.

ويقول فؤاد زكريا: "لا يوجد إبداع عربي، وليس فقط عند أنصار التراث الذين يتصورون أنه الحل، وإنما الأمر مفتقد أيضا لدى الطرف الآخر النقدي المستنير".(٤٨)

ويقول حسن حنفي: "مستقبل الثقافة العربية مرهون بمن يستطيع أن يعطني مزيجا عضويا: إبداعيا، ويخرج من هذا القفص الذهبي، أي من هذا السجن الذي تعيشه الثقافة العربية في هذه الجبهات الثلاث: القديم والجديد..الماضي والحاضر..الواقع والمستقبل، وبالتالي لا حل لمستقبل الثقافة العربية خارج التاريخ، تكلست.. تجمدت .. تقدست، كلام القدماء أصبح مقدسا بالنسبة للسلفيين، وكلام الغرب مقدس بالنسبة للعلمانيين، والسياسي يريد أن يترك الواقع المعاصر كما هو لا يغيره، للدفاع عن

---

٤٧)- زكي نجيب محمود،، عن الحرية أتحدث، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٦، ص ٢٤٣، أيضا الأهرام "كانت بالأمس شجرة خضراء" في ١٩٨٥/١/٢٨.

٤٨)- فؤاد زكريا، "انكشفنا أمام العالم كأصحاب فكر مهمل"، الحياة، مقابلة في ١٩٩٤/٥/٢٦، ص ١٦

كرسي الحكم.. هناك نوع من تجميد الثقافة العربية والحل هو إعادتها للتاريخ، إعادتها لحركة الزمان"(٤٩)

ويرى عبد الله عبد الدايم :"أن الثقافة العربية الإسلامية لم تنجح منذ أكثر من قرن حتى الآن في صنع حداثتها".(٥٠)

مثل هذه الرؤية هي واقع قد شخص أبعاده العلماء والأدباء والمفكرون، ووضعوا بعض الحلول العملية، ويمكن إضافة بعض المظاهر التي تتصف بها ثقافتنا كسلبيات تعمل على إعاقة التطور ومواكبة الحضارة وتمنعنا من الدخول إلى الألفية منها:

- السلبية واللامبالاة، وعدم القدرة على العمل بروح الفريق، حتى على المستوى البحوث العلمية*
- أن حلولنا للمشكلات تتم كرد فعل وليست مبادرات واستشرافات للمستقبل للعمل على عدم وقوع مثل هذه المشكلات.
- أن أسلوب الحل الذي نقدمه للمشكلات حلولا جزئية، ووقتية، لا تتعمق في البحث عن جذور المشكلة وحلها حلا شاملا.
- أن العالم يتغير بسرعة كبيرة، ونحن نقف متفرجين، وقفزاتنا للتطور قفزات ليست متصلة، أو مبنية على أسس راسخة، وهناك أمثلة على ذلك كثيرة "فكرة الأمية الحضارية، سعينا إليها، دون أن

---

(٤٩)- نقلا عن حسام الخطيب،"أي أفق للثقافة العربية وأدبها في عصر الاتصال والعولمة؟، مجلة عالم الفكر، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ٢٤٠.

(٥٠)- المرجع السابق، ص ٢٤٢

(*) - "وقد أشار إلى ذلك العالم أحمد زويل في كلمته التي ألقاها عندما كرمته مصر في ١٩٩٩/١٢/١٥.

نقضي على الأمية الأبجدية" وكذلك "الهاتف المحمول" أدخلناه إلى مصر قبل أن نحل مشكلة الهاتف المشلول في المنازل".

- المناخ العلمي ليس مهيئا في مجتمعاتنا، وأساليب التعليم، في الكثير من البلاد العربية، لا يشجع المبدعين، فنجد أن الكفاءات العربية تترعرع في الخارج، كما أن الروتين والبطء سمات في كثير من الجامعات العربية، بالإضافة إلى سلبيات كثيرة توجد في جامعاتنا.([٥١])
- كثير من أساليب التنشئة الاجتماعية قائمة على القهر، والتسلط، والطاعة العمياء، فلا يوجد إبداع، ولا تشجيع على الابتكار ويؤكد ذلك زكي نجيب محمود "في ضوء التربية وتلك النشأة، الطامة لوجود هذا الفرد، نستطيع أن نقرر أننا لا نخلق ولا نبتكر، لأن لنا أخلاق العبيد".([٥٢])
- أسلوب التدريس في معاهدنا التعليمية تقوم على النقل، والحفظ والاستظهار، "يخرج الدارس بشيء من الحقائق العلمية حفظها حفظا دون أن يصبح المنهج العملي طريقا ينتهجه في حياته العلمية..نظم التعليم في بلادنا تخرج شبابا من نوع يقضي حياته في محفوظاته"(٥٣)

---

[٥١])- محمود قمبر، "الحرية الأكاديمية في الجامعات العربية" بحث مقدم للمؤتمر الثالث لقسم أصول التربية جامعة الكويت "الديمقراطية والتربية في الكويت والوطن العربي" في الفترة من ٢٧-٢٩ نوفمبر ١٩٩٩، ص ٤١

[٥٢])- زكي نجيب محمود، جنة العبيط، القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٧، ص ١٨٢

[٥٣])- زكي نجيب محمود، "جملة ينقصها الفعل"، جريدة الأهرام، في ١٩٨٧/٢/٢٤، ص ١٣.

- "إن المشكلة التي تعيشها الأمة العربية هي في فقدان المشروع الحضاري الثقافي العربي على المستوي القطري والقومي".([٥٤])

## انعكاسات العولمة على التربية:

تمثل العولمة ريحا صرصارا عاتية لا يستطيع تحملها إلا من يملك الصحة والعافية، ولديه الإمكانات والدواء لمواجهه تياراتها، أو يمتلك آليات ينطلق بها محلقا في آفاق عالم الغد، فيؤثر فيه ويتأثر به .

"إن الخطر في العولمة على لغتنا، ليست اللغة كما تحكى أو كما تقرأ، وإنما موقفنا نحن من اللغة التي لا نعرفها، أي أننا لا نعيد إنتاجها بصورة ثقافية، وإنما نأخذها جاهزة وجامدة وليس لنا منها موقف." .. "ليس أمامنا فرص انتقاء في العولمة الثقافية، وأن ننتقد جانبا، ونحارب جانبا، ونمنع جانبا، فالعولمة كل متكامل متفاعل في المجال الثقافي، والحنكة هنا هي في فعلنا على تنمية ثقافتنا ونشرها كي تتفاعل مع العولمة وتصمد بوجه طغيانها"([٥٥]).

"إن ثقافتنا ترقى إلى العالمية، الأدب والموسيقي، والحضارة..، لكننا لن نصل بها إلى العولمة ما لم نمتلك الوسائل لذلك، ولا نعرف أن نسوّقه حتى نصل به إلى مرتبة العولمة".([٥٦])

أما النتيجة الأخرى لمثل هذا التبادل الحر للأفكار والمفاهيم عبر الثقافات فهي بروز اهتمامات وعادات وأذواق وآمال وأهداف وربما

---

[٥٤])- ندوة خاصة أعدتها المجلة العربية للعلوم الإنسانية، "الثقافة العالمية والثقافات المحلية"، العدد ٦٦، ربيع ١٩٩٩، ص ٢٠٦

[٥٥])- المرجع السابق، ص ٢٠٧

[٥٦])- ندوة خاصة أعدتها المجلة العربية للعلوم الإنسانية، المرجع السابق، ص ٢٠٥

عقليات مشتركة لا تعبر عن ثقافة محددة، بل عن مجموع الثقافات الحيـــة في العالم، فقد تكون تلك بعض المحصلة النهائية للعولمة الثقافية.

ويرى باحثون أن العولمة لا تهدد الهوية أو الهويات الثقافية بالفناء أو التذويب، بل تعيد تشكيلها أو حتى تطويرها لتتكيـــف مـــع الحاضـــر، فالإنسان يتجه الآن نحو إمكانية العيش بهويات وانتماءات مختلفة متعددة

إن شكل العالم في العولمة أقرب إلى الشبكة منه إلى الهرم وبالتالي نجد الجار النفسي، وليس الجار المكاني أو الجغرافي.

ويحذرنا البعض من الانبهار بالأساليب التكنولوجية التي قد تكـــون من مخاطرها تهمّش دور المدرسة: فيقول سيد قطب: " تحصيل المعلومات سوف يصبح سهلا، .. وسيرفع كثيرا من أثقال الطرق القديمة في التربية، ولكنه قد يتجاوز الحد فيحرم التلاميذ من لذة الجهد وتقويـــة الإرادة فـــي التحصيل المفيد، وقضى على روح الاحترام والتوقير للمدرسة والمدرس، وجعل الطلاب يذهبون إلى المدرسة كما يقـــصدون إلـــى نزهـــة خفيفـــة، ويحسبون العالم رواية من روايات السينما، لا تطالبهم بجهد ولا كد"(٥٧)

كما يلفت انتباهنا سيد قطب إلى عدم المغالاة في الحريـــة لكـــي لا تنقلب إلى فوضى فيقول: "والحرية التي هي نعمة الحياة الإنسانية، انقلبت عليها نقمة، لأنها أصبحت أشبه شيء بالفوضى وأصبح همها الانفلات من القيود التي تعبت الإنسانية في صوغها مختارة راضية، لأنها قيود نافعـــة تفرق بين الإنسان والحيوان، وتنشئ المجتمع وتحرســـه مـــن الانحـــلال، ومتى صارت الحرية إلى هذا الوضع فقد خسرت الإنسانية جهـــد أجيـــالا

---

٥٧) – سيد قطب، "العالم الجامح يثوب إلى الرشاد"، مجلة الشئون الاجتماعية، العدد ٤، السنة الثانية، ١٩٤١، ص ٥٢

وقرون، واحتاجت إلى الشكيمة الرادعة، والصدمة التي تعيد العقول إلى الرءوس" ([٥٨])

"إن المجتمع حين يتحرر من القيم والأخلاقيات والنظم الرفيعة هو مجتمع متخلف حتى وإن كان متقدما مدنيا".([٥٩]) "إن الشروط المادية والمدنية والمعاشية التي قد تهيئ للإنسان العمل والوسائل والانتفاع لا تعني بالضرورة حلا لمشكلة الإنسان الحقيقية، لأن قضية الإنسان هي في المقام الأول قضية حريته وكرامته وتوازنه الروحي والأخلاقي وتوفير الأمن والعدالة والمساواة في حياته ، وهذه الأمور تحددها طبيعة النظام الاجتماعي."([٦٠])

**وماذا بعد؟:**

يرى العقاد أن طريق التقدم يبدأ بالاهتمام بالصناعة فيرى: "أننا في خلال خمسين سنة سنصبح في عداد الأمم الصناعية الكبرى ... والصناعة ستفيدنا في هذه المشكلة وهى وحدها غنم عظيم يستحق ما يبذل فيه من جهود، ستفيدنا في عقولنا وأخلاقنا ومقاييس حياتنا الاجتماعية ونظراتنا إلى قيم الحياة لأنها ستنقل المجتمع العربي من بنية بسيطة ساذجة" إلى "بنية مركبة متقدمة" فلا يخفى أن الارتقاء هو الترقي من البساطة إلى التركيب، ومجتمع يقوم على الزراعة وحدها أبسط من مجتمع يقوم على الزراعة والصناعة والأعمال الاقتصادية المختلفة والتجارية المنوعة، ذلك

---

[٥٨]) – سيد قطب، "العالم الجامح يثوب إلى الرشاد" مرجع سابق، ص٥٢-٥٣

[٥٩])- على القرشي، "مفهوم الحضارة بين ملك بن نبي وسيد قطب، مجلة الهلال، القاهرة: دار الهلال سبتمبر ١٩٨٧، ص ١٢٥

[٦٠])- المرجع سابق، ص ١٢٣

ارتقاء في الملكات والهمم، وارتقاء في تعدد جوانب الفكر والخلق، وارتقاء في القدرة على التعاون بين أنواع الأعمال وطوائف العاملين."([61])

"وهذه هي الميزة الاجتماعية النفسية التي تهيئها لنا الصناعة المتقدمة وما يقترن بها من أعمال الآحاد والطوائف والجماعات، وغير بعيد علينا - مع اطراد هذا التقدم - أن نصبح من الدول التي لا تدرك شأوها الآن، وغير بعيد كذلك أن نواجه العالم برسالة ثقافية روحية، تتوافر عندنا على نشرها في عالم جديد، كما علمتها بالأمس شيئاً جديداً في العالم القديم"([62]). فهي دعوة للأخذ بالتصنيع، والنهضة الحضارية.

وفي الفصل التالي نعرض لأهم مبادئ الإسلام السمحة في تعامله مع الآخر، في ظل تحديات العولمة.

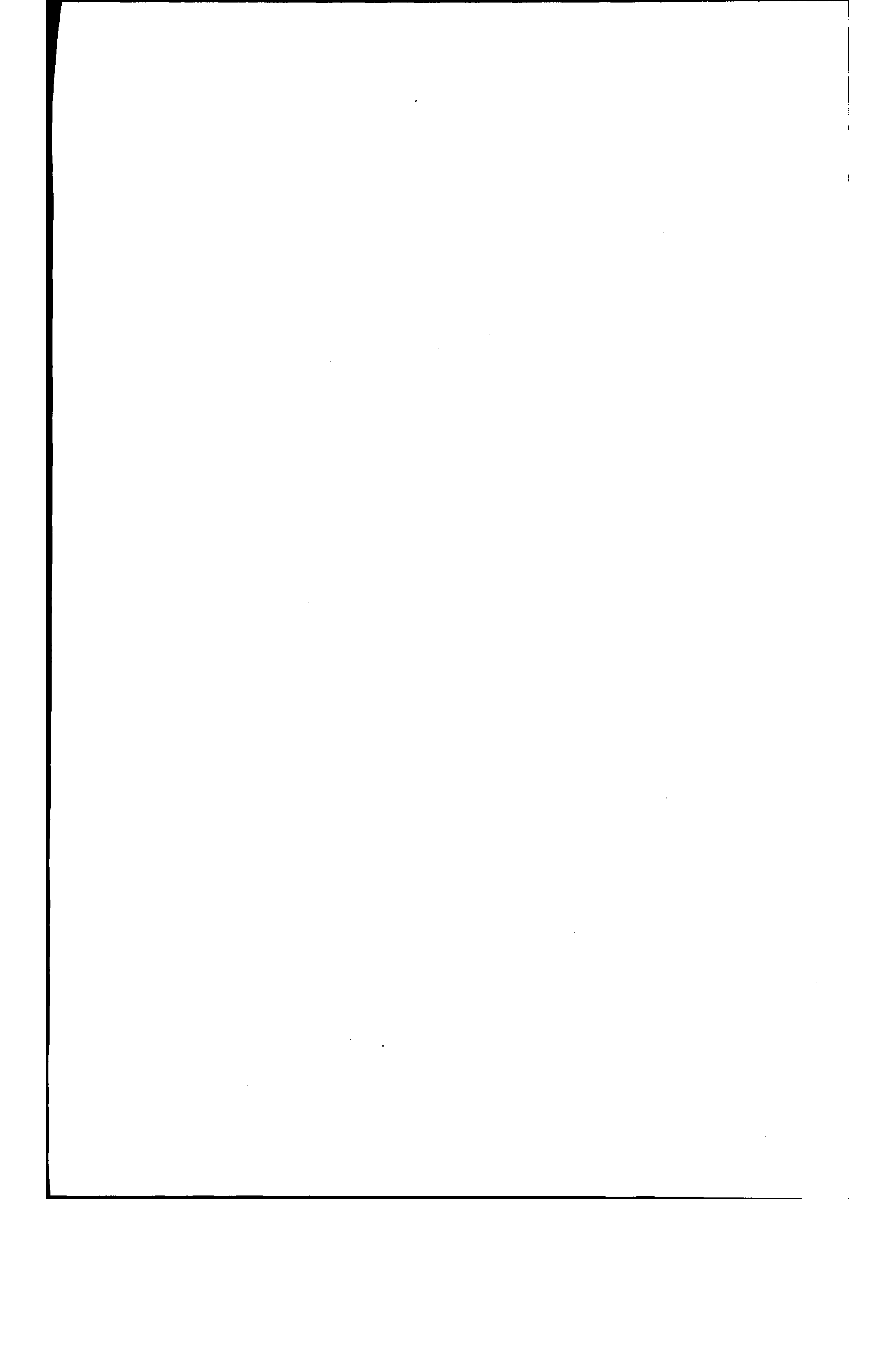
---

[61]) - عباس محمود العقاد، "يوميات الأخبار"، جريدة أخبار اليوم، ٢٢ يناير ١٩٤٩،

[62]) - المرجع السابق.

# الفصل الثالث

## المسلمون وتحديات العولمة



## مقدمة

من يقرأ الماضي يجد أن تاريخ المسلمين أو دول المسلمين ليس هو الإسلام في أغلب الأحوال، لم يكن الإسلام هو بعض الحكام الذين حادوا أو تجبروا أو طغوا أو استعلوا أو طلبوا الصيت والهيلمان أو ركبوا على رقاب الناس، مثلما لم يكن فيمن شردوا وابتعدوا في شرودهم عن الدين نفسه، وتكلموا بلسانهم لا بلسان الدين، وتصرفوا برؤيتهم لا برؤية ومبادئ وقيم وأحكام الدين.. ابتعاد الغلاة أو المتطرفين كثيرا أو قليلا عن الدين ـ لا ينال من الدين فهو باق على حاله.. ذلك الدين الذي قال عنه الرسول ﷺ: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقي.. هذا الدين المتين بقي على الدوام في قلوب عامة المسلمين.. في حنايا البسطاء الرحماء الذين لم تصرفهم غوايات الدنيا عن جوهر رسالة السماء التي آمنوا بها واعتنقوها والتزموا حدودها في صمت وتواضع وسكون ووقار دون أن يطلبوا السمعة أو يسعوا إلى مجد زائف.. الإسلام عائش ـ ولا يزال ـ في قلوب هؤلاء الملايين الذي ملأوا المعمورة شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا... يلتزمون حدود العالم الجديد المجيد بقيمه ومبادئه وأخلاقه، الذي رسمه الإسلام وبثه وقدمه إلى الدنيا!

مقومات المجد الحقيقي، كانت في روح الإسلام ومفتاحه الجديد العامر بالقيم والأخلاق والتسامح والوفاء الذي قدمه الدين للناس وهداهم إليه.. في ذلك الأمان الوارف الجاذب الذي قدمه الإسلام والمسلمون لأبناء الأديان

والملل والنحل الأخرى وأحاطهم به، في ذلك التعايش الذي تعايش به الإسلام بمنظومته الرفيعة الخلابة مع كل الأديان والحضارات.

إن الأديان تقاس بما تبعثه من هداية، وبما تصحح وتوقظ به الضمير، وبما تسكبه في نفوس الإنسان من قيم.. إن المسلم الحامل للشمائل الإسلامية، هو رسالة الإسلام إلى الدنيا في كل مكان وعلى امتداد الزمان.. هو ذلك الذي يفهم ويدرك أن الإسلام تقدم، لأنه دين جاذب جامع.. يحبب ولا ينفر، وأنه يخرج الإسلام الحنيف عن رسالته الكبرى — من يعبث أو يشوه هذا الوجه البهي الجميل البديع المعطر لهذا الدين.. يعرف المسلم السوي الفاهم العاقل المخلص أنه مؤتمن بأخلاقه ومناقبه وخصاله وشمائله وسجاياه، التي زرعها وبثها الإسلام فيه على هذه الصورة الندية الفواحة التي شدت الأرواح والأفئدة وعاش بها هذا الدين في ضمير العالمين.[1]

كان من الطبيعي، أن تولد الفتوحات الإسلامية العجيبة التي دانت بعد ذلك للمسلمين في فتره وجيزة، شعورا بالثقة وبالقوة البدنية والنفسية، وأن تسهم مع حضارة الإسلام الأشد عجبا التي نبتت ونمت وازدهرت في بلاد الإمبراطورية الواسعة التي اعتنقت الإسلام في المزيد من الشعور بهذه الثقة، وبالاطمئنان إلى صدق الدين الذي اعتنقوه وآمنوا به، وأن يستدعي ذلك كله إحساس المسلم وشعوره بمجد الإسلام كدين باق لما شاء الله، بيد أن هذا المجد لم يكن ابتعادا بالمسلمين عن هداية الدين الذي آمنوا بأنه دين للعالمين، وأن انفتاحه على العالم انفتاح دعوة، وانتشار،[2] رسالة أراد بها الله ﷻ هداية الدنيا، وجعل للمسلمين واجب نشرها ورعايتها وضمان اتساعها ليطمئن في واحتها المسلم وغير المسلم، وينال الأمان فيها كل من

---

[1]- رجائي عطية " الأديان، الهداية أم الأمجاد(٢)" جريدة الأهرام، ٢٠ فبراير ٢٠٠٤، العدد ٤٢٨٠٩.

[2]- رجائي عطية " الأديان، الهداية أم الأمجاد(١)" جريدة الأهرام، ١٣ فبراير ٢٠٠٤، العدد ٤٢٨٠٢.

يفيء إلى ظلها.. لم يكن مرجع المجد إذن لهذه الفتوحات العجيبة، ولا لهذه الحضارة الأشد عجبا، بل إن القران المجيد نهي المسلمين عن طلب المجد أو طلب النفوذ أو السلطان أو الاستعلاء، فقال ﷻ : "تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(٨٣) القصص"

منطلقات الإسلام للدعوة والعالمية:

الإسلام في نصوصه وفي مهجته وفي روحه، دين هداية، يأتي فيه أي شيء تابعا لهذه الهداية التي هي رسالة الإسلام إلى الدنيا.. القران المجيد نور وهداية "ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ"(٢) البقرة. والنبوة المحمدية نبوة هداية، وليست نبوة استعلاء ولا استطلاع ولا كهانه ولا تنجيم ولا خوارق ولا أهوال!!.. إن الهادي اسم من أسماء الله الحسنى، بعث نبيه المصطفي بالهداية: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ(٣٣) التوبة. يوصيه ليقول للناس كافه: "قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ"(٧١) الأنعام. نبي الهدي لا يبتغي ملكا ولا مجدا، ولا يبحث عن موجبات أو أدوات أو لوازم مجد.. "قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"(١٨٨) الأعراف. " قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ"(٥٠) {الأنعام فهم المسلمون الأوائل من القران المجيد، وسنة رسوله ﷺ أن المجد الحقيقي الذي تغياه الإسلام هو هداية الإنسانية كلها على أساس تصح وتستقيم وتطمئن وتنطلق وتتطور وتتقدم به حياة وقيم وأعمال وسلوكيات الأحياء.. الكرامة في القرآن، هي كرامة الإنسان.. "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ

وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا"(٧٠) الإسراء لم ينزل الإسلام إلى أمة بخاصة، ولا لقوم بخاصة، ولا لمكان بخاصة.. وإنما اتجه بدعوته إلى العالمين.. إلى الإنسان حيث كان، وبعث رسوله ﷺ بالهدي إلى الناس كافه.. "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"(٢٨) سبأ . "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . .(١٥٨) الأعراف. لا أحد مختص بالدعوة والهداية دون أحد، ولا مجد لأحد على أحد.. الإنسانية أسرة واحدة، مردها إلى أصل واحد..[٣]

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً . . (١) النساء" . "وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ"(٩٨) الأنعام . يخاطب الإسلام الناس كافه على سنن الهداية والإقناع.. الاتساع الكوني لرسالة الإسلام جعل باب دوحتها مفتوحا للعالمين بلا سطوة ولا تسلط ولا استعلاء، وبلا بحث عن علو أو أمجاد! قدم الإسلام للإنسانية دوحة وارفة دستورها القرآن: معجزته الكبرى الممدودة إلى الدنيا إلى يوم الدين، يجعل من الإيمان بكافه الرسالات والنبوات، جزءا لا يتجزأ من الإسلام وهداية الإسلام.. القرآن يخاطب المسلمين فيقول لهم: "قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"(١٣٦) البقرة . في هداية الإسلام للدنيا، جعل العقل مع الضمير والوجدان منارا لهداية الإنسان حيث كان، وجعل العلم روح الإسلام ليقدم للإنسانية كلها حياه يلتئم فيها نبضها بلا استعلاء في

---

[٣])- رجائي عطية " الأديان، الهداية أم الأمجاد(١)" مرجع سابق.

هذه الحضارة التآم المسيحي مع المسلم لعمارة الحياة فلم تتباه هداية الإسلام على غير المسلم، وفتحت للجميع فرصا غير محدودة للعطاء للأسرة الإنسانية.. فبزغ في دوحة الإسلام نجوم لا ينتمون إليه، أعطوا في مناخ عماده الإخاء والتسامح والمحبة والسلام.. يظل الجميع بلا تمييز ولا استعلاء منظومة أخلاقية عنيت كل حبة من حباتها برعاية الآخر.. هذا الجانب( رعاية الغير) ملحوظ في كل سجايا الإسلام، كالعدل، والصدق، والأمانة، والوفاء، والحلم، والكرم، والتواضع، والعفو، والسماح، والصفح، والإحسان، وكفالة اليتيم والأسير والمسكين، والتكافل، والإخلاص،.. وغيرها، مثلما هو ملحوظ في النواهي التي حرمت وحظرت الظلم، وبخس الكيل والميزان، وكتمان الشهادة، وقول الزور وغير ذلك من المنكرات.. هذه الباقة من الأوامر والنواهي وجهت عنايتها للأغيار، لأنها في غايتها السامية تحفل بالآخر وترعاه وتصونه من أن يلحق به أذى أو مكروه، ولذلك نزعت هذه الباقة الأخلاقية من وجدان المتلقي أي ميل للاستعلاء أو التكبر أو التجبر أو البحث عن الأمجاد الزائفة.. الإسلام زرع في وجدان المسلمين هذا العطاء الواجب بلا من ولا أذى!!.. فمهجته الحق والهداية إليه، وللإنسان في مظلته قيمة بذاته.. روحه مقدسة، وكرامته محفوظة، والعدل واجب إزاءه، والتجني والافتئات عليه محظور.. واحة الإسلام عمادها الإخاء والمساواة والتسامح والأمان.

الأخوة الإنسانية أخوة شاملة تطوي الجميع في حناياها.. يقول القرآن المجيد:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"(١٣) الحجرات. ساوي الإسلام في واحته بين الجميع، لم يستبعد من المساواة كتابيا ولا ذميا ولا أحدا من أهل الذمة الذي يقيمون في دار الإسلام.. لا مجد ولا تعظيم لأحد، يقول الرسول ﷺ للناس:

"لا تقوموا لي كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا... إنما أنا عبد من عباد الله أكل كما يأكل العبد، واجلس كما يجلس".. يقول ﷺ لمن أخذته رعده من هيبته: "هون عليك يا أخي، فإني لست بملك ولا جبار، وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة"..هذه المساواة هي رسالة الإسلام إلى الدنيا والي الناس كافة، إنهم في ظل دوحته الوارفة، يلتئمون جميعا في شجرة واحدة عمودها المساواة، وإنهم في رحابه ينتمون إلى شجرة الإنسانية التي يتساوى فيها الجميع في دوحة المساواة والإخاء والحرية والسماح![4]

هذا العالم الجديد، هو مجد الإسلام الحقيقي... هو الهداية التي أفاء بها على الإنسانية، وأتاح لها ما يتحقق به مجد الإنسان في بناء رام، وحرص الإسلام أن يتسع للإنسانية كلها.. لأسرتها الكبرى، بلا تمحور أو انصراف إلى تجبر أو استعلاء أو أوهام أمجاد زائفة تصرف الإنسان عن المعني الجامع والمثل الأعلى والغاية السامية العليا للحياة التي يتجه فيها الإنسان اتجاها صادقا إلى خالقه.. مجد الإسلام هو هذا العالم الجديد الذي وضع أساسه وقيمه ومبادئه وأحكامه، واتسعت رقعته لتضم في حناياه الأسرة الإنسانية بلا حواجز ولا سدود، ولا عصبيات ولا نعرات، ودون ما تجبّر ولا استعلاء...هذا العالم الجديد مهجته الرحمة والتراحم، لا الاستعلاء والتجبر أو المجد الزائف، رسالة الإسلام نور وهداية، ورسول القرآن ﷺ، رحمه إلى الناس مهداه من السماء.."وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"(١٠٧) الأنبياء فالرحمن، والرحيم من أسماء الله الحسنى، عن صفة رحمته ينبئ الذكر الحكيم فيقول: "رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا"(٧) غافر. ويأمر حامل الرسالة عليه السلام بإبلاغها إلى الناس.. كل الناس: "نَبِّئْ عِبَادِي

[4])- رجائي عطية " الأديان، الهداية أم الأمجاد(١)" مرجع سابق.

أنّي أنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"(٤٩) الحجر. يقول الرسول ﷺ لأتباع الإسلام: الراحمون يرحمهم الرحمن.. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء..وفي الحديث القدسي اطلبوا الخير عند الرحماء من أمتي تعيشوا في أكنافهم، فإن فيهم رحمتي.. معيار التفاضل بين الناس هو التقوى والعمل الصالح..كلكم لآدم.. وآدم من تراب.. لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.. يقول لهم نبي الهدي ﷺ: يا بني هاشم، لا يجيئني الناس بالأعمال وتجيئوني بالأنساب، إن أكرمكم عند الله اتقاكم.. أمة الإسلام مدعوة إلى الخير وبذل المعروف، لا إلى التميز والتجبر والعلو في الأرض "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"(١٠٤) آل عمران. العزة الحقيقية في التقوى لا في المجد الزائف من لم تعزه التقوى فلا عز له.. الإسلام يطلب الرفعة.(٥) نعم، ويطلب القوة، نعم، ولكن ذلك كله في الحق ولأجل الحق.. التمايز لا يطلب في الإسلام للعلو أو طلب المجد، وإنما لتكون القدرة المتحصلة مسخرة لرعاية الكافة... قوة القوي في جبر ضعف الضعيف، وغني الموسر لكفالة المحتاج والفقير، وعقل العاقل لرتق وهن عقل العليل.. لذلك لا يسمح الإسلام بأن تمس الاختلافات بين البشر، ما ينبغي أن يسود العالم من أخوة وانتماء إنساني تذوب في أخوته الإنسانية الشاملة كل فوارق الجنس واللغة والأعراق والألوان والصفات والمكنات والقدرات.. هذا المعنى الجامع لا يدع محلا لأوهام المجد الزائف، ولا يترك ثغرة للانصراف عن القيمة والحق والهداية، إلى أوهام العلو والركوب على رقاب الناس أو استلاب حقوقهم وحرياتهم وكراماتهم ومصالحهم وأموالهم!! هذا العالم الجديد كل الجدة، لم يبنه الإسلام ويضع أساسه وكفي، وإنما أعطى مفتاحه إلى الدنيا

---

(٥)- رجائي عطية " مرجع سابق.

ليلج إليه من يريد هداية الله وصدق التوجه إليه، وسلامه الوجدان والضمير[٦]

العالم الجديد الذي وضع الإسلام مفتاحه أمام الناس، هو عالم عماده الهداية والتوحيد والسماحة ومفتاحه الإصرار على الوفاء والإصرار على الأمان من جانب المسلم.. الوفاء بالوعد الذي يعده المسلم لغير المسلم والإصرار على الأمان الذي يجير به المسلم غير المسلم ويبقي وفيا به ملتزما بمقتضياته إلى أن يبلغ غير المسلم مأمنه.. ظل المسلمون على ذلك وصاحبهم الوفاء والأمان في مراحل تكوين إمبراطوريتهم وازدهار حضارتهم هذه الحضارة التي أقامت بمنظومتها الرفيعة مجدا حقيقيا للإنسانية، وبقي المسلمون على ذلك إلى أن دخلوا مع الناس فيما أصطلح عليه الناس، ومازالوا فيه بآلامهم وآمالهم إلى اليوم![٧] قد كان يمكن للحراك الذي نشهده الآن وقبل الآن، أن يمسك بالحبل الصحيح وهو تسلم ذلك المفتاح البسيط المليء بالثقة والود والسماحة والأمان، بيد أن هذا الخيط تطمسه أو تحاصره الحملات الضارية على الإسلام والمسلمين، ولواعج الشعور بالهوان الدنيوي والتطلع إلى استعادة العزة والمنزلة والمكانة والسؤدد والثروة، وهذه اللواعج ومضاعفاتها وما يقترن بها ويصاحبها من تغول أقوياء اليوم وجموح شطحاتهم وتهجمهم الوحشي المغلوط ـ يصرف بعض المسلمين عن الجوهر الحقيقي لهذا المفتاح الذي كان بشارة العالم الجديد الذي هز به الإسلام أركان العالم الذي كان سائدا وقت نزوله![٨]

---

[٦]- نفس المرجع.

[٧]- رجائي عطية " الأديان، الهداية أم الأمجاد(٢)" مرجع سابق.

[٨]- المرجع السابق.

## الهداية روح الإسلام

هداية الإسلام هي التي حققت ما كان من أمجاد.. عمود الإسلام، الذي غير واقع الدنيا، هو اتجاه العبد إلى خالقه بكلياته وجزئياته بإخلاص تـام وأمانة كاملة مع الشعور بفيض الرحمة والود الـذي يثيـره حتمـا ذلـك الاتجاه.. فكل اتجاه جاد يشعر الآدمي بجده نحو خالقه ـ هو اتجاه مقبـول عند المسلم يصاحبه ـ لكي يصبح مسلما ـ الإيمان بالعقائـد والاعتـراف بالشعائر المقررة على كل مسلم، ومن هنا توطدت أسس العلاقات الـسلمية في القرآن الكريم بين المسلمين وغير المسلمين، وأهل الكتاب.. لم تغمض عيون الإسلام قط عن أن الناس خلقوا مختلفين، وأن هذا الاختلاف يجـري بين الأفراد في عقولهم وقدراتهم وملكاتهم وفهمهم وعقائدهم ومـذاهبهم.. في القرآن المجيد لهذه السنة الكونية: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّـاسَ أُمَّـةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"(١١٨) هود روح وعمـود الإسـلام التفاتـه المحمود إلى هذا الاختلاف وموافاته بما يقتضيه من محافظة على العلاقـة بين المسلمين وغير المسلمين.. أباح الإسلام للمسلم طعام أهل الكتاب وان يتزوج منهم وأن تبقي الزوجة على دينها وهو على دينه، مثلها فـي كـل شيء مثل الزوجة المسلمة سواء بسواء. في القرآن الحكيم: الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْـصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا ءَاتَيْتُمُـوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٥) المائدة

## أمان الإسلام

الأمان المعطي في الإسلام، مقرون بالوفاء، الوفـاء بالوعـد والعهـد وبالمواثيق مبدأ عام أوصي به القرآن المجيد فقال:"وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا(٣٤) الإسراء وجعله من صـفات المـؤمنين، فقـال عـنهم:

"وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ"(١٧٧) البقرة

حق العهد والوفاء به مقدم في الإسلام على كل ما سواه.. حتى على حق الدين.. في القرآن المجيد: "وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"(٧٢)الأنفال، بذلك قدم القرآن بصريح لفظه، احترام ورعاية العهد والوعد والميثاق على نصرة من يستنصر المسلمين في الدين، وفي حديث رسول القرآن ﷺ: إن حسن العهد من الإيمان.[٩]

دل الإسلام على أن الوفاء بالوعد هو خلق الأنبياء والرسل الصالحين: "وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا"(٥٤)مريم. ووعد الموفين بالعهد بأنهم الذين يدخلون الجنة "الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ"(١١) المؤمنون.

لا يقبل الإسلام تحت أي ذريعة ــ نقض العهود والمواثيق.. وفي حديث الرسول ﷺ:

من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يحلن عهدا، ولا يشدنه، حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء، تقدم الإسلام وعاش بوفائه ووفاء رسوله ﷺ ووفاء المسلمين بالعهد.. وكان هذا الوفاء والإصرار عليه وعلى أمان الجوار للمسلم هو الأداة الرئيسية لنشر وانتشار دعوة الإسلام.

أمان الجوار للمسلم، فلا يخرج منه أحد.. يعطي ويبذل للمسلم والكتابي ولغير الكتابي، وللعربي ولغير العربي. الطريق الفسيح لأولئك أو غيرهم لاعتناق الإسلام والحرص عليه، هو الثقة التامة في كلمة المسلم ووعده

---

٩)- المرجع السابق.

وعهده، وفي جيرة وجوار مصحوبين بأمان يمنحه المسلم لإنسان يخـاف حتى يبلغ مأمنه... لا يستثني المسلم أحدا ولا المشركين من هذا الأمـان.. ففي القرآن المجيد: وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّـى يَـسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ(٦)التوبـة. أي آدمـي يدخل إلى هذا العالم، مصحوبا بهذا الوفاء والأمان، يدخل إلى عـالم جديـد مختلف عما يتركه وراءه في العالم الآخر المشوب من قديم بالخديعة والغدر والخسة والخيانة والمراوغات التي يتداولها الخلق في دنيا الناس!

## لماذا تقدم الإسلام؟

لم يتقدم الإسلام لأنه قوض إمبراطوريات أو هـدم أنظمـة، أو بعثـر جيوشا.. انفتاح الإسلام على الدنيا إنما كان يرمي إلى إزالـة الـصد عـن سبيل الله، وبث هداية الله إلى الإنسان حيث كان.. لم يكن هدفه إلى تفويضا أو هدما لذاته، أوغلوا وتجبرا في الأرض، وإنما كان منصرفا إلـى إقامـة عالم جديد كل الجدة، قوامه النور والتوحيد والهداية، وأساسـه الـصلاح والأمان والإخاء.

يدلنا التاريخ القديم والحديث، على فشل وإخفاق الثورات التي هـدمت ودمرت القديم، دون أن تنشئ كيانا جديدا وشيئا باقيا.. الناس في شـعوب الأرض على عاداتها وأحوالها ومصدقاتها وأعرافها ما لم تتقدم قوة باعثة تتبنى وتنهض على رؤية جديدة تصلح ما اعوج أو انحرف أو ضـل مـن أحوال الناس، وهذا هو ما فعله الإسلام فيما امتد إليه من أقطار.[10]

تقدم الإسلام والمسلمون، وأقاموا الإمبراطورية العظمـي، والحـضارة الرفيعة، لأن عيون الدعوة كانت ملتفتة من واقع الدين نفسه ومبادئه ومثله

---

[10]- المرجع السابق.

وأحكامه إلى البناء وإقامة ما ينفع الناس من هداية ونظام وصلاح، ذلك هو رسالة الإسلام ذاته إلى الدنيا، لم تكن الرسالة تقويض إمبراطورية الفرس أو الرومان، أو اجتياح بلدان، وإنما هي رسالة نور وهداية.. تتغيا تغيير الواقع الكئيب إلى خفقات جديدة تشد الحياة والأحياء إلى الأمام بقيم باقية تختلف عما كان فيه الناس!

الهداية والإصلاح والتغيير، هي عمود وروح الإسلام، وهي مع وفائه وأمانة التي أتاحت هذا النماء الذي وصلت إليه الحضارة الغابرة.. الانحصار في التغني بالفتح أو التقويض! هو التفات ضرير عن القيمة الحقيقية لعوامل الهداية والإصلاح والتواصل والبناء الذي عمرت به الحياة الجديدة في أقطار الإسلام! روح وعمود الإسلام هو في هذا الجوهر الذي عمر به الإسلام حياة الدنيا ووصل به حيوات الناس.. قيمة الإسلام في هدايته وما قدمه إلى الدنيا لتستقبل به عالما جديدا كل الجدة، قوامه الهدي والنور والإيمان والإحساس بالأمان.. لا يحصر الإسلام نفسه في محض ما أنجزه المسلمون وحققوه من أمجاد.. مجد الإسلام الحقيقي هو تلك الروح التي استطاع بها أن ينقل الدنيا من عهد مظلم إلى نور جديد.. قيمة التراث هي في قدرته على بعث عقول ونفوس جديدة مزودة بهذه الروح التي بها خطا المسلمون خطوات سبقوا بها زمانهم وعالمهم إلى مزيد حققوه من الوفاء والأمان، ومن السلام والعطاء، ومن الاستنارة والمعرفة والعلم.. لم يكن المسلمون الماضون قادرين على تحقيق ما حققوه، وإنجاز ما أنجزوه لولا هذه الروح أو هذا العمود أو ذلك المفتاح الذي أعطي به الإسلام الأمان والسلام وغير وجه الحياة.(١١)

---

(١١)- المرجع السابق.

## لغة الخطاب الديني المعاصـــر:

إنها قضية بالغة الأهمية، وعلى فهمهـا الـصحيح يتوقـف مـستقبل العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الإسلامي الواحد.. ومـستقبل العلاقـات بين المسلمين وغيرهم من شعوب الأرض.. ومن المؤسف أن بعض نماذج الخطاب الإسلامي المعاصر تقع في أخطاء فادحة وهى تصف هذه العلاقـة "لجماهير المسلمين". ويتمثل الخطأ الأكبر في إقامة سور نفسي واجتماعي يحاجز بين المسلمين وسائر الناس، وإقامة سور آخر يحاجز بين المسلمين بعضهم البعض داخل المجتمع الواحد.. فتكـون عاقبـة ذلـك محاصـرة" المسلمين داخل حوزات مغلقة، تحول دون تواصلهم مع غيرهم، وتتـركهم في عزلة تضر بهم وبالناس جميعًا.. وتمنح شرعية كاذبة للدعاوى التـي تملأ الدنيا من حولنا هذه الأيام.. زاعمة أن الإسلام يضع أتباعه في حالـة "جهاد ديني مقدس" متواصل الحلقات ضد من لا يـ دين بـدينهم ولا يـرى رأيهم، وأنهم سيظلون ـــ لذلك غرباء ـــ عن مسيرة الإنسانية المعاصرة.. وستظل الفجوة قائمة وواسعة بينهم وبين سائر الشعوب بسبب اعتنـاقهم لفكرة "الجهاد" وتفسيرها تفسيرًا يتسع يومًا بعد يوم.. وبسبب إصـرارهم على أنهم مختلفون تمامًا عن سائر الشعوب، وأن عقيـدتهم وثقـافتهم لا تفسحان مكانًا للاختلاف.. ولا تحرصان على التعايش مع "الآخـرين" فـي ظلال من المساواة والاعتراف المتبادل، والحوار الذي لا يحول دونه وجود الخلاف، والحق أن قضية "العلاقة بالآخر" تقع في نطاقين متميزين: (١٢)

أولهما: النطاق الداخلي، أي خلاف المـسلمين بعـضهم مـع بعـض، والآخر: علاقة المسلمين مع غيرهم ممن لا يدينون بالإسلام، وينتـسبون

---

[١٢]- أحمد كمال أبو المجد، الخطاب الديني المعاصر، author.asp?name. موقع بالإنترنت، رؤى إسلامية. ٢٠٠٣/٨/١٩

لعقائد وثقافات أخرى، فأما الأمر الأول: فيقتضي ملاحظة أن الفرد المسلم ليس وصيا على الفرد المسلم الآخر، وأن اختلاف الأفكار والمواقف العملية بين أفراد المسلمين، وتحت مظلة الدين الواحد الذي يدينون به، أمر وارد تمامًا، وهو — في النهاية — نافع لمجموع الأمة.. ولا يجوز أن تضيق به الصدور أو أن يكون سبيلاً للتفرقة والقطيعة وتبادل الاتهام، كما أنه لا يقتضي — أبدًا — أن يكون أحد أطرافه مؤمنًا، والآخر فاسقًا ومارقًا.. إذ الصواب والخطأ في الاجتهاد غير الاستقامة والخطيئة.

والقرآن يذكرنا — وقلما نتذكر — بأن وحدة الأمة لا تحول دون وقوع الخلاف بين أفرادها، بل يظل المؤمنون — رغم خلافهم — "كالبنيان يشد بعضه بعضا".

اوحتى إذا استفحل أمر الخلاف ووصل إلى حد الاقتتال المنهي عنه، فإن الفريقين المختلفين يظلان "أخوة" ويظلان "مؤمنين". "وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٩) الحجرات" لذلك نلح في الرجاء على المشتغلين بالخطاب الإسلامي أن يراجعوا أنفسهم وأن يعيدوا التأمل في آيات الكتاب الكريم وسنة النبي ﷺ، ليعرفوا — من جديد — كيف اعتبر الإسلام التنوع وتعدد الآراء واختلاف الثقافات نعمة تستوجب شكرها "بالتعارف"؟ الذي يشير إليه قوله تعالي: "وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١٣) الحجرات"، ثم ليقفزوا — بعد ذلك — قرونًا من الزمان ليسمعوا الإمام أبا حنيفة وهو يقول: "علمنا هذا رأى وهو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بخير منه قبلناه"، ثم ليسمعوا الإمام الشافعي وهو يقول: "رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب".. وليذكروا بعد ذلك أن الصحابة وهم حواريو النبي

ﷺ الذين لازموه وأخذوا منه الدين والعلم والعمل، قد اختلفوا في أمور عديدة، وأن التابعين من بعدهم كانت بينهم خلافات في الرأي أكثر من اختلافات الصحابة..

وأن الأئمة أصحاب المدارس الفقهية الكبرى في تاريخ التشريع الإسلامي.. كانت لهم أصولهم الفقهية، واجتهاداتهم الخاصة بهم في فروع الفقه وفيما انتهوا إليه من رأى.. فما ذكر أحد منهم أحدًا بسوء.. فضلاً عن أن يتهمه في خلق أو دين..

إن هذا السجل المشرف أثر من آثار البصر الدقيق بالأصول الاعتقادية الكبرى للإسلام وعثرة من عثرات الإيمان بأن الحكمة ليست حكرًا على أحد.. وإنما هي موزعة بين الأفراد، مبثوثة فيهم جميعًا.. وأن على طالبها أن يبحث عنها عند الآخرين ولو كان هؤلاء الآخرون غير داخلين في الإسلام بحدوده الجغرافية أو التاريخية.

أما غير المسلمين فقد علمنا القرآن الكريم أن نجادلهم بالتي هي أحسن "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"(٣٤) فصلت . كما بين لنا أن العدل معهم، والبر بهم (والبر تقديم ما يجاوز حد العدل) هو أقوم السبيلين.. "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ(٨) الممتحنة" وحين يتصل الأمر باختلاف العقائد الدينية، فإن القاعدة الذهبية الكبرى التي لا يتصور ورود النسخ عليها أو تبديلها هي قوله تعالي: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ "(٢٥٦) البقرة وهى قاعدة بين القرآن مظهرها العملي بقوله تعالى على لسان المؤمنين: "قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ"(٢٥) سبأ. كما تردد صداها في آيات أخرى عديدة: يقول تعالى

لنبيه: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ(٩٩) يونس. "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨) {هود ويقول ﷺ له: "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ(٢١-٢٢) الغاشية".

ويبدو أن الإحساس المرير بالتراجع السياسي والاقتصادي والعسكري للشعوب الإسلامية المعاصرة قد دفع كثيرًا من الدعاة إلى التورط في تحريض المسلمين على مخاصمة الدنيا كلها، والدخول مع الناس "الآخرين" في معركة مواجهة ورغبة في الاستبعاد والإقصاء.. ولازلت أذكر - في دهشة يمازجها الأسف الشديد، خطيبًا أديت خلفه صلاة الجمعة منذ عشرين سنة، ختم خطبته بدعاء على "الكافرين" أن يحصيهم الله ﷻ عددًا، وأن يهلكهم بددًا، ويجعلهم وأموالهم غنائم للمسلمين.. ثم بدا له أن يفصل اللعنة التي صبها عليهم مستعرضًا علمه بأسماء بعض البلاد، فأخذ يذكرهم بجنسياتهم وأقطارهم، حتى لم يترك بلدًا من البلاد الأوروبية إلا وقد أدخله باسمه في "لعنته" العامة التي ختم بها خطبته.

إن هذا كله انحراف صارخ عن جادة الإسلام الصحيح ومخالفة واضحة لسنة رسول الله ﷺ وسيرته وأدبه في الدعوة إلى الله ﷻ، يشهد بهذا ما تعلمناه من أن بعض أصحابه سألوه أن يدعو على المشركين فرفض قائلاً: إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة". وبعد هذا كله، فقد تغير الزمان، وتبدلت أوضاع الدنيا كلها، ولم يعد المسلمون "منحازين" وحدهم في بلد واحد، ولم يعد غير المسلمين.. هم الآخرون "منحازين" في أقطار لا يدخلها أو يقيم فيها المسلمون[١٣].

---

[١٣]- أحمد كمال أبو المجد، الخطاب الديني، مرجع سابق.

وسقطت بهذا التطور الكبير ترتيبات وصياغات صنعها الفقهاء في عصر غير العصر وملابسات غير ما يحيط بنا اليوم من ملابسات.. فلم يعد لتقسيم الدنيا إلى دار حرب ودار إسلام ذات المعنى الذي كان له.. ولسنا اليوم ولا قبل اليوم — نحن المسلمين — في حالة قتال دائم مع غير المسلمين.. وإنما نحن وإياهم شركاء في مسيرة واحدة، نتبادل ثمرات الخبرة والتجربة، ونوظف تنوعنا في العقائد والثقافات لما ينفع الناس. متعاونين فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، ملتزمين، كلٌ في ناديه، بثوابت ما يؤمن به، وليت فقهاءنا وأهل الاجتهاد فينا يقدمون للأمة صياغات جديدة تشرح العلاقات الجديدة بين المسلمين وغير المسلمين.. بما يستحق أن نسميه "فقه التعايش والاتصال" بديلاً عن فقه "العزلة والانفصال".

## الحوار بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى:

ليس هناك جديد في القول بأن " العقل " الإسلامي (و) العربي قد انشغل بالحوار مع العقليات " الحضارية / الثقافية " الأخرى في عصور تكوينه ثم ازدهاره القوى الأولى، وفى عصر صحوته الحديثة – سُباته النسبي – على السواء . بل ليس جديداً القول بأن " الحوار " بين هذا العقل " الإسلامي (و) العربي " وبين العقليات الأخرى – عطاءً وأخذاً – كان إحدى العمليات التاريخية الرئيسية الكبرى التي تكونت، وتطورت "الثقافة العربية (و) الإسلامية " و حضاراتها الشاملة بأسرها من خلالها، وأن هذا الحوار كان أيضاً إحدى العمليات التاريخية الرئيسية الكبرى التي مكنت الثقافة العربية (و) الإسلامية – في جانب – من احتواء وتطوير شعوب وأمم كاملة ومواريثها الثقافية، ومكنت تلك الشعوب والأمم – في الجانب الآخر – من المشاركة – عبر الجسور التي أقامتها ومدتها الثقافة العربية (و) الإسلامية

نفسها – في تغذية الحضارة الإنسانية العامة ودفع مسيرتها الطويلة و الصعبة و المتشعبة في دروبها ومسالكها العديدة [١٤].

وقد يعتقد البعض أن الدعوة – المتجددة وذات الصوت المرتفع الآن إلى دعم الحوار الثقافي، بين الثقافة العربية (و) الإسلامية وبين الثقافات الأخرى، هي محض مناورة سياسية بغية تحقيق مكاسب وقتية أو تجنب خسائر متوقعة أو كسب مواقع أمنية لقاء ما نطلقه نحن من كلام، غير أن هذا التصور يدحضه " فعل " الحوار أو تبادل الأخذ والعطاء عملياً – الذي مارسته الحضارة / الثقافة العربية (و) الإسلامية وتمارسه " تلقائيا " بحكم تكوينها ذاته، وبحكم التفاعل الطبيعي بينها وبين كل " جيرانها " الحضاريين الذين تتماس حدودها مع حدودهم وتتداخل؛ بينما يمثل "الجيران" هؤلاء الغالبية العظمى من أكبر "الحضارات/ الثقافات " و أكثرها خصوبة على امتداد " المكان " و " الزمان " البشريين، وبحكم "السياسات " التي نبعت بشكل تلقائي وحتمي – منذ بدايات العصور " الحديثة " والتزمت بها كل الكيانات السياسية – أو : الدول – التي تشكلت وتطورت في إطار الحضارة / الثقافة الإسلامية (و) العربية، وهي السياسات التي ساهمت بقوة في تكوين مجتمعاتنا المعاصرة وفي كل مجالات تطورها الثقافي الحديث : من الفكر المجرد إلى الإبداع الفكري والفني والأدبي، إلى العلم النظري والتطبيقي، إلى التعليم والإعلام، إلى الإدارة والتنظيم الاقتصادي والاجتماعي، إلى الكثير من أنماط و أساليب ممارسة الحياة العادية واليومية.

---

[١٤]- سامي خشبة. "دعم الحوار بين الثقافة العربية والإسلامية، والثقافات الأخرى"، موقع على الإنترنت، author.asp

إن هذه الحقائق الفعلية الملموسة، حقائق التاريخ و الجغرافيا والتفاعل الثقافي /الحضاري " العملي " و " التلقائي " والسياسات المقررة المعلنة – و المتدرجة الانتشار منذ أواخر القرن الثامن عشر على الأقل – هي المنطلق الحقيقي – في تصورنا – لدراسة واستكشاف أساليب دعم " الحوار " الواعي و الإيجابي في عصر مختلف، ملئ بالوعود و الإمكانيات، ولكنه ملئ أيضاً بالأخطار و النذر.

فعلى صعيد " الوعود و الإمكانيات " لا يستطيع باحث أن يتجاهل حقائق منجزات هذا العصر التي يؤكد الفكر الحديث أنها تتحول – إن لم تكن قد تحولت بالفعل – إلى القواعد " المادية " التي يشيد عليها الآن مستقبل البشرية : " الذي ينهمر علينا " بتعبير إلفين توفلر الشهير ؛ المنجزات التي تتلخص في " الثورات " الثلاثة : الثورة العلمية ( الفيزيائية و البيولوجية ) والثورة التكنولوجية ( الميكرو/إلكترونية ) و ثورة الاتصالات وما ترتب عليها : تحرير " إتاحة " المعرفة من جانب، وتطوير وسائل "توجيه" المعرفة والسيطرة على " الفكر السائد " بأساليب عديدة لهذا التوجيه من جانب آخر.

وعند هذه الفاصلة بالتحديد يتبدى الجانب الآخر من عصرنا: على صعيد "الأخطار والنذر " : فلا يستطيع الباحث أن يتجاهل أن نهايات القرن العشرين قد شهدت تطورات سياسية / اقتصادية /اجتماعية عديدة ومتضاربة، ربما كان على رأسها تزايد طموحات شعوب ومجتمعات ودول "العالم الثالث" إلى التنمية، وبالتالي إلى الحصول على أنصبة عادلة من ثمار ثرواتها الخاصة ( ثرواتها الطبيعية وثمار الجهد البشرى في آن واحد ) وعلى أنصبة عادلة من ثمار الثورات " المادية " الثلاثة التي جرى " تمويلها " أساسا من خلال الاستثمار (الاستغلال! ) الطويل لثروات تلك الشعوب النامية الطامحة إلى النمو المتكافئ: وكان المعنى الرئيسي لتلك

الطموحات هو: إعادة تزريع ثمار وأرباح التطور المـادي الـذي أنجزتـه الإنسانية في القرنين الأخيرين، على أسس عادلة .

في مواجهة هذه " الموجة " التي شملت أكثرية شعوب العـالم، لجـأت قوى " الاستثمار " القديم ( والجديد معها ) إلى أساليب مختلفة لمقاومـة " إعادة توريع " الثروة الإنسانية المشتركة – الثروة المادية والمعرفية معاً – بشكل عادل، بل لجأت إلى محاولات عديدة لإعادة الأوضـاع – بأشـكال جديدة وتحت أقنعة متعددة – في بقاع عديدة من العالم – إلى ما كانت عليه قبل عملية " تصفية الاستعمار " التي أشرفت عليها الأمم المتحـدة – مـن خلال لجنة دولية عرفت بهذا الاسم تحديدا في ستينات وسـبعينات القـرن العشرين، وكان أن جاء جزء من رد الفعل إزاء تلك المقاومة – في "عالمنا " الثالث – الذي تشكل شعوب ومجتمعات الحضارة/الثقافة الإسـلامية (و) العربية أكثر من ثلثيه – في شكل ارتداد داخلي إلى " الذات " التي رُسـمت صورتها على أنها "ذات" قومية ( دينية / وطنية .. إلخ ) جامدة، ثابتـة، مطلقة، ثم في شكل رفض مطلق للآخر – بكل تجلياته الإيجابية و السلبية، ورفض مطلق لأي نوع للحوار معه، أو للحوار مع " الـذات " القوميـة " المتطورة " فعلا والتي كانت قد تطـورت اجتماعيـاً وثقافيـاً – فـي كـل مجتمعاتنا دون استثناء تقريبا – بفضل حوار إيجابي وتفاعل بناء مع كـل من " الآخرين " الحضاريين / الثقافيين، ومع " تراثنا " الذاتي، أو مـع " ذاتنا " الموروثة بكل طبقاتها ومكوناتها.

ثم كان أن زادت قوى " الاستثمار" القديم ( والجديـد ) مـن توظيفهـا ثرواتها المادية / التكنولوجيـة والاقتـصادية، ولثرواتهـا الاتـصالية / المعرفية، لشن " هجوم مضاد" ليس فقط " ضد " من رفضوا الحوار، وإنما ضد كل من مجموع المطالبين بنظام عـالمي "عـادل " جديـد: اقتـصادي وسياسي وثقافي معرفي و إعلامي، واعتمد تبرير هذا الهجوم علـى أن "

رافضي الحوار " و التفاعل الإيجابي، إنما يرفضون جميع " القيم " التي تمثلها ثقافات " الآخرين " .. و بخاصة قيم الثقافة الغربية .. و هذا " الهجوم المضاد " وتبريره لنفسه هو ما تواجهه، أو ما ينبغي أن تواجهه دعوتنا المتجددة الآن لحوار إيجابي وإرادي وواع بين الثقافة الإسلامية (و) العربية، وبين الثقافات الأخرى، وهو ما تفرض كل منطلقات الدعوة إليه، أن يكون حواراً " مع الذات " من ناحية، ومع "الآخرين" من ناحية أخرى:

حوار " مع الذات " تأكيدا و تدعيماً لثمرات تطورنا الاجتماعي / السياسي / الاقتصادي / الثقافي الفعلي الذي حققته أجيال شعوبنا خلال القرنين الأخيرين، وحوار " مع الآخرين " تدعيماً و تأكيداً لأسس التفاعل التلقائي، والمثمر لكل الأطراف، و المستمر عبر – وطوال – عصور التاريخ .

إن نظرة فاحصة سريعة إلى الخريطة " الجغرافية / الحضارية " للعالم الإسلامي فيما بين الأطراف الجنوبية الشرقية للمحيط الهندي وبين الطرف الشرقي – الأوسط للمحيط الأطلنطي، صعوداً إلى امتداد الوسط الآسيوي الشاسع ومروراً بالأناضول التركي وأطراف البلقان الأوروبي، إن مثل هذه النظرة سوف تحدد بوضوح " جيراننا " الحضاريين، وإذا شئنا تحديد أكثرهم وضوحاً – وأهمية من الناحية الحضارية – فإنهم بالطبع من الشرق إلى الغرب: الصين إلى الشرق، والهند إلى الجنوب؛ وأوروبا – في الشمال – المنقسمة إلى الجزأين: السلافي، واللاتينوجرماني، وفى العصور الوسطى كان يتوسط هذين الجزأين ثالث غربي هو: البيزنطي.

و يعلمنا التاريخ "العالمي" أنه عندما شرع العرب – بعد توحيد قواهم تحت راية الإسلام – في بناء: " العالم / الحضارة " الإسلاميين – في

أواسط القرن السابع الميلادي – لم يكن القسم الشرقي – السلافي من أوروبا – في الشمال – قد دخل بعد ساحة التفاعل الحضاري الثقافي – أخذاً لا عطاءً؛ وسوف يظل كذلك طوال القرون العشرة التالية، بينما كان القسم الغربي والجنوبي ( اللاتينوجرماني و البيزنطي) قد شرع يدخل عصوره الوسطى: مرحلة اضمحلاله الثقافي الحضاري النسبي وكُمونه الطويل، جاهلاً، أو غير واعٍ بـ " ميراثه " الإغريقي الروماني وأصول هذا الميراث في " حضارات / ثقافات " جنوب البحر المتوسط ( مصر وفينيقيا وبابل بشكل خاص ) .

هكذا كانت أكثر تفاعلات " الحضارة / الثقافة " الإسلامية / العربية البازغة الجديدة حيوية ونشاطاً مع جيرانها المباشرين إلى الشرق، ومع مضيفيها الذين امتزجت بهم تماماً في الشمال والغرب " حضارات / ثقافات " فارس والهند والصين من ناحية، والحضارة / الثقافة الهيللينسية / المسيحية المتأخرة في البلدان التي كانت أجزاء من الممالك اليونانية / المقدونية، ثم من الإمبراطورية الرومانية في مناطق الهلال الخصيب (سوريا الكبرى ) ومصر وشمال أفريقيا، وهى الثقافة التي حملت في بنيتها و في تشكلاتها العديدة مواريث وملامح قوية من الثقافات / الحضارات المحلية أو الأصيلة الأقدم المصرية و البابلية والفينيقية.[١٥]

إن عوامل كثيرة تراكمت و تفاعلت طوال القرون الخمسة عشر الأخيرة – قد أنتجت الوضع الحالي لموازين و مؤشرات التفاعل بين الثقافات التي تنتمي إلى الحضارة الإسلامية – بعد أن استوعبت ثقافات بشعوبها من " جيرانها " القدامى – و من جيرانها الحاليين ( في الهند والصين على سبيل المثال في الشرق والجنوب، وفي أوروبا السلافية واللاتينوجرمانية شمالا

---

[١٥]- المرجع السابق.

بغرب ) بما يجعل مبدأ " الحوار" الواعي و الإيجابي بينهم جميعاً ضـــرورة حيوية لمستقبل ازدهار شعوب ومجتمعات كل منهم و أمنها .

ولاشك أن أكثر تلك العوامل تأثيراً في تلك المـــوازين و المؤشـــرات – على طول مجرى التاريخ – و المستقبل المنظور – الإنسانيين بشكل عام، كان هو الصعـــــــود السريع الكبير لأوروبا في مجموعها منـــذ القـــرن السابع عشر، واكتساحها لكل أرجاء العالم القديم (بما فيه العالم الإسلامي) بالسلاح أو بالأنظمة الإدارية أو المعرفيـــة / التكنولوجيـــة المتطـــورة أو بالاقتصاد أو بكل ذلك جميعاً .

خمسة وعشرون قرناً من الزمان مرت منذ قـــرر الفكـــر الإنـــساني المكتوب – بقلم – أو على لسان الرحالة المؤرخ الإغريقي هيرودوتس في القرن السادس قبل الميلاد – ما كانت التجربة البشرية العملية قد اكتشفته و عملت على أساسه وانتفعت به طوال ما يزيد على ألف سنة قبل أن يقرر الفكر المجرد ما اكتشفته و أكدته التجربة؛ فقد كتـــب المـــؤرخ الجغرافـــي الرحالة صاحب الملاحظات المشهورة : " إن البحر الذي يتوسط الأراضـــي العامرة لا يفصل بقدر ما يصل بين شواطئها و ما وراء الشواطئ " .. و لم يَعْد هذا التعبير أن يكون تجريداً شديد الاختزال لألوان التجارب التي شارك فيها تجار و ملاحون و قراصنة و كهنة و باحثون عن المعرفـــة أو عـــن الثروات و مغامرون وصيادون وتائهون في : " وسط أمواج الأخضر الكبير " على حد التعبير المصري القديم، في تسميته – أو – وصـــفه للبحـــر : " الذي يتوسط الأراضي العامرة " .. اشتركت وتجمعت تجارب هذه الفئات و غيرها ممن ينتمون إلى كل الجماعـــات البـــشرية التـــي نجحـــت – بعـــد استقرارها على أحد تلك الشواطئ و ما وراءهـــا – فـــي ارتيـــاد البحـــر والاتصال بما وراءه، وإذا كان هيرودوتس قد كتب كلماته معتقداً أنه يكشف حقيقة " كلية " ظلت متوارية وراء التجارب الجزئية – قبل اكتشافه لعـــدة

قرون، فإن العلم الحديث - يكتشف - على يد اللغوي المؤرخ مارتين برنال في كتابه: " أثينا السوداء":

أن الحضارة التي شرعت تزدهر على شواطئ شمال شرقي " البحر الذي يتوسط الأراضي العامرة " في مستوطنات هيلاس الإخائية القديمة - كانت في الأصل وليدة عطاء مصري / فينيقي مشترك - تجسد عند برنال في اللغة اليونانية القديمة، مثلما كان قد تجسد عند المؤرخ الكلاسيكي الكبير إرمان رانكة في أساليب المعمار والأدوات و تقنيات النسيج والصباغة ر سبك المعادن، ومثلما تجسد عند مؤرخ الأديان و عالم الدين المقارن صمويل كريمر في " التيمات Themes " الأساسية للأساطير، عطاء ترامى عبر أزمنة تزيد على ما تخيله هيرودوتس بنحو عشرين قرناً كاملة، وكانت "المفاتيح" التي أدت إلى فتح أبواب هذا الكشف هي تلك الإبداعات التلقائية المنبثقة من اللاوعي الجمعي (بتعبير كارل يونج) والمتمثلة في عشرات الأساطير وتحولاتها وتحولات أبطالها وأحداثها تجاوباً مع كل ثقافة نمت وتطورت على جوانب البحر، إضافة إلى تلك التجسدات الأكثر تعيناً متمثلة في ألوف الصياغات ( المفردات ) اللغوية ( يقول برنال أن نحو ٧٠% من المفردات الأساسية المعروفة لليونانية القديمة ذات أصول مصرية وفينيقية ) و أشكال المعمار والأزياء والتقنيات والمعارف والأفكار والتنظيمات الاجتماعية وأساليب العمل.

كان ذلك في عصور الهجرات البشرية المدفوعة بعوامل طبيعية ( رغم أن برنال يذكر العثور على مراكز أو تحصينات مصرية ترجع إلى عصر الدولة الوسطى ٢٠٤٠-١٧٨١ ق.م - يعتقد أنها كانت محطات حراسة وتموين لخطوط ملاحية منتظمة كانت سفنها تبحث وتحمل القصدير لسبك البرونز والأخشاب لبناء السفن و أعمال التشييد المعماري الثقيلة ) . ولم يكن العنف - مهما كان من حدوده الضئيلة - مستبعداً في الحالتين

(الهجرات الجماعية شبه التلقائية، والحملات التجارية ) غير أن نتائج كل منهما كانت باهرة من حيث حصيلة التفاعل الثقافي العميق الأثر، و الدائم عبر حقب تاريخية طويلة .

غير أنه سيكون من السذاجة إذ نتجاهل حقائق التاريخ وما يترتب على التجاهل من عجز عن رؤية الدروب الصحيحة المؤدية إلى استعادة التفاعل الإيجابي بين الثقافات – عن طريق هجرة المعرفة و الخبرات و الاستثمارات، و تبادل المنافع – مادية و معنوية – بشكل منظم و سلمى، بما يضمن نموها المتكافئ و استثمار الوعي بخبرات الماضي وإخضاعها لمنطق العقل البناء، وسيكون من السذاجة أن ننكر أو حتى أن نتجاهل أن صراعات دامية طويلة ومتراوحة النتائج و متبادلة الخسائر المادية و المعنوية على السواء – قد دارت بين الكيانات السياسية – المحلية أو الإقليمية أو الإمبراطورية التي قامت على شواطئ البحر "الذي يتوسط الأراضي العامرة " على مدى التاريخ الحضاري / السياسي المعروف .

ورغم الصواب الثابت لما يقرره – منذ أوائل القرن العشرين – علماء الإنسانيات الموضوعيون الكبار (خاصة في مجالات / التاريخ الثقافي / الحضاري، والتاريخ الاجتماعي وتاريخ الأفكار: من توينبى إلى بروديل، ومن جورج سارتون إلى أحمد أمين وجواد على وعابد الجابرى و أمين معلوف و غيرهم) رغم صواب ما يقررونه عن استمرار – بل تزايد معدلات اتساع وعمق التفاعل الإيجابي بين الثقافات – بشكل خاص – في مراحل الصراع العنيف بين الكيانات السياسية التي انتمت أو تنتمي إلى تلك الثقافات " المتمايزة / المتفاعلة، "رغم ذلك فسوف يكون من السذاجة أيضاً أن ننكر أو أن نتجاهل ما خلفته – و تخلفه – تلك الصراعات من مرارات و أحقاد و تصورات عن " الآخر " قد يحملها أطراف الصراعات القديمة بعضهم إزاء البعض .

تبرز عند هذه " الفاصلة " ظاهرة أو قضية تتخذ أحياناً شكل "التخطيط" المدبر أو التلقائي، استلهمه أصحابه من بعض حقائق التـاريخ الحـديث و المعاصر – هي القضية التي سوف نطلق عليها قضية أو ظاهرة ( أو خطة) إلهاب الصراعات ذات الطابع الديني، أو اتخذت الطابع الديني في العصور الوسطى، بما يمكننا من وصف تلك الخطة أو تـسميتها باسـم: "تـدين" العلاقات بين الكيانات السياسية " القومية " الحديثة، لكـي – أو حتـى – تتحول " العلاقات "إلى صراع بين أديان، يطلقون عليها اسم: " صراع – أو صدام : الحضارات ! " ورغم أننا سنعود إلى هذه النقطة بتفصيل فيما بعد، فإنه من الواجب أن " نتذكر " في هذه الملاحظات التمهيدية أن مـا أطلـق عليه ويل ديورانت – في موسوعته الضخمة عن: " قصة الحضارة " اسم: "عصر الدين " كان هو العصور الوسطى – تقريباً التي بدأت عند ديورانـت بالصراع بين: " قيصر والمسيح " حسب نص تعبيره واستمرت حتى بلغت " حضارة المسلمين " كما يسميها ذراها القصوى في القرن الخامس عـشر، حين بدأ " عصر القو ب " أو حين بدأت العصور الحديثة بتأسيس " دول " تحتوى " الأمم " المتطورة ثقافياً و سياسياً حول كل من "لغـة" كـل منهـا ومركزها في أرض محـددة اللغة بوصفها الوعاء الثقافي الأوثق والأكثـر فعالية وقدرة على استيعاب كل المكونات أو العناصـر الثقافيـة الأخـرى، والمركز السياسي" القومي" بوصفه الوعاء السياسي للبنيـة الاجماعيـة / الثقافية / الاقتصادية المحددة بحدود اللغة ذاتها ومعها الأرض..

فإذا كنا نؤكد أنه من السذاجة أن ننكر أو نتجاهل ما خلفته الـصراعات القديمة ؛ فإننا ينبغي أن نتذكر أيضاً أن الصراعات التي اصطبغت بصبغات دينية، أو ادعت أنها كذلك قد غمرتها أمواج التاريخ منذ أكثر من خمـسة قرون، و أن " الديـــن " أو الاختلاف الديني منذ ذلك الحين لم يعـد ( إن كان أصلاً ) محفزاً للصراع – أو للعنف – إلا إذا استفزه أحدهم، أو إلا إذا

ظل هو المكون الوحيد – وليس مجرد المكون الرئيسي – للبنية الثقافية المتمايزة المتفاعلة " المدفوعة " لسبب ما أو " بفعل فاعل " ما إلى أن تتصارع[١٦].

وعلى ذلك فإنه بقدر ما فرضته التطورات التاريخية الموضوعية التلقائية تقريباً أو تلك التي أثمرها وعى فئات أو أفراد بالذات، بقدر ما فرضته تلك التطورات التاريخية على "الجماعات البشرية " التي تحولت إلى " أمم " ذات ثقافات متمايزة، وأنواع " متعارضة / متماثلة " في آن من الوعي بالذات و – أو – بالآخرين، وبقدر ما فرضته تلك التطورات أيضا من تغير فعلى – و موضوعي – طويل المدى لمنطلقات وأنواع العلاقات بين " الثقافات / الأمم " – و هو تغير يمكن تلخيصه – دون اختزال كثير لمعناه، في سطور للمفكر الأمريكي والت روستو يقول:" لقد آن أن نعى أن تنازع البقاء الذي أملته ظروف النمو عن طريق زيادة استهلاك الموارد من كل نوع، قد انتهى عصره؛ لأننا اكتشفنا ( يقصد: الجنس البشرى) أن ما كنا نظنها الموارد الوحيدة مصدر الثروة هي موارد محدودة من ناحية، ووجدنا موارد لا نهاية لها و غير محدودة من ناحية أخرى، وأن استثمار هذه الموارد – لكي تؤتى نتائجها المرجوة – على النحو الصحيح – يتطلب تبادل الاعتماد، لا تنازع البقاء". [من تقرير لبرنامج الأمم المتحدة للتنمية U.N.D.P – رقم ٢٠٨٧ – عام ١٩٧٤ ] .. بقدر هذا التغير، فإن استعادة – أو إقامة – التفاعل الإيجابي المتكافئ بين " الثقافات / الأمم "و تحويله إلى تخطيط مدروس واعٍ بأهدافه – التي يتصدرها هدف الأمن و النمو المتكافئين لجميع الأطراف، بعيداً عن كل من التعصب العدواني والتوسع الأناني.. لم يعد متاحاً – بفضل تزايد الوعي النقدي بكل خبرات

---

[١٦]- المرجع السابق.

الماضي المتوارثة لدى كل الأطراف – فحسب، وإنما أصبح أيضاً ضرورة تفرضها عوامل " تبادل الاعتماد " المادي والمعنوي – الموضوعية المتنوعة، العوامل التي أفرزها تاريخنا المشترك نفسه، على كلى شواطئ هذا البحر ( وذلك المحيط إلى الغرب من بحرنا القديم ) اللذين يتوسطان الأراضي العامرة.

وقد أدت أحداث ١١ سبتمبر في نيويورك وواشنطن – إلى تجديد الاهتمام والحوار حول فكرة " صراع الحضارات " التي كانت قد بدأت تفقد أهميتها الفكرية والسياسية - بل والاستراتيجية، بعد أن كانت قد أثارت زوبعة " فكرية / سياسية " قصيرة العمر على مدى عامين فحسب بعد أن طرحها الباحث الإستراتيجي الأمريكي صمويل هنتينجتون في مقاله المشهور بمجلة : "فورين أفيرز " الأمريكية في صيف عام ١٩٩٣ . وكان المقال فصلا من مشروع بحثي بعنوان : " حول الإطار الأمني المتغير والمصالح القومية الأمريكية " – أجراه معهد إيلون للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد – ثم قام هنتينجتون بتوسيع المقال وتحويله إلى كتاب .

كانت تلك الزوبعة قد انتهت – في الظاهر على الأقل – بفضل عاملين رئيسيين متضافرين، فكرى وسياسي، تمثل العامل الفكري في موجات نقد ودحض أو تقويض فكرة هنتيجتون، وهى موجات انبعثت من معظم مراكز الإنتاج الفكري – الأكاديمية و الصحفية وغيرهما – في الولايات المتحدة ذاتها وأمريكا اللاتينية وأوروبا وأفريقيا وفي العالم العربي وآسيا على اتساعها، وتمثل العامل السياسي في المساعي الإيجابية – والتي حظيت بدرجات متفاوتة من النجاح – لاستعادة أو لإقامة جسور التواصل الثقافي والتبادل الاقتصادي بين أطراف عديدين كان هنتينجتون قد وضعهم في خنادق متعادية متجابهة استناداً إلى كل من تصوراته الخاصة عن مسارات التاريخ – التي تحكم دون أي قيد مسارات المستقبل، وعن مصالح الغرب –

الأمر الذي جعل مفكرين وفلاسفة واستراتيجيين بارزين في الغرب نفسه (كان من أبرزهم انجمار كارلسون – مدير التخطيط السياسي بوزارة الخارجية السويدية في مقال نشره بالمجلة ذاتها عام ١٩٩٤) – يؤكدون أن هنتينجتون قام بصياغة تصور فلسفي زائف لتاريخ العلاقات بين " ثقافات / حضارات " العالم الكبرى؛ لكي يبرر مخططاً استراتيجياً عدوانياً أراد أن يقنع الحكومة الأمريكية بأن تتبناه. يشهد على ذلك تناقض "الخطوات العملية " التي اقترحها في ختام بحثه حتى يضمن الغرب انتصاره النهائي الحضاري / الإستراتيجي – تناقض تلك الخطوات مع أسس تصوره الفلسفي المزيف ذاته عن تاريخ ومستقبل العلاقة الصراعية بين ما أسماه " الحضارة الغربية" و:" الحضارات غير الغربية ".

ولعل أوضح تناقض – بين فكر هنتينجتون وبين اقتراحاته العملية، هو التناقض بين اعتباره روسيا السلافية / الأورثوذوكسية " غير غربية " و غير مهيأة للاندماج في الغرب (اللاتينو / جرماني – الكاثوليكي – البروتستانتي) وصاحب تجارب الإصلاح الديني والنهضة والتحديث الليبرالي الصناعي، وأن روسيا " معادية للغرب في جوهرها، التناقض بين اعتباره روسيا بهذا الشكل، و بين دعوته العملية للغرب إلى " احتواء روسيا " واستقطابها لمحاصرة العالم الإسلامي و عزله عن الصين الكونفوشيوسية.

تجدد الاهتمام بفكرة ( فلسفة ؟ خطة تحريضية، تصور جيوستراتيجى عدواني،) صمويل هنتينجتون على مستويات و في اتجاهات متعددة بسبب ما انتجته أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في نيويورك وواشنطون – من ردود فعل " كلامية " أو "عملية " بدءاً من إسراع "الميديا " ثم دوائر المسؤولية العليا – التنفيذية و التشريعية – في غالبية الدول الغربية إلى تعميم الاتهام

الموجه إلى شخص واحد وجماعتـه – لكـي يـشمل عمـوم المـسلمين بمجتمعاتهم ودولهم، و"الحضارة / الثقافة " الإسلامية بأسرها .

ومع ذلك فقد يكون من المهـم ( أكثـر منـه واجبـا مـن واجبـات الموضوعية) أن نتذكر أن أفرادا و جماعات ينتسبون إلى " الحـضارات / الثقافات غير الغربية " يعربون بدورهم عن أفكار مشابهة يطلقونها مـن " خنادقهم " أو من كهوفهم الخاصة؛ فتشهد هذه الأفكار بدورها على إمكانية بقاء أنواع من العقليات أسيرة لأساطير لا تصلح لتفسير العالم أو للتعامـل معه، أو لأهواء أيديولوجية متجددة يؤكد الإفصاح عنها افتقار أصحاب تلك الأفكار إلى الوعي المعرفي بجوهر ثقافاتهم ذاتها، وبحقائق العـالم الـذي يعيشون فيه الآن – والذي عاشته الثقافات الإنسانية كلها – علـى مـدى تاريخ طويل حافل بالتفاعل وتبادل الأفكار والتصورات والعقائد والأساليب، مع تبادل " السلع " أو قبله وبعده، وبين هؤلاء – كما نعرف من ينتمـون إلى الثقافات البوذية أو الكونفوشيوسـية أو الهندوسـية أو المـسيحية أو الإسلامية، ومنهم من يلجأ إلى الإرهاب فعلا بالغازات السامة كما حدث في اليابان قبل وقت قصير، أو إلى الإبادة الجماعية – أو التطهير العرقي على يدي " دول " كما حدث في البوسنة أو في بوروندي أو كما يحدث للآن في فلسطين أو بالإرهاب المنظم كما يحدث في ايرلندا – وإنجلترا، أو بالصورة التي عرفناها في مصر أو الجزائر – بالصورة التي يمثلها شخص مريـب التكوين والسيرة[١٧].

كل هذه الأقوال و الأفعال وردود الفعل – من جانب سياسيين و مفكرين ومغتصبي أوطان ومتهوسين ومجرمين – تؤكد حقيقة كبرى تكتسب فـي " عصرنا " أهمية متزايدة، مؤداها أن مسألة العلاقة بين ثقافات (حـضارات)

---

[١٧]- (أسامة بن لادن نفسه ومعاونوه أو حلفاؤه)

العالم الإنساني، في صورها المتتالية أو المتزامنة - صراعات كانت أو تفاعلات أو مجرد حوار بين كيانات متمايزة، هي مسألة واقعية، فعلية، قبل أن تكون قضية فكرية أو نظرية، ثم إنها مسألة ذات تأثير بالغ الخطورة على الجماعة الإنسانية ككل بحيث لا يمكن تجاهل أهمية التعامل الفكري مع " فعليتها " الواقعية ومع خطورتها من منطلق آخر غير منطلق التبرير للعدوان أو للتوسع الذي اكتشفه كل من تعامل مع صياغة صمويل هنتينجتون. (١٨)

إن الانشغال بمسألة العلاقة بين الحضارات كانت - و ما تزال - مسألة مطروحة على الفكر الاجتماعي / الثقافي السياسي بمختلف انتماءاته و توجهاته في العالم، منذ عام ١٩٤٩، على الأقل - وذلك من خلال ما توضحه أنشطة (مؤتمرات ) المنظمة الدولية للتربية و الثقافة والعلوم ( اليونسكو )، ففي نوفمبر من عام ١٩٤٩ اجتمعت بمقر اليونسكو " لجنة الخبراء في الدراسات المقارنة للحضارات" و وضعت تقريرها الذي يؤكد بالنص "أن مشكلة التفاهم الدولي هي مشكلة علاقات بين حضارات، ومن هذه العلاقات يجب أن يظهر مجتمع عالمي جديد على أساس من التفاهم و الاحترام المتبادل، ويجب أن يتبنى هذا المجتمع (العالمي) نزعة إنسانية جديدة بحيث تتحقق فيه العالمية من خلال الاعتراف بالقيم المشتركة في الحضارات المختلفة(١٩).

و في أغسطس عام ١٩٥٤ عقد اجتماع دولي فكرى آخر، وفي الشهر التالي من العام نفسه عقد في جنيف اجتماع ثالث كان موضوعه: " العالم

---

(١٨)- سامي خشبة، "دعم الحوار المرجع السابق.

(١٩)- السيد ياسين" مؤتمر "صراع الحضارات أم حوار الثقافات " المنعقد في القاهرة في أكتوبر ١٩٩٧ وبإشراف منظمة تضامن الشعوب الأفروآسيوية .

الجديد وأوروبا "، وفي عام ١٩٥٧ عقد في جنيف أيضاً اجتماع رابع لبحث موضوع " أوروبا والعالم اليوم " تذكرنا رؤوس الموضوعات أو عناوين تلك المؤتمرات وتواريخها بأن تلك السنوات كانت مرحلة تصاعد و انتصار حركات التحرير الوطني في آسيا و أفريقيا والعالم العربي، وحركات النزوع إلى الديموقراطية و العدل الاجتماعي – مع التحرر الوطني أو القومي – في القارات "الفقيرة " الثلاثة، وكان لابد لأوروبا – أو لمفكريها و خبرائها و علماء الاجتماع السياسي والثقافي فيها على الأقل قبل " ساستها " ومخططي البرامج والسياسات الإستراتيجية فيها – وإلى جانبهم – كان على أوروبا حين ذاك – أن تبحث مصير علاقتها مع شعوب ودول تلك القارات – وأساسها هي العلاقات " الحضارية / الثقافية " التي تحدد مصائر و توجهات العلاقات الأخطر والأعمق تأثيراً : أي العلاقات الاستراتيجية ( في عالم ثنائي القطبية – عالم الحرب الباردة ) والصراع الأيديولوجي بين الشيوعية و بين الرأسمالية، بصرف النظر عن الحقيقة الاستعمارية لكل من دول الكتلتين الكبرى على الأقل، هذا الصراع الذي سرعان ما فرضت عليه حركة التحرر الوطني في العالم الثالث على اتساعه أن يكون "صراعاً " ثلاثياً تلعب فيه النزعة " القومية الوطنية " دور اللاعب "العالمي " الثالث .

غير أن السيد ياسين نبهنا إلى نوع – واتجاه – الوعي الذي ساد تلك الاجتماعات، والتي وإن لم يتضح لنا مدى مشاركة فكر هذا اللاعب الثالث – القومي / الوطني المعبر عن ثقافات العالم الثالث – غير الغربية – في صياغة ذلك الوعي، يقول السيد ياسين:" و منذ البداية كان هناك وعي بإشكالية العلاقة بين الثقافة و الواقع الاجتماعي – الاقتصادي و السياسي، وخاصة العلاقة بين التكنولوجيا والقيم التقليدية في العالم الثالث."

لم يكن صمويل هنتينجتون – إذن – هو الذي بدأ انشغال فكر العالم و قراراته السياسية والإستراتيجية بمسألة العلاقات بين الحضارات، وإنما كان الواقع التاريخي الفعلي هو ما فرض ذلك الانشغال.

وتحتل وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية ( الميديا ) المكان الأول، وتلعب الدور الرئيسي في حمل خطاب كل من الطرفين و توصيله إلى " هدفه " المفترض، إما إلى جمهور من المتلقين تفترض إدارات تلك الوسائل أنه يتلقى بثها (رسالتها ) وينتظرها، غير أن رسالة كل من الطرفين تخضع في وقت واحد لكل من درجة تعقيد Sophistication وتطور "الثقافة" التي تنتمي إليها والرؤى التي تحكمها أو تنطلق منها والمناهج الفكرية التي تستند إليها بشكل تلقائي أو بصورة واعية، كما تخضع أيضا لطبيعة " وسائل الإعلام والاتصال الجماهيرية " – أي الميديا – الحديثة التي تفرض على محتوى "الرسالة" قدراً كبيراً من الارتباط بالمقولات والرؤى "الاجتماعية / السياسية " الشائعة والتي تتخذ غالبا طابعا " شعبويا تقليديا، فالميديا تتجه أساسا إلى " الجماهير " التي تستخدم اللغة ذاتها؛ ولأن الميديا تلعب في العلاقة مع " الآخر " دور "حشد" أو " تعبئة " الرأي العام في اتجاه بعينه (من خلال رسائل تختلط فيها " الأخبار " بالآراء، و حيث قد يكون الهدف من تقديم " تحليل " للأحداث الجارية بلسان شخصية بعينها هو " كشف " هذه الشخصية – أو التيار الذي تتحدث باسمه – أو إبرازها أو تقديمها في إطار مقصود بعينه)، لأن هذا هو دور الميديا في تلك العلاقة مع "الآخر " الحضاري – سواء كانت صياغة العلاقة صياغةً صراعية أو صياغةً حوارية، فإن الاهتمام الرئيسي ينبغي أن يتركز على الارتباط الرئيسي بين "الميديا " و بين " الثقافة " التي تنتمي إليها ورؤى تلك الثقافة ومناهج إنتاجها، ذلك أن ثقافة كل من الطرفين و درجة تعقيدها و تطورها ( و قدرتها على معرفة "الآخر" و توظيف تلك المعرفة

بالتالي وقدرتها - بالتالي أيضا على توظيف " الميديا " نفسها لخدمة أهدافها الحقيقية ) هي - تلك / الثقافة - ما تسيطر على "الطبيعة" الشعبوية للميديا ودورها "التعبوي" من ناحية، وهي ما تحدد إمكانية تطوير دور الميديا وتوسيعه، لكي يتحول إلى دور الحامل للثقافة المتطورة أو حامل "المعرفة" و" الفكر" العقلاني معاً بدلا من اقتصاره على دور الداعية أو المحرض[٢٠].

عوامل عديدة ومتباينة تساعد " الخطاب " الغربي بمختلف تشكلاته وألوانه - مع وحدة أهدافه غالبا - على الوصول إلى " الجماهير " العربية والإسلامية، إما بشكل مباشر، وحتى عن طريق اللغات الغربية الرئيسية (الإنجليزية أساسا و الفرنسية) وإما بشكل غير مباشر (من خلال اعتماد الكثير من الخطاب العربي / الإسلامي على مواد معلوماتية وفكرية أنتجتها الصناعة الغربية الإعلامية والثقافية )، وقد يكون هذا الوضع هو ما يبرر إلى حد كبير الطابع الدفاعي للخطاب العربي / الإسلامي؛ فالخطاب الغربي بوسائطه المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية - يعتمد على إنتاج كثيف للثقافة الغربية - بمجموع أجهزتها وعلى طول التاريخ الحديث على الأقل - من "المعرفة" بالمجتمعات العربية/الإسلامية و "ثقافاتها " - بكل المعاني الأنثروبولوجية و الاجتماعية والأكاديمية لمصطلح" الثقافات " وهي معرفة هجومية الطابع وانتقادية ( إن لم تكن عدائية ) تفرض " الدفاع " من الطرف العربي الإسلامي.

وفي المقابل يغلب أن يعتمد الخطاب "العربي / الإسلامي" بمختلف مستوياته على معرفة بالغرب - سياسيا و اجتماعيا و ثقافيا - مستمدة من تعريف الغرب ذاته لنفسه، وعلى معرفة بتاريخ وتطور العلاقة الحضارية

---

[٢٠])- سامي خشبة، "دعم الحوار مرجع سابق.

الشاملة – بين الطرفين، أنتجها – أو أنتج معظمها – الغرب أيضا، إن هذا الوضع " المعرفي " للخطاب العربي/الإسلامي – ناهيك عن الوضع "السياسي / الإستراتيجي / الحضاري " العام، هو ما يشكل العامل الأكبر في دفع الخطاب العربي/الإسلامي إلى اتخاذ مظهر الخطاب "الصراعي " مع " الآخر " رغم محتواه الحواري.

غير أننا نستطيع – إذا تفحصنا تكوين " وسائط " الخطاب الغربي من جانب، ثم تكوين وسائط خطابنا العربي/الإسلامي من جانب آخر – نستطيع أن نطرح تصوراً لدعم نوع من الحوار الإيجابي بين الطرفين؛ فرغم أن وسائل الإعلام و الاتصال الجماهيرية ( الميديا ) المقروءة و المسموعة والمرئية، هي الوسيط الرئيسي في إدارة " الحوار / الصراع " من جانب الخطاب الغربي؛ فإن هذا الوسيط يتواكب، و يتصل بمجموعة متناسقة و متفاعلة من مكونات الصناعة الثقافية / المعرفية لمجتمعات الحضارة الغربية، وهي مكونات تشمل منتجاتها كتابات أكاديمية (تنشرها دور النشر الخاصة الكبرى و تلك التي ترتبط بالجامعات وغيرها من مؤسسات البحث الأكاديمي) وكتابات ثقافية من الوزن الثقيل، وإن كانت جماهيرية الطابع بما فيها من أعمال فكرية و إبداعية، وأعمال تمزج بين التخصص والجماهيرية، وإن كانت تتجه أساساً إلى الجمهور "المثقف"، ونرى نماذجها الرئيسية في بحوث المؤتمرات "العلمية" والمحاضرات العامة التي تعقدها معاهد وجمعيات ترتبط بمؤسسات تعليمية أو سياسية (حزبية) أو دينية (كنائس) و أحيانا بمؤسسات اقتصادية ذات مصالح متشعبة تدفعها إلى الارتباط بعناصر تكوين المجتمع المدني المختلفة في بلادها و في بلاد أخرى، ويرى بعض الباحثين المعاصرين في الغرب وفي العالم العربي/الإسلامي على السواء – مثل يورجين هابرماس أو فريدريك جاميسون، أو السيد ياسين أو محبوب الحق وغيرهم – أن جميع هذه "

المكونات " الداخلة في التكوين العام للخطاب الغربي، هي من إنتاج مؤسسات تنتمي بشكل أو بآخر إلى ما يسمى " المجتمع المدني " المعاصر، وحسب التعريف الليبرالي للمجتمع المدني (المختلف كيفياً عن تعريف أنطونيو جرامشى، مبتكر هذا المصطلح أو صائغه الأول).

إن هذه "المؤسسات" هي ما ينبغي في تصورنا أن يتجه إليها الخطاب "العربي /الإسلامي " في المقام الأول؛ فإنتاجها هو ما يعيد الخطاب الغربي الإعلامي/السياسي "إنتاجه" في صورة جديدة، تسيطر عليها طبيعة " الميديا " ذاتها و التوجهات السياسية/الاستراتيجية التي توظفها، وفيما يخص العلاقة مع "الآخر" الإسلامي/العربي، فإن إنتاج تلك المؤسسات انشغل – قبل أحداث ١١ سبتمبر بسنوات في الحقيقة، وربما منذ عام ١٩٧٤ على الأقل – بإعادة دراسة المجتمعات الإسلامية/العربية وثقافاتها، وتقييم دورها (وطموحاتها) على مختلف الأصعدة، وهذا هو الإنتاج الذي ينبغي أن ينشغل خطابنا الإعلامي/الثقافي بمعرفته والحوار معه مستنداً إلى إنتاج "صناعتنا/الثقافية" الثقيلة، ولابد أن نضع في اعتبارنا أن الإنتاج الثقافي[٢١] والفكري لتلك المؤسسات هو في الواقع ما يصوغ "التصورات الفكرية" السائدة في المجتمعات الغربية – الليبرالية – وهى مجتمعات تتكون – في جوهرها – من "وحدات" مدنية تتجسد وتتمثل في مثل تلك المؤسسات وفيما تملكه من وسائل اتصال.

في المقابل لابد من الاعتراف بأن عوامل عديدة تقلل – إن لم تمنع تماماً – قدرة وسائل الاتصال والإعلام العربية/الإسلامية على الوصول إلى "الجماهير" في الدول والمجتمعات التي تنتمي إلى الحضارات الأخرى، وبوجه خاص إلى جماهير/مجتمعات ودول الحضارة الغربية، ناهيك عن

---

[٢١])- المرجع السابق.

"التأثير" في تلك الجماهير، وليست " اللغة " المنطوقة أو المكتوبة هي العائق الرئيسي كما يتخيل البعض (هذا إذا كان استخدام إحدى اللغات الرئيسية للحضارة الغربية أو عدم استخدامها يمثل عاملا له أي وزن عل الإطلاق في هذا الصدد)؛ فالجماهير تتوجه إلى وسائط " الميديا – الأخرى " إذا كانت بحاجة إليها لكي تشبع احتياجاً خاصاً أو "فضولاً " من أي نوع: معرفياً أو ترفيهياً، وفي هذه الحالة وحدها تلعب " اللغة " الطبيعية المستخدمة دورها، إيجابيا أو سلبيا.

من جانب آخر فإن "الخطاب الثقافي/الإعلامي "العربي/الإسلامي، يبدو مشغولا أساساً إما بمخاطبة جماهيره " المحلية " مما يلجئه إلى لغة دفاعية / صراعية في وقت واحد، أو بمخاطبة "المسؤولين السياسيين " في مجتمعات ودول الحضارة (الحضارات ) الأخرى، رغم أن أحداً لا يشك في أنهم إما سيكونون ملتزمين بالخطوط الرئيسية (وأحياناً بالخطوط التفصيلية) لثقافاتهم "الرسمية " أو سيكونون عناصر فاعلة في إنتاج تلك الثقافات الرسمية (التوجهات، المصالح ) بأنفسهم أو من خلال المؤسسات المدنية التي ينتمون إليها (الأحزاب، الكنائس، الجمعيات أو الاتحادات النقابية والمهنية .. الخ )، بينما يتجاهل الخطاب الإسلامي/ العربي – تجاهلا كاملا تقريبا – ما تنتجه مؤسسات " المجتمع المدني" في الغرب من خطاب متنوع، ومختلف، غالبا ما تتجاهله " الميديا " الغربية ذاتها.

ومن جانب ثالث فإن الخطاب الثقافي/ الإعلامي، العربي/ الإسلامي، يبدو معزولا بنسبة كبيرة عن الإنتاج المعرفي الأكاديمي و العلمي الجماهيري الطابع، المتطور والنقدي الذي تنتجه مكونات " الصناعة الثقافية " المتطورة الثقيلة في مجتمعاتنا العربية/ الإسلامية ذاتها: الجامعات، مراكز البحوث والدراسات، الجمعيات الأهلية – العلمية – المتخصصة، المجالس والمراكز القومية المعنية وذلك على رغم أن هذا

الإنتاج – بالتحديد – هو ما ينبغي أن ينظر إليه باعتباره الأساس، أو المنطلق الرئيسي للحوار الثقافي/ الحضاري الإيجابي، مع أنفسنا (الحوار مع الذات) ومع الغرب بشكل خاص، ومع بقية الحضارات/ الثقافات المختلفة (الحوار مع الآخر) .

في ضوء الخصائص المؤكدة لعصرنا والتي تتنامى وتزداد تأكيدا باستمرار، خصائص الثورة المعرفية/ التكنولوجية والثورة الاتصالية، وتحول العولمة الاقتصادية إلى التهديد بنوع من العولمة الثقافية التي تخدم العولمة الاقتصادية من ناحية وتفرض التفكيك الاجتماعي/ السياسي من ناحية أخرى، وتتخذ طابع الهجوم الصراعي من جانب الكيانات السياسية للطرف "الحضاري" الأقوى اقتصادياً وتكنولوجيا و الأكثر تماسكا من النواحي السياسية/ الاجتماعية؛ مما ينتج بالضرورة – كرد فعل له، عند الطرف الآخر – ونحن أكبر مكوناته والهدف الرئيسي للهجوم فيه حتى الآن – الطابع الدفاعي مع الرغبة في " التحوصل " والانغلاق على الذات، في ضوء تلك الخصائص – وبعد كل ما سبق، يمكننا أن نحدد ثلاثة محاور رئيسية وعامة للتفاعل الحضاري/الثقافي بيننا و بين " الآخر الحضاري " في المرحلة التاريخية الراهنة وما يتلوها على الأقل: [٢٢]

- محور التفاعل التلقائي، من خلال و في شكل تبادل " السلَع " الكمالية والضرورية، الترفيهية و النفعية، والفنية والمعرفية، مع أساليب الحياة و التفكير والعمل وهو ما يخضع في نظريات الاجتماع الثقافي والانثروبولوجيا الثقافية لما تسمى بـ: "نظرية الانتشار diffusion " .

---

[٢٢]- المرجع السابق.

- محور التفاعل الموجه، من خلال " الخطاب المصنَّع"، حامل رؤى وتوجهات القوى الحاكمة في الكيانات السياسية (الدول) أو الاقتصادية ( الشركات وما في حكمها) والموجه إما إلى القوى الحاكمة المناظرة في الكيانات المقابلة، أو إلى "الجماهير" التي يتجسد فيها " الرأي العام " سواء في الداخل أو في الخارج، وهو ما يخضع في النظريات ذاتها لما تسمى: نظرية التثاقف أو الاستيعاب الثقافي acculturation .

- محور التفاعل العالِم، المنضبط منهجياً والواعي بكل من الذات والآخر، وعياً مشبعاً بموروثات – و مكتسبات – الذات الحضارية / الثقافية/ السياسية، أو لأي منهما أو لكل منهما معاً .

وعلى الرغم من التداخل الضروري – في الواقع العملي – الذي يحدث دائما بين هذه المحاور الثلاثة، فإن تزايد فاعلية قوى العقلانية، والوعي بضرورات (وبمنافع) تبادل الاعتماد، بدلا من تبادل النَّفْي والاستبعاد والرغبات اللاعقلانية للمحو والإبادة أو للهيمنة، تؤدى إلى تزايد التأثير الذي يمارسه المحور الثالث، حتى على المحورين الأولين، وعلى مجمل مسار التفاعل، غير أننا لابد أن نتوقع ألا يكون لهذا المحور الثالث مثل ذلك التأثير إلا من خلال وعى من يمثلونه – من الجانبين وعملهم على تفعيله، خاصة مع تزايد التأكيد على المحورين الأول والثاني تحت تأثير أو بفعل تزايد قوة عوامل "فرض" العولمة (الاقتصادية/ الثقافية) وما يصاحبها – ويلزمها من كسب مواقع استراتيجية قوية تكفل تسهيل عملية "السيطرة" على هذين المحورين الأولين.

تبدو المهمة الرئيسية إذن، في سبيل دعم الحوار الإيجابي و المثمر بين "الثقافتين/ الحضارتين" – محصورة في إطار تنشيط التفاعل العالِم،

المنضبط منهجيا والواعي بكل من الذات والآخر وعياً لا يمكن أن يكون إلا مشبعاً بموروثات ومكتسبات "الذات الحضارية" ونقديا لكـل منهمـا معـاً، وتنشيط أو تفعيل تأثيره على الأصعدة التفاعلية الأخرى[٢٣].

نحن نحتاج من جانبنا إلى تعميق و تعميم معرفتنا الموضوعية والنقدية بـ "ذاتنا الحضارية" لتجديد خطابنا الفكري في كـل تجلياتـه: السياسية والدينية والقانونيـة والاجتماعية والفنية، في ذات الوقت الذي نحتاج فيه إلى تعميق وتعميم معرفـة موضوعية و نقدية بـ " الآخر الحضاري"، ولا سبيل لذلك إلا من خلال تدعيم دور مؤسسات الإنتاج الثقافي المدنيـة: الأكاديمية والبحثية والدينية و السياسية، بكـل مستوياته وتخصصاته ومجالاته وتدعيم التفاعل فيما بينهـا، ضمانا للتفاعـل بـين المـوروث والمستجد، بين النقل والنقد، وبين "إعادة الإنتاج" والإبداع، وبين مـا هـو "ذهني" أو "روحي" و بين ما هو اجتماعي، تاريخي واقعي، يلحق بـذلك – ويستتبعه بالضرورة – توثيق علاقات " الحوار " والتفاعل مع المؤسسات المناظرة في الكيانات السياسية للآخر الحضاري: إن الحوار الأكثر إيجابية – و تأثيراً في النهاية – هو الحوار بين منتجي الثقافة الأحرار، الذين ينبع التزامهم من الانتماء الفطري والحر، وهو ذاته نوع الانتماء الذي يـضمن التأثير على مستويات ومحاور التفاعل الحضاري/ الثقافي الأخرى المختلفة.

## الحركات الإسلامية المتباينة مع الآخر:

اختلاف واضح في النظر للحركات الإسلامية، ولعل السبب في ذلك هو أن هناك مرجعية واحدة لكل الحركات الإسلامية التي تتكون مـن القـرآن الكريم والسنة النبوية والفكر الإسلامي والتجربة التاريخية، فعلى الـرغم من وجود هذا القدر من الاتفاق إلا أن هناك اختلافا في فهمها وفي ترجمة

---

[٢٣])- سامي خشبة، "دعم الحوار مرجع سابق.

أهدافها على أرض الواقع، وربما يكون هذا أهم الأسباب في وجـود مـا يطلق عليه " اعتدال وتطرف " أو ما ينتج من ذلك " معتدل ومتطرف " فـي الأدبيات التي تتعامل مع الإسلام والحركات الإسلامية، وهناك من لا يـرى أن هناك فارقا بين ما يُدعى " بالمعتدل " و" المتطرف "، يـرى د. مـاهر الشريف[٢٤] في دراسة له عن مفهوم الاختلاف بـين الإصـلاح الـديني والإسلام السياسي أن لا فرق بين " معتدل " و" متطـرف " فـي الإسـلام السياسي"، إن التنكر لمبدأ قبول شرعية الاختلاف هو الذي قبع إذن في قلب انقلاب محمد رشيد رضا وقطيعة الإسلام السياسي ممثلاً بجماعة " الإخوان المسلمين "، وقد بين لنا هذا البحث أن حسن البنا وسيد قطب قد تـشاركا في رفض الإقرار بشرعية الآخر - المختلف، الأمر الذي يجعل من خطاب الثاني - أقله تجاه هذه المسألة المفتاحية - امتداداً لخطاب الأول، ويزكي، إلى حد كبير، وجهة النظر القائلة بأن الفارق بين النمطين " المعتدل " و" المتطرف " في خطاب الإسلام السياسي هو " فارق في الدرجة لا في النوع " وأحد أوجه النقد الموجه لهذه الرؤية، هي أنهـا تنطلـق مـن منظـور أيديولوجي وسياسي يطغى على المنظور المعرفي، فمـثلاً الخـشية مـن استمرار فقدان المواقع تفرض عدم التفرقة بين الإسلاميين لكي يتم ترهيب وتخويف الناس من الإسلاميين بتعميم نموذج معين لديه ممارسات عنفيـة أو أفكار متطرفة، ولعل ما حدث في الانتخابات التشريعية المغربية الأخيرة مثال واضح حيث روج بعض خصوم التيار الإسلامي في المغـرب مـن أن هناك وجود لتنظيم القاعدة في المغرب الذي قد يستدعي أن يكـون هنـاك طالبان في المغرب، أو أن تكون هناك " جزائر أخرى " إن فاز الإسلاميون في المغرب، وكل هذا من أجل إيقاف صعود الحركات أو الأحزاب الإسلامية

---

[٢٤])- ماهر الشريف، رهانات النهضة في الفكر العربي، دمشق : دار المدى للثقافة والنشر بالتعاون مع مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ط بدون، عام ٢٠٠٠م، ص ١٣٨.

في الانتخابات، إذن هذا النقد جزء من الصراع بين التيار الإسلامي والتيارات الأخرى، وهناك من يخالف هذه الرؤية ويدعو ليس للتفرقة بين الإسلاميين بل يدعو للعمل معهم - ولها محلها من النقاش -، وأيضاً تدل رؤية عدم التفرقة بين معتدل ومتطرف في الحركات الإسلامية على أن هناك عدم ملاحظة التغيرات التي طرأت على فكر الحركات الإسلامية بوجه خاص والفكر الإسلامي الحديث بوجه عام، فهناك تغير في مضمون الفكر الإسلامي الجديد مقارنة بالفكر الإسلامي المعاصر، والذي انعكس على فكر الحركات الإسلامية.

ويقصد بالفكر الإسلامي الجديد هو الفترة منذ النصف الأول من العقد التاسع من القرن الماضي حتى اللحظة الراهنة[٢٥]، وبالتالي إغفال هذه النقطة المحورية قد تنتج نتائج غير دقيقة في دراسة الحركات الإسلامية المعاصرة والجديدة، صحيح أن هناك امتداد لبعض أفكار العقود الماضية ولكن ليست هي الوحيدة بل أن هناك تغيرات أيضاً، وبالتالي لو تم استخدام نماذج حديثة للتدليل سلباً أو إيجاباً على أن هناك فارق بين الحركات الإسلامية المعتدلة والمتطرفة لكان أفضل .

هناك من يرى أن هناك فارق بين إسلامي وآخر، و نبدأ بطرح وجهتين تؤيدان ذلك : الأولى من خارج الحركات الإسلامية والأخرى من داخل الحركات الإسلامية، وقبل الحديث يلزم التنويه أن الفارق بين إسلامي وآخر ينطبق عليه الحديث من أن هناك فارق بين حركات إسلامية وأخرى، وبالتالي سواء استخدمنا في هذا المقطع القادم من الدراسة إسلامي أو حركات إسلامية فإن النتيجة واحدة .

---

[٢٥])- زكي الميلاد، الفكر الإسلامي الجديد، ملامح وقضايا، مجلة الكلمة، تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، ع ٢٣، ربيع ١٩٩٩م / ١٤٢٠هـ ، ص ٨٧.

ففي الأولى، يرى محمد جمال باروت أن هناك اختلاف بـين خطـابي الإخوان المسلمين والخطاب التكفيري حسب تقـسيمه " تتحـدد إشـكالية الخطاب " التكفيري " الذي تبنته الجماعات الإسلامية الجهادية، في " تكفير " المجتمع، مما جعل الأسلوب الحركي المطابق لتغيير " المجتمع الجاهلي " ( النعت التكفيري للمجتمع المدني ) "المرتد" و "الكافر" أسلوباً " انقلابيا "، وذلك مقابل الخطاب " الإخواني "، الذي يقر بإسلام الأمة، ويتعايش مـع المجتمع، ويجتهد في استيعابه إسلامياً على نحو ما، مما جعل الأسـلوب الحركي المطابق لهذا الخطاب، أسلوباً " إصلاحياً " يقبل الأسلوب الحركـي داخل الأطر المدنية الحديثة .

وبهذا المعنى يندرج الفرق مـا بـين الأسـلوبين " الإصـلاحي " و " الانقلابي " على مستوى العمل الحركي الإسلامي، ما بين " جماعة دعوة " تتوخى إصلاح المجتمع بـ " الحكمة والموعظة الحسنة " و " جماعة جهاد " تتوخى قلبه بالعنف و " تعبيده " لله، هما نظام الخطـاب " الإخـواني "، ونظام الخطاب " التكفيري "، تحكم ما بينهما آلية القطيعة لا آلية التواصل والاستمرار، بمعنى أن مرجعية الخطاب "التكفيري" لا تتأسس على الخطاب " الإخواني"، من هنا يبدو الخطاب " التكفيري " وكأنه يـنقض الخطـاب " الإخواني " حرفاً حرفاً، مقوّضاً نظام مفاهيمه برمته"[٢٦].

وفي الثانية، نجد أن من يتبع اللقاءات الصحفية والآراء التي أبـداها سواء أفراد الجماعة الإسلامية أو من الإخوان المسلمين في مبادرة وقـف العنف على سبيل المثال يرى أن هناك اختلاف فيما بينهما رغم أنه تقاربت رؤيتهما لمسألة العنف، فالجماعة رغم هذه المبادرة ترى أنها لا يمكن أن تكون الإخوان المسلمين كما هو حال حمدي عبد الـرحمن القيـادي فـي

---

[٢٦])- المحرر، الحركات الإسلامية الراهنة، مجلة يثرب الجديدة : ٢٠٠١ ع١ السنة٣ ، ص ١٨٣ .

الجماعة الإسلامية في مصر " يردد البعض أن الجماعة الإسلامية أصبح فكرها قريباً من فكر جماعة الإخوان المسلمين المحظورة، وأنكم ستدخلون تحت عباءتها أو هم يدخلون تحت عباءتكم، أم تبحثون عن صيغة مشتركة للعمل ؟ !

بكل قوة يرد حمدي عبد الرحمن: الجماعة الإسلامية تعمل ككيان واحد، ومستقل، ولها فكر متميز، وتاريخها يختلف عن الإخوان في الكثير من المواقف والأيديولوجيات والاتجاهات، وبالنسبة للنقطة الأولي فالمبادرة أكبر دليل علي أن الجماعة بعد صدام مع السلطة استمر نحو ربع قرن، صوبت أخطاءها وعدلت في بعض الأفكار غير المطابقة للشرع، وكان لدي قيادات الجماعة الشجاعة الأدبية والقدرة علي الإفصاح عن ذلك بشكل علني وملموس، والهدف واضح من هذا الموقف لتحمي الأجيال المقبلة من التردي في دروب العنف، وحتى لا يقعوا في الأخطاء، وعلي النقيض من ذلك الموقف، فالإخوان مازالوا يكابرون ولا يعترفون بأخطاء الماضي ، والعنف الذي ارتكبته عناصر التنظيم السري وما أطلق عليه مسمي النظام الخاص والذي رأسه عبد الرحمن السندي وخلفه فيه يوسف طلعت .

أما الأيديولوجية والفكر فمعروف أن الجماعة لا تكفر أي مسلم بمعصية أو ذنب، وتنهج في هذا منهج أهل السنة ، بينما فكر التكفير والمغالاة وضعت أسسه جماعة الإخوان في الستينيات ، ولعل مؤلفات مرشدها الثالث سيد قطب خير دليل، وأيضا الأمر الذي دفع المرشد الثاني حسن الهضيبي إلي إصدار كتاب "دعاة ولسنا قضاة" ردا علي أفكار التكفير التي سادت من جانب عناصر الجماعة، بالنسبة للاتجاهات ، فمسألة انضواء الجماعة تحت عباءة الإخوان أو غيرها فتاريخ الجماعة وموقفها من الانضمام إلي

تنظيمات أو جماعات أو هيئات أخري معروف فلم يحدث "[٢٧] وهذا المنهج لا يمكن حصره فقط في حالة مصر بل ينطبق على كل المجتمعات الإسلامية في الاختلاف بين الحركات الإسلامية .

سبق للباحث السوري محمد جمال باروت أن صنف الإسلام السياسي إلى " معتدل " و "متطرف " حسب التعبير المستخدم، وحسب تعبيره " الإخواني " و " الجهادي "[٢٨]، ولكن الفكرة تطورت لديه في العام الحالي حيث صنف الحركات الإسلامية مجدداً، وأضاف إليها تقسيما ثالث الحركات الإسلامية ما بعد الإخوانية كما يمثل ذلك حزبي العدالة والتنمية المغربي والتركي " نعم الحركات الإسلامية هي حركات وليس حركة واحدة، وأميز على مستوى نوعياتها ما بين نمطين أساسيين هما : النمط الراديكالي أو الجهادي، والنمط الإخواني التقليدي، والنمط ما بعد الإخواني، والاقتراب من الإجابة عن السؤال يتطلب مراعاة هذا التمييز".

ويبدو بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر أنه خلافاً لوجهات النظر التي طرحها البعض من تراجع ما يسمى بالإسلامي السياسي، أنه قد برز صعود النمط ما بعد الإخواني التقليدي وهو ما نراه بشكل مركزي في تجربة حزب العدالة والتنمية في تركيا، وفي تجربة حزب العدالة والتنمية في المغرب العربي"[٢٩].

ويصنف محمد المختار الشنقيطي الحركات الإسلامية " فالمعروف أن مسمى الحركات الإسلامية يشمل في الوقت الحالي ثلاثة أصناف:

---

[٢٧]- حوار مع. حمدي عبد الرحمن قيادي الجماعة الوحيد المفرج عنه، موقع مفكرة الإسلام .

[٢٨]- مجلة يثرب الجديدة : الحركات الإسلامية الراهنة، مصدر سابق، ص ١٣ .

[٢٩]- المسلمون والإسلام بعد أحداث ١١ سبتمبر، موقع إسلامي أون لاين : حوارات حية، محمد جمال باروت ٢٠٠٣/١/٢١م .

أولا : الحركات الإسلامية السياسية، والمقصود بها هنا ذات الخلفية الإخوانية.. وهذه حركات سلمية، تميل إلى العمل من داخل النظام السياسي الاجتماعي السائد، وتسعى إلى دفعه إلى التغيير بروح إصلاحية لا ثورية، ويمكن القول إن هذه الحركات اتخذت قراراً استراتيجياً منذ السبعينات بتفادى الصدام المباشر مع خصومها، واعتماد منهج التدرج والنضال المدني، بالتعاون مع القوى القومية والوطنية المعارضة .. لذلك لا عجب أن أطبقت هذه الحركات على إدانة الهجمات يوم ١١ سبتمبر/أيلول؛ لأن هذا الأسلوب من المنازلة لا ينسجم مع رؤيتها ومنهجها في العمل .

ثانياً : الحركات الإسلامية السلفية، وهي تقليدياً ذات منحى تعليمي إرشادي، ولم تكن تهتم بالسياسية كثيراً ولا تحسن ألاعيبها .. لكن التطورات الاجتماعية والسياسية في الجزيرة العربية خلال العقد الأخير تكشفت عن مخاض جديد في الحركات السلفية، جعلها أكثر تسيساً وأعمق بالحدث اليومي .. وقد تبنت هذه الحركات – بعد تجاوز أيام الصدمة الأولى – موقفاً أكثر " تفهماً " لما حدث ضد أميركا، دون أن تؤيد بشكل صريح .. وربما كان من أسباب ذلك أيضاً موقف تلك الحركات السلفية من الوجود العسكري الأميركي في الخليج .

ثالثاً : الحركات الجهادية الثورية، وهي سلفية الفكر في الغالب الأعم، لكنها تختلف عن السلفيين من موقفهم من الحكام، ولينهم إلى الخضوع للأمر الواقع، وعزوفهم عن السياسة . كما تعتبر أن الحركات السياسية الإخوانية تغالي في التحوط والمحاذرة، مما حولها إلى جزء من الواقع، لا بديلاً عنه كما هو المفترض "[٣٠] .

---

[٣٠]- الحركات الإسلامية وهجمات ١١ سبتمبر . خلافات وخلفيات، محمد المختار الشنقيطي، موقع الجزيرة نت .

هناك عدد من المسائل جديرة بالنقاش عند الحديث عن الحركات الإسلامية منها :

الأولى : يتم تداول مصطلحات تقسم الإسلام إلى إسلام رسمي وإسلام شعبي وإسلام سياسي كما وجدنا ذلك بوضوح قبل قليل، ويتردد ذلك كثيراً في الأدبيات التي تدرس الحركات الإسلامية والصحافة والإعلام، لذا نحن بحاجة لإلقاء الضوء على مصطلح الإسلام السياسي .

ويبين رضوان السيد مفهومه للإسلام السياسي " أما حركات الإسلام السياسي فأقصدُ بها تلك التي تصرح بهدفٍ معلن هو السعي بشتى الوسائل المتاحة لإقامة الدولة الإسلامية التي مضمونها تطبيق الشريعة الإسلامية، وتملكُ بنيةً تنظيمية علنيةً أو سريةً، وتحظى بدعمٍ جماهيري يختلف من قطرٍ لآخر، ومن ناحيةٍ لأُخرى من حيث الحجم والفعالية، لكنه صالحٌ لأن يُتّخذ أساساً لإقامة النظام السياسي الإسلامي المنشود "[٣١]، ويقصد محمد ظريف بالإسلام السياسي بأنه " تلك الجماعات التي لا تقيم تمييزا في تصوراتها وممارساتها بين الدين والسياسة، وهي بهذا تقوم بتسيس الدين وتديين السياسة " وهو بنظره يتميز بثلاث خاصيات ":

١ - تعطى الأولوية لمسألة السلطة سواء بكيفية مباشرة أو غير مباشرة، وهي بهذا قد أحدثت قطيعة مع الإسلام " السني " الذي كان يوصي بضرورة الخضوع للحاكم ولو لم يلتزم أحكام الشرع حفاظاً على وحدة الجماعة ( = الأمة)، ولا يجيز الخروج على الأمير، باعتباره الخروج فتنة، فجماعات الإسلام السياسي من هذا المنطلق تلتقي مع "الخوارج " .

[٣١]- سياسات الإسلام المعاصر : مراجعات ومتابعات، مصدر سابق، ص ٢٠٥ .

٢ - ترفض المنظومة " السياسية " و " القانونية " الغربية، فهي ترى أن من واجبها إقامة الدولة الإسلامية المتمثلة في دولة الخلافة بدل الدولة " الغربية " . وتطبيق الشريعة الإسلامية بدل القانون الوضعي "، كما ترفض المفهوم الغربي للأمة وتنادي بفكرة الأمة المحددة بالعقيدة

٣ - تولي اهتماما خاصا للمسألة التنظيمية، فجل رواد الإسلام السياسي لم يكتفوا بالتنظير أو الدعوة، بل سعوا إلى تأسيس تنظيمات تؤطر دعوتهم كأبي الأعلى المودودي وحسن البنا وسيد قطب ... ألخ، وهذه المزاوجة بين " التنظير " و " التنظيم " هي التي تمنح الإسلام السياسي ديناميكية "[٣٢].

وهناك من يرفض تسمية الإسلام السياسي فهذا المصطلح يثير بعض المواقف والاستفزاز، ويفضل استخدام بدلاً منه مصطلح الحركات الإسلامية السياسية " ولكن إضفاء صفة السياسي على الإسلام تحدث خلطاً وتشويشاً يتعلق أساسا بأن مصطلح " الإسلام السياسي " هو مصطلح يجزئ الإسلام كدين، وهو أمر يرفضه أتباعه ومعتنقوه، لذا فإن الأفضل من ذلك هو أن نستخدم مصطلح " الحركات السياسية الإسلامية "[٣٣]، وفي هذا النص يوجد مخالفة لوجهة النظر التي ترى أن كل الحركات الإسلامية تتضمن نظرة مهمة للسياسة في مسألة إقامة الحكم الإسلامي وتطبيق الشريعة، ويكون استخدام مصطلح الإسلام السياسي مستفزاً لأن يثير أن الإسلاميين لا يهمهم سوى السياسة التي تُختزل تحديداً في السلطة، حيث يوجه النقد

---

[٣٢]- ، محمد ظريف، "الإسلام السياسي في الوطن العربي"، المغرب : منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، ط الثانية، نوفمبر ١٩٩٢م، ص ٥ .

[٣٣]- هشام جعفر وأحمد عبد الله، حول التحول في حركة الإسلام السياسي في الشرق الأوسط، ‹ بيروت : مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ع ٢٥٩، عام ٢٠٠٠، ص ١٤٠ .

للحركات الإسلامية من أنها طالبة حكم أكثر منهـا معارضـة أو صـاحبة مشروع ورؤية رغم أهمية الجانب السياسي الذي يعتقد أنـه يـستطيع أن يمكن الحركات الإسلامية من التمكن من تحقيق رؤيتها لمجمـل القـضايا الملحة، حيث إن السلطة من الأمور المهمة لتحقيـق القـوى الـسياسية رؤيتها لا ينحصر فقط في الإسلاميين؛ لأنه حسب الإسـلاميين لا يمكـن تجزئة الدين الإسلامي حيث إن كل جانب فيه يؤثر في الجانب الآخر فمـن دون تكامل بين جوانبه لا يمكن تحقيقه متكاملاً، فالجانب الثقـافي يـدعم الجانب الاجتماعي والاقتصادي يتماشى مع السياسي وهكذا .

والسبب الذي يجعل البعض يركز على مصطلح إسلام سياسي هو وجود فئة لم تنخرط في العمل السياسي واكتفت بالعمل التعبدي والأخلاقي الضيق مما سبب لدى الآخرين حالة استغراب مـن كـون المـسلمين الملتـزمين بالإسلام التعاطي مع السياسة " والمسألة هي : أن المسلمين عاشوا فتـرة من الزمن انعزلوا فيها عن مواجهة القضايا العامة، وانكفئوا فيهـا علـى عباداتهم وطقوسهم وأوضاعهم الأخلاقية الخاصة، بعيداً عن كل التحديات، وهكذا نشأ واقع يبتعد عن السياسة، ولا يريد للمسلمين أن ينفتحوا علـى القضايا الكبرى، لأن هناك مفاهيم فرضت نفسها على المسلمين، وجعلتهم يفكرون في أي مواجهة القوى المتحدية يمثل إلقاء للنفس في التهلكة فـي ظل عدم وجود تكافؤ بين حجم القوى لدينا، وحجم القـوى هنـاك؛ ولأن بعض المسلمين كانوا ينتظر آخر الزمان حتى يأتي العدل والإصلاح، فهـو يأس عقدي من أنه لا يمكن أن يكون هناك إصلاح قبل آخر الزمـان "[٣٤]، رغم أن الإسلام السياسي يمثل ظاهرة قديمة وحديثة على حد تعبير حـسن حنفي وبالتالي يفترض ألا تكون هناك حالة استغراب في المجتمع العربـي

[٣٤]- فضل الله : الإسلام دين فكر وحركة وحوار، حوار مع السيد محمد حسين فضل الله، حاوره وحيد تاجا، موقع إسلامي أون لاين، ٢٠٠١/٥/١٧ .

الإسلامي من كون المسلمين ملتزمين بالتعاطي مع السياسة " لـم يكـن " الإسلام السياسي " ظاهرة قديمة فحسب بل ظاهرة حديثة أيضاً منذ الإصلاح الديني حتى نشوء الجماعات الإسلامية الحالية؛ فقد نشأ الإصـلاح الـديني بدافع سياسي، ممثل في ضعف الخلافة العثمانية، واحتلال أراضي الأمـة وتجزئتها، وتخلفها عن المدنية الحديثة، وقهرها على الرغم مـن نظـام الملة، ومركزيتها الشديدة ؛ مما شجع على استقلال الأمصار ورغبتها في الانفصال، وبروز أطماع الشرق والغرب في ممتلكات الرجـل المـريض، ورغبة بعض الأمصار في وراثتها مثل مصر في عصر محمد علي ثم بعـد سقوط الخلافة عام ١٩٢٤.

كان أكبر ممثل للإسلام السياسي رائد الحركة الإسلامية الحديثة جمـال الدين الأفغاني الذي صاغ الإسلام السياسي، الإسلام في مواجهة الاستعمار في الخارج والقهر في الداخل، الإسلام من أجل تحرير أراضي المـسلمين وحريتهم وفقرائهم وهويتهم وتفرقهم وحشدهم"[٣٥]، فهو وفق هذه الرؤية لم يبرز الإسلام السياسي مع إلغاء الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية، بل كان قبل ذلك .

الثانية : مع ظهور الحركات الإسلامية برز دور مهم للكوادر الإسلامية، فلم تعد " المركزية " في المجتمعات الإسلامية لعلماء الدين فقط، بل برزت قيادات لا تنتمي للمؤسسة الدينية ( حوزات، مساجد، أحزاب، حركـات ) بل ظهر مهندسون وأطباء ومدرسون ومحامون يتعاطون الشأن الإسـلامي وبقوة، صحيح أن هذا لا يعني انفكاك عـن المؤسـسة الدينيـة، ولكنـه بالضرورة أن هناك دورا جديداً يقف بجانب دور الفقهاء وعلماء الدين في

---

[٣٥]- حسن حنفي، الإسلام السياسي بين الفكر والممارسة، في "الحركات الإسلامية وأثرها على الاستقرار السياسي" القاهرة: دار النهضة، ٢٠٠٢، ص ٥٩ .

الساحة الدينية وفي علاقاتها بالمجتمع والسياسة، ولعل أبرز دليـل علـى ذلك أن من أبرز الحركيين الإسلاميين وهو الإمام حسن البنا كان مدرسـا، فلا يصنف على أنه من علماء الدين أو فقهائه، وفي العقود الأخيرة بـرز عدد كبير لا يمكن حصره من الإسلاميين الذين لا يعتبرون من العلماء الذين كان لهم دور مهم في مسيرة الحركات الإسلامية المعاصرة. ونظرة سريعة على الإعلام سواء كان مقروءاً أو مسموعاً أو مرئياً يتضح لنا وجود عدد كبير من الحركيين الإسلاميين يتحدثون ويحللون ويسألون عـن الأحـداث الجارية وما هي مواقفهم.

الثالثة : تختلف حالات المجتمعات العربية من مجتمع إلى آخر أو مـن مرحلة لأخرى، وأداء الحركات الإسلامية يتـأثر بـذلك، فهنـاك موقـف الأنظمة السياسية من الحركـات الإسـلامية، وتـاريخ تلـك المجتمعـات والتأثيرات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وأفراد المجتمع، ومدى قوة الحركات الإسلامية الداخلية، كل هذا يؤثر على دور الحركـات الإسلامية وتأثيرها في الوضع العام للمجتمع، ولكـن ليـست فقـط هـي المسببة لضعف أداء الحركات الإسلامية في جوانب معينة، ولكـن هنـاك أسباب أدت لضعف أداء الحركات الإسلامية منها الاصطدام المبكر مع أنظمة الحكم، والجمود في التفكير، والتركيز على العمل السياسي، وتأثير ميزان القوى العالمي على حركات التحرر والتغيير " إن الدور الذي تؤديه الحركات الإسلامية والحجم الذي تأخذه في الساحة لا تحدده دعاوى هذه الحركات ولا أمانيها، بل تحدده عوامل معقدة تبدأ من فاعلية خطاب الجماعات ومزايـا قياداتها وقدرة هذه القيادات على الاسـتغلال الأمثـل للظـروف، وتمـر

**بالاستجابة التي تلقاها هذه الدعوى لدى الجماهير، وردود فعل المنافسين من حكومات وقوى معادية أو أطراف أجنبية"[٣٦].**

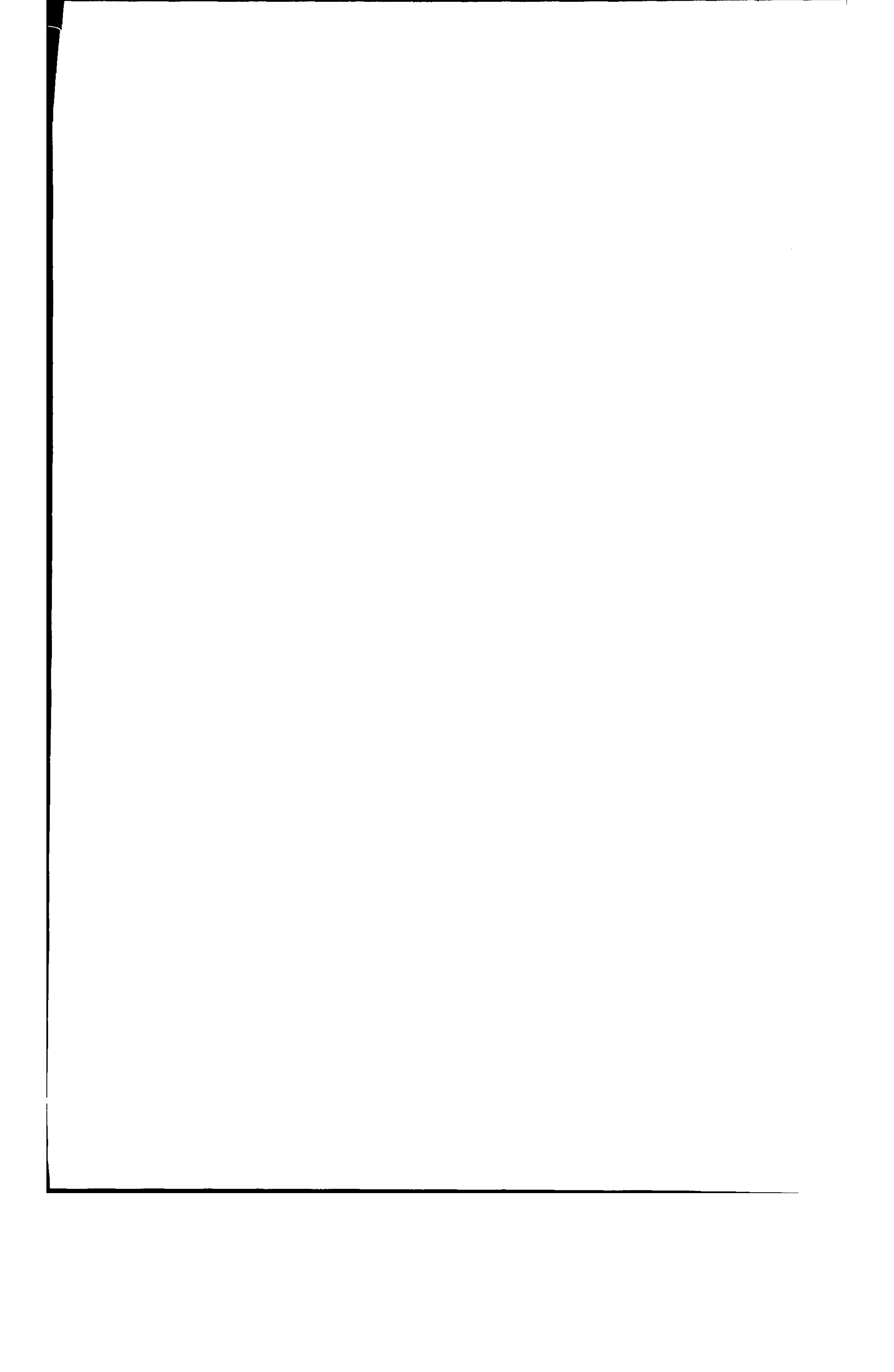
**نتناول في الفصل التالي ركائز الحوار وشروطه، وأنواعه، وآلياته كما جاء في الكتاب والسنة، والفكر الإسلامي.**

---

[٣٦]- عبد الوهاب الأفندي، الحركات الإسلامية وأثرها على الاستقرار السياسي، ص ٤٤.

# الفَصْلُ الرَّابِعُ

## الحوار الإسلامي للتعايش مع الآخر



## مقدمة

لقد أكّد القرآن الكريم على الحوار الموضوعي الهادئ في العديد من الآيات الكريمة، قال ﷺ: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"(١٢٥) النحل"

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣). وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤).فصلت .

فالحوار مظهر من مظاهر رقي المجتمعات، فالعقلاء يتحاورون ويتناظرون، وعما اتفقوا عليه يصدرون، ويديرون الحوار تحت مظلة ثوابت معروفة للجميع يتفق عليها قبل البدء، ويحتكم عند الاختلاف إلى مرجعيات مسلم بها، وهذه الأجواء أجواء صحية، تناقش الآراء علناً، وليس في الظلام؛ فتسدد الآراء، وتصحح المواقف، وتتقارب الخطى، وتزيل الشبه، ويعلو الحق، ويسفل الباطل، وينقشع الضباب، ويتبدد سوء الظن، ويخف التلاوم، وتتضح مفاصل كثير من القضايا، وسنرى بعد طول الحوار والنقاش أن هناك مساحات هائلة غير مستغلة يمكن استثمارها، وهناك قضايا أساسية ربما غفل عنها بعض المتحاورين، أو أرادوا إغفالها، فلا بد من وضوح الرؤى .

أما الانكفاء على الذات والتمحور حولها، وإغلاق الأبواب والنوافذ أمام كل حوار ولقاء، ورفض التجديد والتغيير الواعيين؛ فذلك ضعف واستكانة، وإن كان صاحبه يظن أنه صاحب الرأي الأشد، والقول الأسدّ.

ولقد خص اللّه سبحانه وتعالى الإنسان بنعمتي العقل واللسان، تكريماً وتفضيلاً له على سائر المخلوقات، قال تعالى: {"يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"(٢٦٩) البقرة} "وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ"(٨٤) الشعراء. "أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ"(٩) البلد. وعن طريق اللسان والعقل وبواسطتهما يستطيع الإنسان أن يناقش أموره بشكل أفضل مع محيطه، وأن يتدارس مشكلاته، ويشرح قضاياه، ويدافع عنها، وهو في تخاطبه مع أبناء جنسه يتدارس أموره بشأن ما يثيره من قضايا فكرية واقتصادية وغيرها، مما تختلف فيه الأفهام أو تتعارض المصالح، ويتحاور في شأن نقط الخلاف بينه وبين غيره، وهو من خلال هذا الحوار قد يصل إلى الاتفاق، كما قد يظل الاختلاف بينه وبين محاوره قائماً، وفي هذه الحالة لاشك أنه سيدافع عن قضيته ويجادل بشأنها، ومن هنا يقوم الترابط بين المشاورة والمحاورة والمجادلة والمناظرة.([1])

والمتأمل لكتاب الله -عز وجل- وسنة رسوله ﷺ؛ يجد أن كلمة الحوار وردت ثلاث مرات، ووردت قصص الحوار أكثر من ٥٠٠ مرة، وهذا يدل على مكانة الحوار، وكونه وسيلة من أعظم وسائل الدعوة إلى الله عز وجل، وقد حفلت سيرة النبي ﷺ بحوارات كثيرة مع الكفار- بكافة أصنافهم- بغية إيضاح الحق لهم واجتذابهم إلى معسكر الإيمان، أو تحييدهم في بعض الأحيان، حتى يكف بأسهم عن المسلمين، ألم تر إليه ﷺ حين أمهل عقبة بن ربيعة- وهو المشرك الكافر- حتى انتهى؟ ثم خاطبه بألطف عبارة، فقال: "أفرغت يا أبا الوليد".؟ والمتأمل لكتاب الله يجد فيه الهداية والرشاد لأسس الحوار مع الآخر.

---

[1]- محمد القسوري "أدب الحوار في الإسلام"، في ٢٠٠٣/٤/٩، موقع author.asp?name/ي

## الحوار في القرآن الكريم:

الحوار والمحاورة مصدر حاور يحاور، ومعناه لغة الجواب والمجادلة، قال ابن منظور "وهم يتحاورون أي يتراجعون الكلام، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، والمَحُورَةُ من المُحاوَرةِ مصدر كالمَشُورةِ مِن المُشاورةِ".([2])

والحوار كلمة تستوعب كل أنواع وأساليب التخاطب سواء كانت منبعثة من خلاف بين المتحاورين أو عن غير خلاف، لأنها إنما تعني المجاوبة والمراجعة في المسألة موضوع التخاطب، وهو وليد تفاهم وتعاطف وتجارب كالصداقة، وبعبارة أخرى، فإن الحوار لا يمكن أن يكون إلا بين أطراف متكافئة تجمعها رغبة مشتركة في التفاهم، ولا يكون نتيجة ضغط أو ترغيب، ولذلك كان الحوار أعم من الاختلاف ومن الجدل، وصار له معنى حضاري بعيد عن الصراع، إذ الحوار كلمة تتسع لكل معاني التخاطب والسؤال والجواب.

وقد ورد مادة الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، اثنان منها في صيغة الفعل وهما قوله تعالى، في سورة الكهف : {فقال لصاحبهِ وهو يحاورهُ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً} (من الآية:٣٤)، وقوله تعالى في نفس السورة: {قال له صاحبه وهو يحاورهُ أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً} (من الآية: ٣٧)، والثالث في صيغة المصدر في قوله تعالى في سورة المجادلة: {قد سمع الله قولَ التي تُجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمعُ تحاورَكما} (سورة المجادلة، الآية:١)، بينما ورد لفظ الاختلاف ومشتقاته في القرآن تسعاً وثلاثين مرة.

---

[2])- المرجع السابق.

أما لفظ الجدل ومشتقاته، فقد ورد في القرآن الكريم في تسعة وعشرين موضعاً. في حين أن لفظ الشورى ورد في القرآن الكريم أربع مرات.

## بين الخلاف والاختلاف:

الاختلاف بين البشر حقيقة فطرية، وقضاء إلهي أزلي مرتبط بالابتلاء والتكليف الذي تقوم عليه خلافة الإنسان في الأرض قال ﷻ : "وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ " [المائدة:٤٨]، "ولا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " [النحل:٩٢-٩٣]

فالاختلاف والتعددية بين البشر قضية واقعية، وآلية تعامل الإنسان مع هذه القضية هي الحوار الذي يتم من خلاله توظيف الاختلاف وترشيده بحيث يقود أطرافه إلى فريضة التعارف، ويجنّبهم مخاطر جريمة الشقاق والتفرق.

وإنما يعالج الحوار قضية الاختلاف من خلال كشفه عن مواطن الاتفاق ومثارات الاختلاف؛ لتكون محل النقاش والجدل بالتي هي أحسن لمعرفة ما هو أقوم للجميع، ولا بد ليؤدي الحوار وظيفته كما يجب من أن ينضبط بمنهج يضمن عدم تحوله إلى مثار جديد للاختلاف.

وإذ أرشدنا القرآن إلى أنَّ الاختلاف حقيقة وواقع، ودعانا إلى التعامل مع هذه الحقيقة من خلال الحوار، فما هو المنهج الذي رسمه القرآن لذلك؟ هذا ما نحاول تلمسه فيما سيأتي.

لقد اعتبر الإسلام الحوار قاعدته الأساسية في دعوته الناس إلى الإيمان بالله وعبادته، وكذا في كل قضايا الخلاف بينه وبين أعدائه، وكما أنه لا مقدسات في التفكير، كذلك لا مقدسات في الحوار، إذ لا يمكن أن يُغلق باب من أبواب المعرفة أمام الإنسان؛ لأنَّ الله جعل ذلك وحده هو الحجة على الإنسان في الطريق الواسع الممتد أمامه في كل المجالات المتصلة بالله والحياة والإنسان.

وقد أكَّدَ القرآن هذا المبدأ بطرق عديدة، فعرض القرآن لحوار الله مع خلقه بواسطة الرسل، وكذا مع الملائكة ومع إبليس، رغم أنه يمتلك القوة ويكفيه أن يكون له الأمر وعليهم الطاعة، كما أنَّ دعوات الرسل كلها كانت محكومة بالحوار مع أقوامهم، وقد أطال القرآن في عرض كثير من إحداثيات هذه الحوارات بين الرسل وأقوامهم، ولم يشجب القرآن في هذا الباب موقفاً كما شجب موقف رفض الحوار والإصرار على عدم ممارسته : "وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ " [الجاثية:٧-٩]، "وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ" [فصلت:٥]، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" [لقمان:٦-٧].

ولم يكن حديث القرآن عن الحوار حديثاً عَرَضياً بل اهتم به اهتماماً كبيراً من حيث المنهج والقواعد التي ينبغي أن يسير عليها، وعَرَض لأساليبه ونماذج منه، مما يعطي المتأمل فيه نظرية متكاملة عن الحوار من خلال القرآن الكريم.

## الاختلاف لا يتضمن معنى المنازعة:

الاختلاف لا يحمل معنى المنازعة، وإنما المراد منه أن تختلف الوسيلة مع كون الهدف واحداً، وهو مغاير للخلاف الذي ينطوي على معنى الشقاق والتباين في الرأي دون دليل.

وقد أوضح العلماء الفرق بين الاختلاف والخلاف في أربعة أمور: ([٣])

١. الاختلاف هو أن يكون الطريق مختلفاً، والمقصود واحداً، والخلاف هو أن يكون كلاهما ـ أي الطريق والمقصود ـ مختلفين.
٢. والاختلاف: ما يستند إلى دليل، والخلاف: ما لا يستند إلى دليل.
٣. والاختلاف من آثار الرحمة ...، والخلاف: من آثار البدعة.
٤. ولو حكم القاضي بالخلاف، ورفع لغيره يجوز فسخه بخلاف الاختلاف، فإن الخلاف هو ما وقع في محل لا يجوز فيه الاجتهاد، وهو ما كان مخالفاً للكتاب والسنة والإجماع.

## منهج الحوار في القرآن([٤]):

تنطلق رحلة المنهج الحواري في القرآن من بداياته الأولى، حيث لابد من أن يتكافأ الطرفان من حيث الاستعدادات النفسية، وامتلاك القدرة على الحوار، ومن ثَمَّ تُرسم قواعده التي سيسير عليها، ويلتزم الأطراف بالخضوع لما يكشف عنه الحوار من حقائق، فإذا تم فإما أن يصل الأطراف إلى نتيجة واحدة فيكون قد نجح، وإما أن لا يقتنع أحد الفريقين أو أن

---

[٣]- محمد القدوري "أدب الحوار في الإسلام"، في ٢٠٠٣/٤/٩، موقع /author.asp?name ى

[٤]- عبد الرحمن حنلي، منهج الحوار في القرآن الكريم، شبكة الوحدة الإسلامية، المقالة ٣٨. في ٢٠٠٣/٢/١٥. الموقع: http://www.alwihdah.com/view.asp?cat=١&id=٣٠

يعاند فإنه يمارس حقاً اعتُرف به بقبول الحوار، وعندما ينتهي الحوار إلى هذه النتيجة فللمسلم رسالة يختم بها حواره تتمثل بتذكير الطرف الآخر بأنه مسؤول عما وصل إليه، تلك هي عناوين لتفاصيل قرآنية حول الحوار نذكر بعضها فيما يلي:

### ١- امتلاك الحرية الفكرية:

لابد لكي يبدأ الحوار أن يمتلك أطرافه حرية الحركة الفكرية التي يرافقها ثقة الفرد بشخصيته الفكرية المستقلة، فلا ينسحق أمام الآخر لما يحس فيه من العظمة والقوة التي يمتلكها الآخر، فتتضاءل إزاء ذلك ثقته بنفسه وبالتالي بفكره وقابليته لأن يكون طرفاً للحوار فيتجّمد ويتحول إلى صدى للأفكار التي يتلقاها من الآخر.

لذلك أمر الله رسوله ﷺ أن يحقق ذلك ويوفره لمحاوريه :] قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ "[الكهف:١١٠]، "قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "[الأعراف:١٨٨].

### ٢- مناقشة منهج التفكير:

فإذا امتلك أطراف الحوار الحرية الكاملة فأول ما يُناقش فيه هو المنهج الفكري - قبل المناقشة في طبيعة الفكر وتفاصيلها - في محاولة لتعريفهم بالحقيقة التي غفلوا عنها وهي أن القضايا الفكرية لا ترتبط بالقضايا الشخصية، فلكل مجاله ولكل أصوله التي ينطلق منها ويمتد إليها : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ولا يَهْتَدُونَ" [البقرة:١٧٠] "وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَ نَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا

عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءكم قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ " [ [الزخرف:٢٣-٢٤].

### ٣- الابتعاد عن الأجواء الانفعالية:

من عوامل نجاح الحوار أن يتم في الأجواء الهادئة؛ ليبتعد التفكير فيها عن الأجواء الانفعالية التي تبتعد بالإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمل وتفكير، فإنَّه قد يخضع للجو الاجتماعي، ويستسلم لا شعورياً مما يفقده استقلاله الفكري: "قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ " [سبأ:٤٦]، فاعتبر القرآن اتهام النبي ﷺ بالجنون خاضعاً للجو الانفعالي العدائي لخصومه؛ لذلك دعاهم إلى الانفصال عن هذا الجو والتفكير بانفراد وهدوء.

### ٤- التسليم بإمكانية صواب الخصم: (°)

ولا بد لانطلاق الحوار من التسليم الجدلي بأنَّ الخصم قد يكون على حق، فبعد مناقشة طويلة في الأدلة على وحدانية الله تأتي هذه الآية من سورة سبأ: "قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاوَاتِ والأرض قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ، [سبأ : ٢٤]، فطرفا الحوار سواء في الهداية أو الضلال، ثم يضيف على الفور في تنازل كبير بغية حمل الطرف الآخر على القبول بالحوار: " قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ولا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ". [سبأ : ٢٥]، فيجعل اختياره هو بمرتبة الإجرام على الرغم من أنه هو الصواب، ولا يصف اختيار الخصم بغير مجرد العمل، ليقرر في

---

°)- المرجع السابق.

النهاية أن الحكم النهائي لله: "قُلْ يجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ(٢٦)" [سبأ : ٢٦].

### ٥- التعهد والالتزام بإتباع الحق:

هذا ولا يكفي مجرد التسليم الجدلي بإمكانية صواب الخصم، بل لا بد من التعهد والالتزام بإتباع الحق إن ظهر على يديه، حتى ولو كان التعهد بإتباع ما هو باطل أو خرافة إذا افتُرِض أنه ثبت وتبين أنه حق : "قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ" [الزخرف:٨١].

### ٦- الانضباط بالقواعد المنطقية في مناقشة موضع الاختلاف:

فإذا تم الالتزام بهذه الأسس فإنَّ الحوار ينطلق معتمداً على قواعد العقل والمنطق والعلم والحجة والبرهان، والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن: فما أكثر ما يرد في القرآن: "هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ" [البقرة:١١١، الأنبياء:٢٤، النمل:٦٤، القصص:٧٥]، وقال ﷺ مرشداً إلى اعتماد العلم والحجة في الحوار : "وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ" [الحج:٨، لقمان:٢٠]، "هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ "، [آل عمران:٦٦]، "إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ" [غافر:٥٦]، "أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ " [ [الصافات:١٥٦-١٥٧].

وفي إتباع اللين والحكمة والموعظة الحسنة يأمر الله موسى عليه السلام:"اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فقولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى" [طه:٤٢-٤٤]، ويأمر بإتباع الحكمة في الدعوة : ] "وَمَنْ أَحْسَنُ قولاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي

هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" [فصلت:٣٣-٣٤]؛ وتأكيداً لهذا المنهج ينهى الله المؤمنين عن اتباع أساليب السفهاء، ومجاراتهم في السبِّ والتسفيه لمعتقدات الآخر: "وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا الله عدوا بِغَيْرِ عِلْمٍ" [الأنعام:١٠٨].

**٧- ختم الحوار بهدوء مهما كانت النتائج: (٦)**

إذا سار الحوار جاداً وفق هذا المنهج من قبل جميع الأطراف؛ فلا بد أن يصلوا جميعاً إلى ما التزموا به في بداية الحوار من الرجوع إلى الحق وتأييد الصواب، فإذا رفض المحاور الحجج العقلية كأن لم يقتنع بها؛ فإنه بذلك يمارس حقاً أصيلاً كفله له رب العزة، وسيكون مسئولاً عن ذلك أمام الله ﷻ.

وفي هذه الحالة ينتهي الحوار بهدوء كما بدأ دون حاجة إلى التوتر والانفعال :"أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ" [هود:٣٥]، "وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ" [القصص:٥٥].

"وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"(٩٩) يونس .

**٨- التأكيد على استقلالية المتحاورين ومسؤوليته عن فكره:**

قبل الانفصال بين المتحاورين يتم التأكيد على استقلالية كل ومسئوليته عن نفسه ومصيره: "إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ

---

(٦)- عبد الرحمن حللي، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠٠١، ص ٩٤-٩٦.

لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ، [الأنعام:١٣٤-١٣٥]، وعلى لسان شعيب: "وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ" [هود:٩٣]، "وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ " [هود:١٢١-١٢٢]، "قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ" [سبأ:٥٠]، "قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ " [الزمر:٣٩-٤٠]، إنها مسئولية فردية لا تداخل فيها : "وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ" [ يونس:٤١]، قُلْ لا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا ولا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ " [سبأ:٢٥-٢٦].

### ٩- الإشهاد على المبدأ وعدم تتبع الأخطاء الناتجة عن الانفعال أثناء الحوار:

وفي آخر الحوار يتم إشهادهم على المبدأ والتمسك به : "فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" [آل عمران:٦٤].

ولا حاجة في أن يُتَابَعَ الخصم على ما بدر منه من إساءات في الحوار، وليكن العفو والصبر أساساً وخلقاً في التعامل مع الجاهلين :] "خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ" [الأعراف:١٩٩]، "اصبر على ما يقولون" [طه : ١٣٠، ص:١٧]، "فاصبر على ما يقولون" [ق :٣٩]، "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنتَظِرُونَ "[السجدة:٣٠]، "فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا" [النجم:٢٩]، "وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً " [المزمل:١٠].

هكذا يرشد المنهج القرآني في الحوار إلى إنهائه بمهمة وأداء رسالة يبقى أثرها في الضمير إن لم يظهر أثرها في الفكر، إنه أسلوب لا يسيء إلى الخصم بل يؤكد حريته واستقلاليته، ويقوده إلى موقع المسئولية ليتحرك الجميع في إطارها وينطلقوا منها ومعها في أكثر من مجال. (٧)

**الحوار مع المشركين نموذجاً:**

في قوله تعالى: {ولا تُجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن لهم مسلمون وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحدُ بآياتنا إلا الكافرون وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك إذاً لارتاب المُبطلون..} (العنكبوت، الآيات: ٤٦-٤٨).

قد كانت للنبي ﷺ مجادلات مع المشركين، ومع أهل الكتاب، وآيات القرآن في ذلك كثيرة، وهي أثبت في المعني. (٨)

وقد قال لليهود: {إن كانت لكمُ الدارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دون الناسِ فتمنوا الموتَ إن كنتم صادقين* ولن يتمنَّوهُ أبداً بما قدَّمتْ أيديهم} (سورة البقرة، من الآيتين: ٩٤-٩٥)، فما أجابوه جواباً.

وقال لهم: {إن مثلَ عيسى عند الله كمثل آدَم خَلَقَهُ من تُراب} (آل عمران، الآية: ٥٩)، أي إن كنتم عبدتم ولداً من غير أب فخذوا ولداً دون أب ولا أم.

---

٧)- عبد الرحمن حللي، منهج الحوار في القرآن الكريم، مرجع سابق.

٨)- محمد القدوري "أدب الحوار في الإسلام"، في ٢٠٠٣/٤/٩، موقع author.asp?name/ي

وقال: {يا أهل الكتاب تعالوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبدَ إلا اللّه ولا نشرك به شيئاً} (آل عمران، الآية: ٦٤).

وقال: {وقالتِ اليهود والنصارى نحن أبناءُ اللّه وأحباؤه قل فَلِمَ يعذبُكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} (المائدة، من الآية : ١٨).

وصف القرآن حالة المشركين النفسية تجاه الرسول ﷺ حيث كان موقفهم انفعالياً فجعلوا يردون بالتهم والتعجب؛ ليريحوا أنفسهم من عناء التفكير بالاتكاء على تقليد الآباء : "وَعَجِبُوا أَنْ جَاءهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الملأ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخرة إِنْ هَذَا إلا اختلاق " [ص:٤-٧].

فقابلهم الرسول ﷺ بكل هدوء، وطلب منهم إبداء الدليل على ما هم عليه من شرك: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنْ الأرض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" [الأحقاف:٤]، "سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ" [الأنعام:١٤٨].

ولما عجز المشركون عن إقامة الدليل، إذ مستندهم التقليد وإتباع الظن أقام الدليل عليهم: "أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنْ الأرض هُمْ يُنْشِرُونَ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ [الأنبياء:٢١-

غير أن يخرج الجدال معهم عن الأدب اللائق به، وعن الحدود التي تجعلــه مناسباً لشرف الدعوة، ملائماً لنبل ما تدعو إليه؛ ولهذا أيــضاً يقــول الله تعالى بعد ذلك «.. ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُــونَ(١٠٨) الأنعام» تأكيداً لذلك النهى عن سب آلهتهم، و ليدل به على أن أمرهم فــي ذلك يرجع إلى الله تعالى لا إلينا، فهو الذي يعاقبهم على شركهم، و لــيس إلينا هذا العقاب حتى نعاقبهم بشتم أو نحــوه، وإنمــا وظيفتنــا الإرشــاد والدعوة بالتي هي أحسن([10]).

كانت هذه بعض إحداثيات الحوار مع المشركين تجلّــت فيهــا معــالم الاستقلالية التامة والحرية المطلقة التي أعطيت للمشركين؛ حيــث قُوبــل توترهم وردهم العنيف بالدعوة إلى إبداء الدليل العلمي، وإذا عجزوا عنه أقيم عليهم الدليل العلمي والواقعي على بطلان دعواهم دون أن يتعدى ذلك إلى أي شائبة من شوائب الإكراه المادي أو النفسي.

ومن ثم فلقد كشفت لنا معالم المنهج الحواري في القرآن أنه ينطلق من حقيقة الاختلاف بين البشر، وما يستلزمها من حرية الإنسان لينتهي إلــى تأكيدها، وبالتالي فهو منهج لا يهدف أكثر من دعوة الناس إلى التعــرف على الحق، واكتشاف التي هي أقوم، فالحوار وفق المــنهج القرآنــي لا ينطلق من منطق الوصاية على الآخر، أو مجــرد التعريــف بمــا عنــد المحاور، إنما هي قضية بحث عن الحق أين كــان، وهــذا لا يعنــي أن المسلم عندما يدخل في حوار مع الآخرين قد تخلّى عن تــصوراته، إنمــا الموضوعية تتجلّى في الاستعداد التام للتخلي عن جميع التصورات، وتبني نقيضها إذا ما اتضح أنّ الحق مع الرأي الآخر، وهذا الاستعداد ليس مجاملة إنما هو تعهد يعبر عن مصداقية المسلم.

---

[10])- عبد المتعال الصعيدي، أدب الجدل في القرآن الكريم، مرجع سابق.

وليس كالقرآن كتاباً اعتمد "المقارنة" منهاجاً في إثبات الحق الإسلامي، عندما عرض هذا الحق مقارناً بما لدى الشرك والوثنية والإلحاد والتحريف من دعاوى ومواريث.. (قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ(٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ(٩٦) الصافات).

وفي تقرير صفات الكمال للذات الإلهية ينساب المنطق القرآني إلى العقول والقلوب، عندما يأتي في معرض المقارنة مع بضاعة الآخرين: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا(٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا(٤٢) مريم).

وليس كالقرآن كتاباً سعى إلى استنطاق الآخرين كل ما لديهم من "حجج وبراهين" على ما يعتقدون: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(١١١) البقرة).

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١٤٨) الأنعام).

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٤) الأحقاف).

وليس كالقرآن كتاباً اهتم "ببضاعة" الآخرين ،العقدية والفكرية ، على ما بها من سقم وعوج وتهافت.. فهو يثبت ما تحدثوا به عنه ،وهو المعجز المتحدى، عندما قالوا: (...إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(٨٣) المؤمنون).. (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ(٥) الأنبياء).

ويثبت ما وصفوا به الصادق الأمين | عندما قالوا عنه: (وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٤) ص).

ويثبت الفلسفة الدهرية ،على بؤسها ، عندما تعلقوا بحبالها: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ(٢٤) الجاثية).

ويخلّد "منطقهم" العجيب، الذي انحاز للشرك، متعجباً من التوحيد!: "أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ"(٥) ص).

يتتبع القرآن الكريم "مقالات" الآخرين، فيفندها، ثم لا يطوى صفحتها متجاوزاً إياها، وإنما يثبتها آيات في سورة نتلوها ونتعبد بها؛ ليرسي دعائم هذا المنهاج في مقارنة العقائد والفلسفات والأفكار. .([11])

بل إننا نتعلم من هذا المنهاج القرآني أن الذين يصادرون الفكر الاخر، ويغلقون دونه الأسماع والأبصار إنما كانوا هم المشركين.. فتجاهل الفكر الآخر، والصد عن سماعه وتأمله وتدبره ليس منهاج أهل الإيمان.. والمشركون هم الذين يُلهون ويصرفون أنفسهم وذويهم عن القرآن: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(٦) لقمان).. فلقد رفعوا شعار التعمية على هذا الذي خالف ما وجدوا عليه آباءهم وكبراءهم: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ(٢٦) فصلت).. فلقد حسبوا

---

[11]- محمد عمارة "الاستنارة بين الذات والآخر.. مقاربة قرآنية لاستشفاف الضرورات"، في ٢٠٠٣/٨/٧،

موقع الندوة author.asp?name/ي

أن الراحة والغَلَب في التعمية على هذا الذي لم يألفوه، والكتمان لهذا الذي لا يهوون، والمصادرة لهذا الذي لا يريدون!. .([12])

هذا هو المنهاج القرآني في التعامل مع الفكر الآخر ،حتى عندما كان شركاً صريحاً وكفراً بواحاً ووثنية جاهلية ودهرية حيوانية، مصادمة للفطرة السوية التي فطر الله ﷻ عليها الإنسان في الإيمان.

## منطلقات الحوار:

فإذا كان الإسلام قد سمح بالاجتهاد واعتمد العقل والبرهان سبيلاً منطقياً للإقناع، فمن الطبيعي أن يجوّز الحوار ويدعو إليه على كل الأصعدة، وبكل الأنماط، فنجد النصوص الإسلامية تركز على بعض الشروط الضرورية، وقد تحدث علماؤنا القدامى عن آداب الحوار والجدال، ولكننا ندخل ما ذكروه جميعاً في منطَقة الشروط الضرورية، لأنها جميعاً إن لم تتوفر عرَّضت النتائج لخطر التمويه.

وما نريد التحدث عنه من الشروط الهامة هو ما يلي:

### أولاً: تحرير محل الحوار:

وهو أول شرط وأهمه، فإن الحوار قد يكون مضيعة للوقت، إذا تبين للمتحاورين بعد فترة طويلة أنهما كانا يركزان حديثهما على محورين مختلفين، أو وجهتين متفاوتتين، ولذا كان علماؤنا يحددون البدء بتحرير محل النزاع، وتشخيص أبعاده؛ ليكون الاستدلال منتجاً، وهذا شرط منطقي لا نحتاج للاستدلال عليه.

---

[12])- المرجع السابق.

ثانياً : الموضوعية:

ويُعنى بها الدخول إلى مرحلة الحوار بعد التخلي موقتاً عن كل القناعات السابقة والسعي لطلب الحق أينما كان.

وهذا هو القرآن الكريم يخاطب الرسول الكريم ﷺ، وهو القمة في الإيمان واليقين، بأن يدخل في الحوار بروح موضوعية هادفة ليقول: {وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلالٍ مبين} (سورة سبأ، من الآية: ٢٤).

ويقول ﷻ: {قُلْ فأتوا بكتابٍ مّن عند اللهِ هو أهدى منهما أتّبعه إن كنتم صادقين} (سورة القصص، من الآية: ٤٩)، وهو أمر أكده السابقون من علماء الأخلاق وغيرهم.

يقول صاحب (المحجة البيضاء في إحياء الإحياء) عند التحدث عن شروط المناظرة: الأول: أن يقصد بها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق، لا ظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره؛ فإن ذلك مراء منهي عنه بالنهي الأكيد، ويضيف: "أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالة يكون شاكراً متى وجدها، ولا يفرق بين أن يظهر على يده أو يد غيره؛ فيرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر له الحق".

ثالثاً : الانسجام بين مؤهلات أطراف الحوار والموضوع نفسه.

فلا معنى للحوار حول موضوع لا تعلمه الأطراف أو لا يعلمه أحدهم أولا يتخصص فيه إن كان مما يحتاج للتخصص.

يقول ﷻ : {ها أنتم هؤلاء حاجَجْتُم فيما لكم به علم فلمَ تُحاجّون فيما ليس لكم به علم واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون} (سورة آل عمران، الآية: ٦٦).

ويقول سبحانه: {إن الذينَ يجادلون في آياتِ اللهِ بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلاّ كبرٌ ما هم ببالغيهِ فاستعذ باللهِ إنه هو السميعُ البصير} (سورة غافر، الآية:٥٦).

وهنا يقول أحد العلماء:... الثابت أن يناظر مع من هو مستقل بالعلم، ليستفيد منه إن كان يطلب الحق.

ومن هنا فنحن نعتقد أن طرح الاستدلالات العلمية الدقيقة في المجامع العامة، مع اختلاف مستويات الحاضرين أمرٌ يجانب شروط الحوار.

رابعاً: الانطلاق من المبادئ المتفق عليها:

إن الحوار لن يُنتج مطلقاً، إذا لم تكن هناك مبادئ متفق عليها مسبقاً، وفرضيات مسلمة يرجع إليها المتحاوران. ومن هنا رد الجميع عنصر المصادرة على المطلوب، واعتبروه أسلوباً مختلاً ... ولا سبيل هنا إلا التنبيه على بعض القضايا الوجدانية، ومن هنا نجد القرآن الكريم يرد على أولئك المنكرين للبَدَهيَّات بتنبيههم لخطأ ما يعتقدون، وإيقافهم أمام تساؤلات فطرية، إذ يقول ﷻ لأولئك المقلدين لآبائهم (دونما منطق):

}وإذا قيلَ لهم اتبعوا ما أنزلَ اللّه قالوا بل نتبعُ ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون} (سورة البقرة، الآية: ١٧٠). ويقول ﷻ: {وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مُترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمّةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون * قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أُرسلتُم به كافرون} (سورة الزخرف، الآيتان: ٢٤-٢٣).

فإن هؤلاء قوم لا يؤمنون بشيء مشترك مع المحاور المسلم، وما عليه إلا أن ينبههم على بعض المشتركات الفكرية من قبيل:

إن المجانين لا يتبعون، فإذا افترضنا أن آباءهم مجانين فهم لا يتبعون؛ إذن عليكم التحقيق، أو أن الأفضل والأهدى هو المتبع فيجب التأكد من الأهدى.

<u>خامساً</u> : المنطقية بحيث يسير البحث بشكل منطقي: وتؤدي المقدمات إلى النتائج بشكل طبيعي، وذلك دونما تحايل أو مماطلة أو جدال عقيم، والنصوص التي تنهى عن الجدال والمراء كثيرة.

منها قوله ﷻ: {ما ضربوهُ لكَ إلا جدلاً بل هم قومٌ خَصِمون} (سورة الزخرف، من الآية: ٥٨). وقوله ﷻ: {وكان الإنسانُ أكثر شيء جدلاً} (سورة الكهف، من الآية: ٥٤).

وقد رأينا العلماء يردون التحايل على الطرف الآخر، ويذكرون لذلك أمثلة من قبيل:

أ) إبهام العبارة حتى لا يفهمها الطرف لآخر.

ب) الاحتيال عليه حتى يخرجه عن محل تساؤله.

ج) توجيه كلام السائل إلى وجوه محتملة.

بل تحدثوا عن الصفات التي قد يُبتلى بها المتحاوران نتيجة القدرة على امتلاك الموقف، من قبيل الحقد والحسد وتزكية النفس، والاستكبار عن الحق، والرياء، وكل ذلك لكي تعود إلى المحاور شخصيته الطبيعية التي تحقق منطقيته في الحوار.

<u>سادساً</u> : الابتعاد عن جو التهويل أو ما يسمى بتأثير العقل الجمعي: ففي مثل هذا الجو يفقد الحوار جوه المطلوب، ولا معنى فيه للاستدلال المنطقي الهادئ الحكيم.

ومن خير الأمثلة على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من جـو انفعـالي واجه المشركون به النبيﷺ واتهموه بالجنون، ولذلك طلب من الرسول ﷺ أن يدعوهم إلى نبذ هذا التهويل، والعودة إلى الهدوء المطلوب، ثم التفكير بما يتهمونه به، يقول ﷻ:

"قل إنما أعظكم بواحدةٍ أنْ تقوموا للّهِ مَثْنى وفُرادى ثم تتفكّـروا مـا بصاحبكم من جِنَّةٍ إنْ هو إلا نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد} (سورة سبأ، الآية: ٤٦).

سابعاً : أن يكون الحوار مما يترك أثراً عملياً أو فكرياً: فلا معنى للحـوار حول افتراضات تجانب الواقع، يقول الإمام الغزالي:"...الرابح أن يناظر في واقعة مهمة أو في مسألة قريبة من الوقوع، وأن يهتم بمثل ذلك".

ثامناً: أن تلحظ في الحوار كل الجوانب المرتبطة بالموضوع، فقـد تتـرك الجوانب غير الملحوظة أثرها على النتيجة، أما إذا لم يتسع صدر الباحث، فيجب الاتفاق على قدر متيقن فيها. ([13])

لقد نجحت الحوارات التي جرت وأشاعت بما ينشر عنها من أخبـار أملاً في تصفية الأجواء في أوساط "العامة"، وحققـت وهـذا أمـر بـالغ الأهميةـ تعارفاً بين شخوص فاعلة في المنطقتين أوصـل إلـى الفهـم الموضوعي لديهم، وبلورت فكرة أن تعاون الحضارات عامة والحضارتين الغربية والعربية الإسلامية بخاصة هو عبـرة تـاريخ طويـل وضـرورة مستقبل.

---

[13]- محمد علي التسخيري "الاختلاف وأسلوب الحوار، مرجع سابق.. موقع هام بالإنترنت www.alwehda.com

مرتكزات الحوار:

ويقوم الحوار على عدد من الأمور من أهمها: [14]

١- الاعتراف ابتداء بأن الخلاف سنة كونية وإرادة إلهية ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حي عن بينه والخلاف راجع لتضارب المصالح وتباين القدرات والمواهب.

٢- أن التعايش مطلب حتمي وضرورة شرعية، ومرحلة ينبغي أن تكون مخرجاً من الحاضر ومعبراً لحياة متكاملة.

٣- أن يكون مرد الخلاف إلى الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ.

٤- أن يكون الحق والصدق رائد المتحاورين، وأن تكون مصالح الأمة فوق مصالح الأفراد والجماعات.

٥- أن يجري الحوار بعيداً عن البغي والعدوان والحسد وحب الانتصار والسيطرة والشهرة؛ فالبغي مصدر الشهوات.

٦- ينبغي أن تقوم بالحوار تلك القيادات التي تقود قطاعات الدولة والمجتمع على اختلاف أهدافها ومستوياتها ومنها: القيادات الدينية، القيادات الاقتصادية، القيادات السياسية، القيادات الأمنية، القيادات الاجتماعية، القيادات العلمية، والإعلامية والثقافية كما ينبغي أن يقوم الحوار داخل كل قضية من هذه القضايا من جهة وعلى مستوى تداخل هذه القضايا بعضها مع بعض من جهة أخرى وأن يقوم بالحوار من كل تخصص عدوله الناصحون للأمة البعيدون عن المصالح الذاتية والترهات الفردية والعنصرية والطائفية.

---

[14]- أحمد صدقي الدجاني، "الحوار مع الآخر في الإسلام"، مرجع سابق.

٧- أن تحدد نقاط الخلاف وتوضح الإيجابيات منها والسلبيات، وذلك بغرض توجيه الطاقات على اختلاف مظانها ومظاهرها وعلى تعدد أبعادها وغاياتها إلى خدمة قضايا الأمة الإسلامية وليس إلى الاحتراز من الجميع كما هو الحال.

٨- أن تكون تلك الطاقات قوة للبنات هذا الكيان وليست إلغاء له وتنسيقاً وتكاملاً لعناصره ومحتوياته وعوامله ودوافعه وليست تفتيتاً له وتفجيراً لوحداته ووحدته[١٥].

## الحوار الإيجابي ودوره في الحد من العنف:

وإذا كان الإسلام يطلب الحق والعدل ويدعو إليه فإن الوسيلة لإقرارهما تبتدئ بالحوار الذي أقامه الإسلام على ثلاث مستويات: [١٦]

١- المستوى الأول : الحوار مع النفس ومحاسبتها وحملها على الجادة وطلب الحق ويكون هذا في شكل حوار داخلي مستمر بين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة حتى يصل الإنسان إلى الاطمئنان .

٢- المستوى الثاني : الحوار بين أفراد المجتمع الإسلامي وفق اجتهاداتهم المختلفة عملا بمبدأ "التعاون في الاتفاق والاعتذار في الاختلاف " حفاظا على وحدة الصف الإسلامي.

٣- المستوى الثالث : الحوار بين المسلمين وغير المسلمين الذين يشتركون معاً في إعمار الكون، وهو حوار يجرى وفق مبدأ المدافعة الذي يمنع الفساد وينمى عوامل الخير.

والبعض يرى تقسيم آخر لأبعاد الحوار: ومن أمثلة ذلك:[١٧]

---

[١٥]- أحمد صدقي الدجاني، "الحوار مع الآخر في الإسلام"، مرجع سابق.

[١٦]- عبد الله حمدنا الله (جريدة المسلمون - عدد ٣٣٧-٨ المحرم ١٤١٢):

أ) الحوار بين المسلمين المختلفين في الشؤون الشخصية.

ب) الحوار بين المختلفين في القضايا الاجتماعية.

ج) الحوار بين الفقهاء.

د) الحوار العقائدي.

هـ ) الحوار بين الأديان.

و) الحوار بين الحضارات.

وإن عالمية الإسلام تفرض على أمته - كي تحقق القيام بفريضة الدعوة إليه - تحقيق مستويات ثلاثة في الدعوة إلى هذا الدين: .([١٨])

١- تبليغ الدعوة الإسلامية إلى الآخرين.

٢- وإقامة الحجة، بصدق الإسلام، على هؤلاء الآخرين.

٣- وإزالة الشبهة، عن الإسلام، لدى هؤلاء الآخرين.

وبدون المعرفة بالآخر، والوعي بما لديه من عقائد و "أيديولوجيات" ومواريث فكرية وثقافية، يستحيل إنجاز هذه الأركان في فريضة الدعوة إلى الإسلام.

غايات الحوار للحوار غايتان إحداهما قريبة والأخرى بعيدة، أما غاية الحوار القريبة والتي تطلب لذاتها دون اعتبار آخر فهي محاولة فهم الآخرين، وأما الغاية البعيدة فهي إقناع الآخرين بوجهة نظر معينة.

---

[١٧])- محمد علي التسخيري "الاختلاف وأسلوب الحوار الحكيم" أبحاث ندوة أدب الاختلاف في الإسلام التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالتعاون مع جامعة الزيتونة تونس ١٠ – ٨ ديسمبر ١٩٩٨م.

[١٨])- محمد عمارة "الاستنارة بين الذات والآخر. مرجع سابق.

## الحوار السلبي:

نستعرض بعض ألوان الحوار السائدة في حياتنا والمؤثرات في سلوكنا وفى مسيرتنا الحضارية أفرادا وجماعات ولنبدأ بألوان الحوار السلبي [١٩]:

١- الحوار العدمي التعجيزي : وفية لا يرى أحد طرفي الحوار أو كليهما إلا السلبيات والأخطاء والعقبات، وهكذا ينتهي الحوار إلى أنه لا فائدة، ويترك هذا النوع من الحوار قدراً كبيرا من الإحباط لدى أحد الطرفين أو كليهما؛ حيث يسد الطريق أمام كل محاولة للنهوض.

٢- حوار المناورة (الكر والفر) : ينشغل الطرفان (أو أحدهما) بالتفوق اللفظي في المناقشة بصرف النظر عن الثمرة الحقيقية والنهائية لتلك المناقشة وهو نوع من إثبات الذات بشكل سطحي .

٣- الحوار المزدوج: وهنا يعطى ظاهر الكلام معنى غير ما يعطيه باطنة لكثرة ما يحتويه من التورية والألفاظ المبهمة وهو يهدف إلى إرباك الطرف الآخر، ودلالاته أنه نوع من العدوان الخبيث.

٤- الحوار السلطوي (اسمع واستجب) : نجد هذا النوع من الحوار سائدا على كثير من المستويات، فهناك الأب المتسلط والأم المتسلطة والمدرس المتسلط والمسئول المتسلط ..الخ وهو نوع شديد من العدوان، حيث يلغي أحد الأطراف كيان الطرف الآخر ويعتبره أدنى من أن يحاور، بل عليه فقط السماع للأوامر الفوقية والاستجابة دون مناقشة أو تضجر وهذا النوع من الحوار فضلا عن أنه إلغاء لكيان (وحرية) طرف لحساب الطرف آخر، فهو يلغى ويحبط القدرات

---

[١٩]- محمد المهدي، "الحوار السلبي"، كلية الطب، قسم الطب النفسي جامعة المنصورة، ٢٠٠٣/٤/٤ .

الإبداعية للطرف المقهور؛ فيؤثر سلبيا على الطرفين، وعلى الأمة بأكملها.

٥- الحوار السطحي (لا تقترب من الأعماق فتغرق) : حين يصبح التحاور حول الأمور الجوهرية محظورا أو محاطا بالمخاطر، يلجأ أحد الطرفين أو كليهما إلى تسطيح الحوار؛ طلباً للسلامة أو كنوع من الهروب من الرؤية الأعمق بما تحمله من دواعي القلق النفسي أو الاجتماعي .

٦- حوار الطريق المسدود (لا داعي للحوار فلن نتفق ) : يعلن الطرفان (أو أحدهما ) منذ البداية تمسكهما (أو تمسكه) بثوابت متضادة تغلق الطريق منذ البداية أمام الحوار وهو نوع من التعصب الفكري وانحسار مجال الرؤية .

٧- الحوار الإلغائي أو التسفيهي (كل ما عداي خطأ ) يصر أحد طرفي الحوار على ألا يرى شيئا غير رأيه ،وهو لا يكتفي بهذا بل يتنكر لأي رؤية أخرى ويسفهها ويلغيها وهذا النوع يجمع كل سيئات الحوار السلطوي وحوار الطريق المسدود.

٨- حوار البرج العاجي : ويقع فيه بعض المثقفين حين تدور مناقشتهم حول قضايا فلسفية أو شبه فلسفية مقطوعة الصلة بواقع الحياة اليومي وواقع مجتمعاتهم، وغالبا ما يكون ذلك الحوار نوع من الحذلقة وإبراز التميز على العامة دون محاولة إيجابية لإصلاح الواقع.

٩. الحوار المرافق (معك على طول الخط) : وفية يلغي أحد الأطراف حقه في التحاور لحساب الطرف الآخر، إما استخفافا (خذه على قدر عقله) أو خوفا أو تبعية حقيقية؛ طلبا لإلقاء المسئولية كاملة على الآخر.

١٠. الحوار المعاكس (عكسك دائما) : حين يتجه أحد طرفي الحوار يمينا ويحاول الطرف الآخر الاتجاه يسارا، والعكس بالعكس، وهو رغبة في

إثبات الذات بالتميز والاختلاف، ولو كان ذلك على حساب جوهر الحقيقة. "وفق مثل عامي يقول: "خالف تُعْرف".

١١. حوار العدوان السلبي (صمت العناد والتجاهل) : يلجأ أحد الأطراف إلى الصمت السلبي عنادا وتجاهلا ورغبة في مكايدة الطرف الآخر بشكل سلبي دون التعرض لخطر المواجهة.

إن الحوارات السلبية الهدامة تعوق الحركة الصحيحة الإيجابية التصاعدية للفرد والمجتمع والأمة، وللأسف فكثير منها سائد في مجتمعاتنا العربية الإسلامية لأسباب لا مجال هنا لطرحها. [٢٠]

إذن فما هي مواصفات الحوار الإيجابي الذي نسعى لترسيخه بيننا ؟

إن الإجابة بسيطة ولكن تنفيذها يحتاج إلى وقت وصبر ولكن لا مناص من المحاولة والصبر والمثابرة، فعلى أساس الحوار ينبني السلوك وتتشكل العلاقات وينهض الفرد والمجتمع والأمة، ويتعايش الجميع في سلام وأمن ووئام.

والحوار الإيجابي الصحي هو الحوار الموضوعي الذي يرى الحسنات والسلبيات في ذات الوقت، ويرى العقبات ويرى أيضا إمكانيات التغلب عليها، وهو حوار متفائل (في غير مبالغة طفلية ساذجة) وهو حوار صادق عميق وواضح الكلمات ومدلولاتها وهو الحوار المتكافئ الذي يعطى لكلا الطرفين فريضة التعبير والإبداع الحقيقي، ويحترم الرأي الآخر، ويعرف حتمية الخلاف في الرأي بين البشر وآداب الخلاف وتقبله، وهو حوار واقعي يتصل إيجابيا بالحياة اليومية الواقعية، واتصاله هذا ليس اتصال قبول ورضوخ للأمر الواقع بل اتصال تفهم وتغيير وإصلاح، وهو

[٢٠]- محمد المهدي، مرجع سابق .

حوار موافقة حين تكون الموافقة هي الصواب ومخالفة حين تكون المخالفة هي الصواب؛ فالهدف النهائي له هو إثبات الحقيقة، حيث هي، لا حيث نراها بأهوائنا، وهو فوق كل هذا حوار تسوده المحبة والمسئولية والرعاية وإنكار الذات.

إن ممارسة الانفتاح والحوار مع الآخرين ليس هدفا في ذاته، إنما الهدف من ورائه هو تحقيق التواصل والتقارب، كما أن الحوار الذي لا يلتزم بشروط موضوعية لا يحقق النتيجة المرجوة منه، بل على العكس قد يؤدي إلى التنافر والتباعد، وإذا أردنا أن نعدد الشروط الضرورية للحوار الناجح؛ فإنه يمكننا ذكر ما يلي:

١. الإيمان بوجود الآخر: إذا أردت أن تحاور طرفا معينا، فإن ذلك يقتضي بأن تؤمن بأن له وجودا وكيانا، إذ إنه من الاستهانة أن تتعامل مع فرد أو جهة على أساس أنها تمثل ثقلا معينا، وأنت تشعر في قرارة نفسك بعكس ذلك، ومهما حاولت إخفاء ذلك الشعور السلبي، فسوف يبرز بشكل إرادي أو غير إرادي، وعند ذلك سيؤدي إلى ردة فعل سلبية من الطرف الأخر، وربما يؤدي إلى القطيعة، فضلا عن أن التعامل مع الناس بهذا الأسلوب يتنافى مع مبادئ الأخلاق الإسلامية، وفي هذه الحالة يصبح عدم التعامل مع الجهة التي لا نؤمن بجدوى التعامل معها خيرا من أن نبدي لها اهتماما لا نشعر به حقا تجاهها، وقد تكون فعلا الجهة التي ترغب في التواصل معها لا تمثل في موازينك ومقاييسك قيمة وأهمية، ولكن لك معها مصلحة محددة أو غرض معين يجعلك تتعامل معها، وفي هذه الحالة أصبحت تلك المصلحة، أو ذلك الغرض مبررا للإيمان بوجودها على الأقل بمقدار ما ترجوه منها، على أنه ينبغي التنبيه على الاعتراف بكيان الآخر ليس معناه التسليم بمبادئه ومواقفه.

٢. التعرف على الآخر: إن من مقتضيات الحوار والتواصل أن تتعرف على من تريد محاورته، لأن سعيك للتعارف يحقق مجموعة من المصالح تدعم قضية الحوار وتحقق ثمرته، فالتعارف من جانبك يشعر الطرف الآخر باهتمامك به، وبالتالي بتواضعك وعدم تعاليك على من تحاوره، وقد أشار القرآن الكريم لهذا المعنى، في قوله ﷻ :{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (١٣) الحجرات، والتعارف هنا في الآية هو سعي مشترك بين طرفين، كل يسعى من جانبه للتعرف على الآخر.

٣. التعارف يساعدك على اكتشاف الآخر، وبالتالي اختيار أفضل الأساليب والطرق للتواصل معه، وتجنب كل ما من شأنه أن يثيره أو يجعله يقع في ردود أفعال سلبية، وقد يقع الإنسان في إساءة غيره من غير قصد منه، بسبب مصادمته بعبارة أو طريقة غير مناسبة لم يحسب لها حسابا، ولم يراع فيها خصوصيات من يخاطبه، وفي ضوء هذا نفهم التوجيه النبوي القائل : (خاطبوا الناس على قدر عقولهم، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله).

٤. أن يكون الكلام هادفاً إلى الخير: [٢١] "لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً" (النساء:١١٤). وفي حديث أبي هريرة عنه عليه أفضل الصلاة والسلام: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت].

---

[٢١]- مازن الفريح، أدب الحوار في الإسلام، موقع ناصح للسعادة الأسرية، ٢٠٠٣/٤/١٩.

فإذا تكلم المرء فليقل خيراً وليعوِّد لسانه الجميل من القول، فإن التعبير الحسن عما يجول في نفسه أدبٌ عالٍ، أخذ الله به أهل الديانات جميعاً، وقد صرح القرآن أن القول الحسن من حقيقة الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل على عهد موسى. [22]

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ)(٨٣) البقرة، والكلام الطيب العف يجمل مع الأصدقاء والأعداء جميعاً، وله ثماره الحلوة، فأمَّا مع الأصدقاء فهو يحفظ مودتهم، ويستديم صداقتهم، ويمنع كيد الشيطان أن يوهي حبالهم ويفسد ذات بينهم، ومع الأعداء يقارعهم الحجة القوية: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً) (٥٣) الإسراء.

٥. البعد عن عبارات المدح للنفس أو للغير إلا بالضوابط الشرعية:

"فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى" (النجم، الآية ٣٢)

## حرية الاختيار وحق الاختلاف[23]

إن للحوار أهدافًا مختلفة؛ فهو إما أن يكون وسيلة لتنفيس أزمة ولمنع انفجارها، وإما أن يكون سعيًا لاستباق وقوع الأزمة ولمنع تكوُّن أسبابها، وإما أن يكون محاولة لحلِّ أزمة قائمة ولاحتواء مضاعفاتها، في هذه الحالات الثلاث تكون مهمة الحوار هي العمل على:

---

[22]- محمد الغزالي، أدب الحديث في الإسلام، من كتاب خلق المسلم.

[23]- محمد السماك، "ثقافة الحوار في الإسلام: حرية الاختيار وحق الاختلاف"، جريدة النهار، ١٧ تشرين ثاني، ٢٠٠٢.

١- إبراز الجوامع المشتركة في العقيدة والأخلاق والثقافة.

٢- تعميق المصالح المشتركة في الإنماء والاقتصاد والمصالح.

٣- توسيع مجالات التداخل في النشاطات الاجتماعية الأهليـة (كالأنديـة الرياضية والجمعيات الكشفية والمؤسَّسات التعليمية والاستشفائية).

٤- التأكيد على صدقية قيم الاعتدال وتوسيع قاعدتها التربوية.

٥- إغناء الثقافة الحوارية التي تقوم على عدم رفض الآخر، والانفتـاح على وجهة نظره واحترامها، وعدم التمدرس وراء اجتهادات فكرية صدئة من خلال التعامل معها – أي مع هذه الاجتهادات – وكأنها مقدَّسات ثابتـة غير قابلة لإعادة النظر.

ينطلق الحوار من قواعد منطقية وعلمية تعتمد على الحجة والبرهـان، ويتوسل الجدال بالتي هي أحسن والموعظة الحسنة، فالله خاطب موسى بقوله: "اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي(٤٢) ، اذْهَبَـا إِلَـى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(٤٣). فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى(٤٤) طه. ويأمر باتباع الحكمة في الدعوة: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَـى اللَّـهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣). وَلَا تَسْتَوِي الْحَـسَنَةُ وَلَـا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّـهُ وَلِـيٌّ حَمِيمٌ"(٣٤) فصلت.

إن في ثقافة الحوار في الإسلام آدابًا وقيمًا ومنهجًـا أخلاقيًـا يحتـرم الإنسان وحريَّته في الاختيار، كما يحترم حقَّه في الاختلاف وفي المجادلة، وفي النتيجة أن "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـامٍ لِلْعَبِيدِ"(٤٦) فصلت".([٢٤])

---

[٢٤]- فضل الله (محمد حسين)، "الحوار: أبعاد وايحاءات ودلالات"، مجلة المنطلق، عدد ١٠٥، ربيع الأول ١٤١٤ هـ، ص ١٦.

## أخـــلاقيات الخـــلاف ([٢٥])

للخلاف آداب وأخلاق يجمل الاتصاف بها والوقوف عليها للأخذ بهـــا، ومن أبرزها :

أولاً: عدم التثريب بين المختلفين؛ فلستَ بأصدق إيماناً بالضرورة، ولا أوسعَ علماً، ولا أرجحَ عقلاً ممن تختلف معه، ولهذا قال يحيى بن ســـعيد: ما برح المستفتون يسألون، فيجيب هذا بالتحريم، وهذا بالإباحة، فلا يعتقد الْمُبيحُ أن الْمُحَرِّمَ هلك، ولا يعتقد الْمُحَرِّمُ أن المبيحَ هلك.

وكان الإمام أحمد يقول: ما عبر الجسر إلينا أفضل من إسحاق، وإن كنا نختلف معه في أشياء؛ فإنه لم يزل الناس يخالف بعضهم بعضا.

كتب أحدهم رأياً في مسألة من المسائل الفقهية ونشرها؛ فقال له أحـــد المناقشين: لماذا تبحث هذه المسألة التي لم يبحثها العلماء من قبلك؟

قال له: لقد بحثوها وأوسعوها بحثاً.

قال له: إذاً فلماذا تبحثها وقد بحثوها؟ ألا يكفيك بحثهم عما فعلت؟

إن أفهام الرجال ليست وحياً، والمدارس الفقهية، أو الدعوية ليست هي الإسلام، وإن كانت تنتسب إليه وترجع إليه.

وفي صحيح مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَـــنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ : ( وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِـــصْنٍ فَـــأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِـــنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ

---

[٢٥])- سلمان بن فهد العودة، أخلاقيات الاختلاف، . author.asp?name/ ٢٠٠٣/٩/١٣

تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلاَ تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَــى حُكْمِــكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ).

لاحظ أن النبي ﷺ يوصي رجلاً من أصحابه اختـاره لقيـادة الجـيش، والنبي ﷺ حاضر بين أظهُرهم، ويقول له: لا تنزل الناس علـى ذمـة الله وذمة رسوله، ولا على حكم الله وحكم رسوله؛ لأنك لا تدري أتصيب فـيهم حكم الله وحكم رسوله أم لا ، ولقد سمعت بأذني غير مرة من يتكلم بمسألة قصارى ما يُقال فيها: إنها اجتهادية؛ فيقول: أنا لا أتكلم من قبل نفسي أنـا لا أقول برأي، وإنما هذا منهج الله، هذا حكم الله، و أقول: سبحان الله؛ فهل الآخرون يأخذون من التوراة، أو الإنجيل؟ كلا؛ بل الجميع يـدورون علـى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن يكون المعنـى قـابلاً لأكثر من اجتهاد، وأكثر من محمل، وأكثر من رأي.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: لا يجوز أن يقول لما أداه إليه اجتهـاده، ولم يظفر فيه بنص إن الله حرم هذا وأوجب هذا، أو هذا حكم الله.

ويقول ابن تيميه -رحمه الله-:ولكن كَثِيرًا من النَّـاسِ يَنْـسُبُونَ مـا يقولونه إلى الشَّرْعِ وليس من الشَّرْعِ؛ بل يقولون ذلك إما جَهْلاً وَإما غَلَطًا وَإما عَمْدًا وَافْتِرَاءً.

إنه لا وصاية على الناس ولا إلزام بمذهب معين، وقد عرض المنصور على إمام دار الهجرة مالك بن أنس أن يعمم كتاب الموطأ على الأمـصار، وأن يُلزم الناس بالأخذ به، فنهاه عن ذلك، وقال: يـا أميـر المـؤمنين! لا تفعل، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل وسمعوا أحاديث، ورووا روايـات، وعملوا بذلك، ودانوا به من أصحاب محمد صلى الله عليـه وسـلم ، وإن

ردهم عما اعتقدوه شديد؛ فدع الناس وما هم عليه وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم. ([26])

وهذا من فقه هذا الإمام وتقواه؛ فإن كثيراً من المختلفين لو استطاع أحدهم أن يستميل إليه السلطان ليتقوى به على خصومه؛ لفعل.

وقد وقع هذا كثيراً في التاريخ والواقع؛ فإن كثيراً من المختلفين من المذاهب الفقهية أو الاعتقادية، ربما استنصروا بالسلطان على خصومهم وأعدائهم؛ فأبعدوهم وآذوهم.

ثانياً: الإنصاف كما قال عمار رضي الله عنه في صحيح البخاري: (ثَلاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الإِيمَانَ : الإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ ، وَبَذْلُ السَّلامِ لِلْعَالَمِ ، وَالإِنْفَاقُ مِنَ الإِقْتَارِ ).

والإنصاف خلق عزيز يقتضي أن تنزل الآخرين منزلة نفسك في الموقف، والإنصاف ضرورة، وله قواعد منها:

١. أن ما ثبت بيقين لا يزول إلا بيقين؛ فمن ثبت له أصل الإسلام لا يخرج من الإسلام ويحكم بكفره إلا بيقين، ومن ثبتت له السنة لا يخرج منها إلا بيقين، وهكذا من ثبت له شيء؛ فإنه لا يُنزع منه إلا بيقين.

٢. الخطأ في الحكم بالإيمان أهون من الخطأ في الحكم بالكفر؛ أي لو أنك حكمت لشخص بالإسلام بناءً على ظاهر الحال، حتى لو كان من المنافقين مثلاً أو ليس كذلك؛ فإن هذا أهون من أن تتسرع وتحكم على شخص بالكفر، ويكون ليس كذلك؛ فتقع في الوعيد (وَمَنْ دَعَا رَجُلاً بِالْكُفْرِ أَوْ قَالَ : عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلاَّ حَارَ عَلَيْهِ )، أي رجع عليه .

---

[26])- المرجع السابق.

٣. في مسائل الاجتهاد لا تأثيم ولا هجران، وهذا ذكره ابن تيمية -رحمه الله- وهذا مذهب أهل السنة: أنهم لا يرون تأثيماً لكل من اجتهد في المسائل كلها من غير تفريق بين الأصول والفروع، فمن استفرغ وسعه في معرفة مراد الله عز وجل ، وكان أهلاً لذلك، فإنه لا يأثم بهذا الاجتهاد بل هو بين أجر وأجرين، فلا تأثيم في مسائل الاجتهاد، ولا ينبغي أن يكون ثمة تهاجر بين المؤمنين.

٤. التحفظ عن تكفير فرد بعينه أو لعنه، حتى لو كان من طائفة، أو كان من أصحاب قولٍ، يصح أن يوصف أنه كفر، وها هو الإمام أحمد -رحمه الله- كان يُكفّر الجهمية، ويكفر من يقول القرآن مخلوق، ومع ذلك لم يكفر أحداً منهم بعينه، لا المأمون ولا سواه، بل كان يدعو له، ويستغفر له، ويجعله في حلٍ مما صنع فيه .

٥. الأخذ بالظاهر، والله يتولى السرائر، والنبي ﷺ يقول: ( إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ ) .

٦. تسلط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، ولقد اتفق أهل السنة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ، بل عامة المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ، يقول ابن رجب: أكثر الأئمة غلطوا في مسائل يسيره، مما لا يقدح في إمامتهم وعلمهم فكان ماذا؟ لقد انغمر ذلك في بحر علمهم، وحُسن مقصدهم، ونصرهم للدين، والانتصاب للتنقيب عن زلاتهم ليس محموداً ولا مشكوراً، لاسيما في فضول المسائل التي لا يضر فيها الخطأ، ولا ينفع فيها كشفه وبيانه.

والعجيب أن كثيراً من الناس قد يتحفظون ويتورعون عن أكل الحرام مثلاً، أو عن شرب الخمر، أو عن مشاهدة الصور العارية

والمحرمة، ولكن يصعب عليه كف لسانه؛ فتجده يَفْرِي في أعـراض الأحياء والأموات ولا يبالي بما يقول، ولهذا قـرر العلمـاء أن كـلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به، لاسيما إذا لاح أنـه لعـداوة أو لمذهب أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصم الله.

قال الذهبي: ما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئتُ لسردت من ذلك كراريس.

سأل أحمد بن حنبل -رحمه الله- بعض الطلبة من أين أقبلتم؟ قـالوا: جئنا من عند أبي كُريب، وكان أبو كُريب ينالُ من الإمام أحمد، وينتقده في مسائل؛ فقال نِعم الرجل الصالح! خذوا عنه وتلقوا عنه العلم، قـالوا: إنـه ينال منك ويتكلم فيك! قال أيُ شيء حيلتي فيه؟ إنه رجلٌ قد ابتُلـي بـي، وحدث الأعمش عن زرّ بن حُبيش وأبي وائل، وكان زر بن حُبيش علويـاً؛ يميل إلى علي بن أبي طالب، وكان أبو وائل عثمانياً، وكانوا أشـد شـيء تحاباً وتواداً في الله عز وجل، وما تكلم أحدهما في الآخر قط حتى ماتا، ولم يُحدث أبو وائل بحضرة زر؛ لأنه كان أكبر منه سناً، ولهـذا قـال الـذهبي -رحمه الله-: وهو يترجم لأبي محمد بن حزم صـاحب المُحلـى وشـيخ الظاهرية، قال: ولي ميل لأبي محمد بن حزم؛ لمحبته للحـديث الـصحيح ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقول في الرجال والعلل، وفي المسائل البشعة في الفروع والأصول، وأقطع- لاحظ قوله: وأقطع- بخطئه في غير ما مسألة، ولكني لا أكفره ولا أضلله، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين، وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه.

إن من الإنصاف أن تقبل ما لدى خصمك من الحق والصواب، حتى لو كان فاسقاً، بل حتى لو كان مبتدعاً، بل حتى لو كان كافراً، ولذلك اسـتنكر ابن تيمية على بعض المنتسبين للسنة فرارهم من التصديق، أو الموافقـة

على حق يقوله بعض الفلاسفة، أو المتكلمين؛ بسبب النفرة والوحشة، أو إعراضهم عن بعض فضائل آل البيت، وقال -رحمه الله-: لا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني، فضلاً عن الرافضي قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده كله، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق.

ويقول الشيخ عبد الرحمن السعدي -رحمه الله- في تفسيره: إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع؛ فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق وبعدها عنه.

وهكذا تلوح لك في هذه النصوص، أمارات الإنصاف والعدل، حتى مع الخصوم المباعدين، فضلاً عن الإخوة المتحابين.

ثالثاً : استعمال الصبر والرفق والمداراة: واحتمال الأذى ومقابلة السيئة بالحسنة، كما أمر الله -تبارك وتعالى- في ذلك في غير ما موضع من كتابه "وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[فصلت:٣٤]، وبهذا استمال النبي ﷺ وسلم قلوب أعدائه، وعالج قسوتها وشماسها ونفارها، حتى لانت واستقادت وقبلت الحق؛ فالكلمة الطيبة والابتسامة الصادقة الصافية، والإحسان إلى الآخرين بالقول والفعل من أسباب زوال العداوة وتقارب القلوب "وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"[فصلت:٣٥] .

كُنَّا مِنَ الدِّينِ قَبْلَ اليَومِ فِي سعَةٍ ... حَتَّى بُلِينَا بِأَصْحَابِ الْمَقَايِيسِ

قَومٌ إِذَا اجْتَمَعُوا صاحوا كأنهم ... ثَعَالِبٌ ضَبَحَتْ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ

فسمع أبو حنيفة بذلك؛ فأرسل له هدية، وكانت هذه الهدية رشوة، لكنها رشوة بطريقة

شرعية صحيحة فلما قبض الهدية قال:

إذَا مَا النَّاسُ يَوماً قَايَسُونَا    بِآبِدَةٍ مِنَ الفُتْيَا طَرِيفَهْ
أَتَيْنَاهُمْ بِمِقْيَاسٍ صَحِيحٍ    مُصِيبٍ مِنْ قِيَاسِ أَبِي حَنِيفَهْ
إذَا سَمِعَ الفَقِيهُ بِهَا وَعَاهَا    وَأَوْدَعَهَا بِحِبْرٍ فِي صَحِيفَهْ

ومن ذلك: ألا تكثر العتاب والمحاسبة، وفي صحيح البخاري (باب من لم يواجه الناس بالعتاب) وذكر فيه حديث عائشة قَالَت صنع النبي ﷺ شَيْئًا فَرَخَّصَ فيهِ، فَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النبي ﷺ، فَخَطَبَ، فَحَمِدَ اللَّهَ ثُمَّ قَالَ: (مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشيءِ أَصْنَعُهُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً )، ومن ذلك عدم الانتقام والتشفي، والانتصار للنفس.

رابعاً: عدم التعصب للمذهب: أو الطريقة أو الشيخ أو الجماعة أو الطائفة أو الحزب؛ ولهذا قيل: " حُبكَ الشيءِ يعْمِي ويُصِمُّ "، إن المتعصب أعمى، لا يعرف أعلى الوادي من أسفله، ولا يستطيع أن يميز الحق من الباطل، وقد يتحول المتعصب بنفس الحرارة ونفس القوة من محب إلى مبغض؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في سنن الترمذي، ويروى مرفوعاً، والموقوف أصح: [ أَحبِب حَبِيبَكَ هَوْنًا ما عَسَى أَنْ يَكُونَ بغيضك يوماً ما، وَأَبْغِضْ بغيضك هَونا ما عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يوماً مَا].

وقد يكون الغلو أحياناً، أو المبالغة، أو التعصب لأقوام، هم أشد ما يكونون بعداً عن ذلك وكراهية له، ولكنهم قد يُبتلون بمن يتعصب لهم أو يغلو فيهم، فهذا الإمام محمد بن يحيى النيسابوري أخذه الحزن على الإمام أحمد لما مات في بغداد؛ فقال حقٌ على أهل كل بيت في بغداد أن يقيموا مناحة على موت الإمام أحمد؛ فقال الذهبي -رحمه الله-: إن النيسابوري تكلم بمقتضى الحزن، لا بمقتضى الشرع، وإلا فإن النياحة منهيٌ عنها في الشريعة.

وقال بعضهم: في خُراسان يظنون أن الإمام أحمد من الملائكة، ليس من البشر. وقال آخر: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة.

قال الذهبي: هذا غلو لا ينبغي.

وقال محمد بن مصعب لسوط ضربه أحمد أكرم من أيام بشر الحافي كلها؛ فقال الذهبي بشر عظيم القدر كأحمد، ولا ندري وزن الأعمال، إنما هو عند الله تعالى، والله أعلم بذلك.

لقد كان الإمام أحمد -رحمه الله- رجلاً متواضعاً، بعيداً عن التكلف، ولكنَّ هذه الأشياء قد تخرج من أقوام في حالة انفعال في حزن أو غيره، وبكل حال فهي أقوال مرذولة ينبغي اطراحها والرد عليها وإنكارها، كما فعل الذهبي وغيره.

والتعصب يورث أحياناً نقيض ذلك، يورث ازدراء الآخرين ممن لا يدخلون معه في عصبيته، كما يروى عن بعض فقهاء الكوفة مثلاً أنه حج ونزل بالحجاز ولقي علماءها: عطاء وطاووس وسعيد بن جبير وغيرهم، فلما رجع إلى الكوفة قال: يا أهل الكوفة! أبشروا فوالله لأنتم أهل فقه الزمان كله، لفقهاء الحجاز كلهم عطاء وطاووس وسعيد مثل صبيانكم بل مثل صبيان صبيانكم

ولا أدري ما المراد بصبيان صبيانكم، يعني صبيانكم أفقه منهم.

وقال أحدهم عن ابن الجوزي وهو يعدد مثالبه وأخطاءه فيما يزعم قال: ما رأيت أحداً يوثق بعلمه ودينه وعقله راضياً عنه.

فعلق الذهبي بقوله: إذا رضي الله عنه فلا اعتبار بهؤلاء.

إنك كثيراً ما تسمع التقليل من شأن فلان؛ لأنه ليس على مذهبنا، ليس على طريقتنا، ليس من جماعتنا، فلان لا علم عنده، فلان ليس بشيء.

قال أبو نُعيم عن رجل بلغه أنه يدرس الحديث قال: ماله وللحديث هـو بالتوراة أعلم،

وهنا نقول: ربما يدرس المسلم التـوراة لـيعلم حقهـا مـن باطلهـا ومنسوخها وصحيحها ومُحرفها ويرد على أهل الكتاب، لكـن لا ينبغـي أن يُحال بين أحد وبين قراءة السنة النبوية، أو يُقال هو بالتوراة أعلـم علـى سبيل الوقيعة به أو النيل منه، أو الازدراء والتنقص. (٢٧)

## الحوار والبنية الفكرية الاجتماعية

لاشك أن غياب الحوار في الواقع الاجتماعي له عدة أسـباب، بعـضها ناشئ من خلل في الفهم الجمعي للمجتمع، وبالخصوص في حالـة الرتـب الاجتماعية، ومنشؤها التربية والتنشئة منذ الصغر، فكلمة استمع لمن هـو أكبر منك واحترمه، وأطع أوامره دون إبداء الرأي، والمثل يقول (أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة)، ومن إشكاليات مثل هذه وغيرها، يتم تنـشئة جيـل مستمع جيد، ومطيع جيد، من السهل قيادته وتسييره، وفي سبيل إخـضاع المجتمع وترويضه، تتضافر عدة عوامل منها دينية وسياسـية وتربويـة، ونذكر بعض الأسباب والإشكاليات اللاتي تقف حجـر عثـرة فـي طريـق الحوار:(٢٨)

١- التربية والتنشئة، فالتربية تكون على أساس من مصادرة الحرية، ومسخ الشخصية، فالطفل منذ الصغر تمسخ شخـصيته ويـصادر رأيه، ويمنع من التعبير عن آرائه حتى في الأمور التي تتعلق بـه مباشرة ويستمر ذلك حتى سن النضج، وما بعده، وهذا ينتج جـيلاً مقسماً بين شخصية مستبدة، وأخرى ضعيفة.

---

٢٧)- سلمان بن فهد العودة، أخلاقيات الاختلاف، مرجع سابق.

٢٨)- حسين معتوق سياب، "الحوار والنقد، رؤية اجتماعية" في موقع قطيفيات. ٢٠٠٣/٧/٢٩.

٢- غياب ثقافة الحوار من المنظومة الاجتماعية، فيتم ممارسة الإلغاء، والإقصاء بين طبقات المجتمع ورتبه.

٣- ممارسة القيادات الاجتماعية تسلسل الاستبداد الطبقي، فكل يمارس الاستبداد على من هو دونه.

٤- التشنج وإغلاق الفكر اتجاه الرأي الآخر، وادعاء الحقيقة المطلقة (الدغمائية).

٥- العرف الاجتماعي والجمود عند الفكر الموروث، ورهبة المقدس الديني في غياب العقل والمنطق.

٦- الخوف على المكانة الاجتماعية، وسحب البساط من تحت أقدام المتنفذين، والمتسلطين سواء من التيار الديني أو السياسي.

ومن ثم فإنه لكي يتم الحوار البناء المثمر يجب علينا أن نركز على:

حسن الخطاب وعدم الاستفزاز وازدراء الغير، فالحوار غير الجدال، واحترام أراء الآخرين شرط نجاحه،[٢٩] ولنا في حوار الأنبياء مع أقوامهم أسوه حسنة، فموسى وهارون أمرا أن يقولا لفرعون قولا لينا لعله يذكر أو يخشى، وفى سورة سبأ يسوق الله لنا أسلوبا لمخاطبة غير المسلمين، حيث يقول في معرض الحوار. ". وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"(٢٤) سبأ" .

أن يصدر عن قاعدة قدرها علماء المسلمين وهى قاعدة "قولي صواب يحتمل الخطأ وقول غيري خطأ يحتمل الصواب " فالحق ضالة المؤمن، وضالة الإنسان العاقل، وإتباع الغير وإتباع الشهوات، مما عابه القرآن على الكافرين، وعده سببا لهلاك الأمم.

[٢٩])- عبد الله حمدنا الله، جريدة المسلمون - عدد ٣٣٧-٨ المحرم ١٤١٢.

**والذي يحسم الخلاف بين المسلمين هو المرجعية المعرفية للمسلمين، وهى القرآن والسنة، "فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ" (٥٩)النساء.**

**وفي الفصل التالي نعرض لتصور مستقبلي لعالم بلا صراع مبني على الحوار والتعايش السلمي مع الآخر.**

# الفصل الخامس

## عالم بلا صراع
## الإسلام دين تسامح

# عالم بلا صراع

## (الإسلام يدعو إلى التسامح والسلم)

### مقدمة:

يعد مفهوم "حوار الأديان" مفهوماً قديمًا، ربما قدم الأديان نفسها، ولكنه اكتسب زخمًا أكبر في العقود الأخيرة، أما "حوار الحضارات" فهو جديد نسبيًا، وربما جاء الاهتمام الواسع به في عقد التسعينيات من القرن الماضي ردًا على أطروحة "صامويل هنتنجتون" (صدام الحضارات) وما أثارته من جدل، ونحاول أن تستشرف إمكانية ومواضع التواصل بين هذه الأرضية، وجهود حوار الحضارات المتزايدة، من أجل فهم النفس والآخر فهما مستنيرا.

تمثل "الاستنارة": حالة كيفية ونوعية من "الوعي الفاعل" بحقيقة "الذات" و"الواقع" و"المحيط".. فلا بد فيها من الوعي "بالذات الحضارية والثقافية" والمعرفة الواعية "بالآخر الحضاري والثقافي" أيضاً.

والذين تقف ثقافتهم عند موروثهم الفكري لا تتعداه - هم في أحسن الأحوال - كمن ينظر بعين واحدة، فلا يبصرون إلا ذاتهم، أو كالأعمى الذي لا يدرك من الوجود غير جسده الذي يتحسسه بيديه!

وكذلك حال ثقافة الذين ضربت عقولهم في "المصانع الفكرية" للحضارات الأخرى، الذين جهلوا مواريثهم، وهوية أمتهم، وثقافة الحضارة التي يحملون أسماءها، وإلى شعوبها ينتسبون..

إنهم مستنيرون.. لكن استنارتهم لا ترى غير الآخر، ولهم وعي، لكن وعيهم لا يدرك الذات الحضارية التي يستظلون بعنوانها العقدي والـوطني والقومي والثقافي.

ومن هنا، كانت الاستنارة الكاملة الفاعلة هي الوعي الحقيقي "بالذات الحضارية" و"بالآخر الحضاري"، وإدراك وإعمال قوانين الأخـذ والعطـاء، والتفاعل الصحي بين تيارات الفكر الإنساني، وثمرات العقول في مختلـف الثقافات والحضارات.

فالذين يكتفون "بذاتهم" الثقافية والحضارية، لابد وأن يقـودوا هـذه "الذات" إلى الذبول والاضمحلال، مثلهم في ذلك كمثل المضرب عن الطعام، يعيش على الذات حتى يستهلك مكوناتها!

وكذلك الذين يتجاهلون أو يجهلون "الذات" الثقافية والحضارية لأمتهم، ويتقمصون "ذوات" الآخرين، لابد وأن تنتهي هذه "الذات"، التي فرطوا فيها، إلى الذبول والاضمحلال!. فمعرفة النفس لا تغني عن معرفـة الآخـرين.. والعكس صحيح.

ولا يحسبن أحد أن هذا المنهاج ،في الاستنارة الحقيقية، هـو وليـد الواقع المعاصر، وما شهد ويشهد من تسارع وتعاظم فـي ثـورة وسـائل الاتصال.. فمن القرآن الكريم نتعلم المنهاج الذي يـدعونا، بعـد الـوعي بالذات، واليقين بالحق الذي نؤمن به، وننتمي إليه، ونجاهد في سـبيله،.. يدعونا هذا المنهاج القرآني إلى التعرف على الآخرين.. بل والتأمل فيمـا يقولونه عنا، والتدبر في "صورة ذاتنا" لدى هؤلاء "الآخرين".([1])

---

[1])- محمد عمارة "الاستنارة بين الذات والآخر.. مقاربة قرآنية لاستشفاف الضرورات"، في ٢٠٠٣/٨/٧، موقع الندوة /author.asp?name=ي

## حوار الحضارات.. مصالحة أم مصالح؟[2]

إن الحوار أو التواصل بين الحضارات المختلفة هو عملية تاريخية تتسم بالتأرجح بين وتائر معتدلة نسبيًا تارة، ووتائر تؤدي إلى تفاقم الخلافات الموجودة بين الحضارات المختلفة تارة أخرى.

والسؤال هو: ما هي أسباب هذه التذبذبات؟ هل هي مزمنة؟ هل وراءها مصالح معينة؟ من يدفعها حتى تتحول إلى أزمات خطيرة أو حتى إلى اشتباكات مسلحة؟ ما هو دور الأديان في هذا الصدد؟ وكيف يمكن الخروج من لحظات الصدام لفترات التفاعل والتعايش؟ وما هي الحواجز التي تعرقل الحوار؟ وكيف نتغلب عليها؟

### لغة التواصل الإنساني:

إن التواصل الإنساني يختلف عن التواصل بالحاسوب، وهو أكثر من مجرد نقل معلومات، ويستوجب نجاحه أكثر من محض الاشتراك في لغة يفهمها الطرفان، التواصل الناجح يحتاج إلى معارف مشتركة: معارف مشتركة حول رؤية كل طرف للعالم، وحول القيم التي يتبناها كل طرف، وحول موقف كل طرف من الطرف الآخر، ولا يجوز أن نرى في الغاية من هذه المعارف الخاصة بالتواصل مع الطرف الآخر بالضرورة الوصول إلى إجماع، بل التواصل لا يتناقض مع استمرار الاختلاف وعدم الوصول لاتفاق في كل القضايا، وأزعم أنه يمكن للتواصل أن يكون ناجحًا حتى ولو كانت العقائد والقيم والآراء مختلفة تمامًا.

بيد أنه من البديهي أن يعرف كل طرف رؤية الطرف الآخر ومواقفه معرفة جيدة، ولو فشلنا في إقامة التواصل واستمراره فسوف نفشل في

---

[2])- إيكيهارد شولتس، حوار الحضارات .. مصلحة أم تصالح؟ جريدة المحايد، ٩/٨/٢٠٠٣

تحقيق التعايش البنَّاء، ليس فقط بين الحضارات، بل أيضًا على مستوى التواصل الشخصي، أي أنه لا مفر من إنجاح "التواصل" بين الحضارات لمن ينشد تحقيق "التعايش" بين الحضارات.

إن القول "نحن في الغرب" يفترض وجود "الشرق"، وهذا "الشرق" ينبغي تعريفه بشكل مركب وليس فقط جيو-إستراتيجيًا، وهذا التعريف لا يمكن أن يعتمد فقط على التاريخ المعاصر أو على وجود الكتل العالمية، ويبدو لي أن هذا المصطلح (أي الشرق) بعد أن كان وصفًا للمعسكر الشيوعي وأتباعه من الأنظمة الأوروبية التي كانت أعضاء في حلف وارسو تحول بصورة ما إلى وصف للعالم الإسلامي، وتم استعادة سمات العداء التي تعود لقرون سالفة بين أوروبا والعالم الإسلامي، مع استمرار صورة العدو الخطر التي كانت مخصصة منذ سنوات قليلة للمعسكر الشيوعي.

ولا شك أنه من حق البعض أن يتخيل عالمًا صراعيًا لا مجال فيه للتفاهم، أو أن يتخيل آخرون عالمًا مثاليًا خاليًا من أي مشاكل تواصلية، فهذه التصورات موجودة، ومع ذلك ينبغي أن نعرف أن عالمنا الحقيقي سيختلف دومًا عن هذا العالم القبيح الذي لا يمكن فيه عبور فجوة الاختلاف، أو حتى هذا العالم المثالي الذي يفهم فيه كل إنسان الآخرين رغم كل التباينات الحضارية، العالم الحقيقي مركب، ولا يمكن اختزاله لمفردات وتصورات بهذه البساطة.

إن المشاكل التواصلية ستستمر حتى مع توافر حسن النية لدى الجميع، وقد تؤدي الاختلافات والتباينات الثقافية إلى سوء الفهم وإلى أخطاء في التقييم، ولذلك يجب علينا ألا ننطلق من الرغبة في تحقيق ما يبدو وكأنه الحالة المثالية، بل ربما كان الأجدى أن نبدأ بمحاولة منع

حدوث الأسوأ، فكلما اتسعت دوائر العولمة اصطدمت حتمًا العقائد والقيم المختلفة، وهذا الاصطدام قد يؤدي إلى عواقب أكثر تدميرًا لو لم نستطع أن نحلَّ النزاعات حلاً ينبني على "التعارف" والتواصل.

يجب علينا إذن أن نعمل بكل ما في وسعنا للحيلولة دون حدوث أسوأ الأوضاع، أي انهيار التواصل ونهايته خاصة في مجال التواصل بين الثقافات.

والاستنتاج المنهاجي هو أنه لا يجوز أن نفكّر في كيفية التواصل بين الحضارات فحسب، بل يجب علينا أن نلتقي، ونقوم بخلق السياقات والدوائر التي يتم فيها التواصل المباشر بين الحضارات، علمًا بأن التواصل يتم يوميًا إعلاميًا وفكريًا وأدبيًا وتجاريًا وعسكريًا، بل وإرهابيًا! وعلى ضوء ذلك يجب علينا التفكير في كيفية الحيلولة دون تحول التواصل إلى عملية عشوائية لا يستفيد منها إلا طرف واحد، أو أطراف على نفس الجانب دون الجانب الآخر من التواصل.

والتواصل الناجح لا يعني أنه من المفروض أن نعرف كل شيء عن الآخر، ولا أن تتمتع كل المعلومات بنفس القيمة والثقل، ويجب بالضرورة ألا نعرف كل ما يمكن معرفته حول موقف الآخر من العالم والقيم وآفاق المستقبل.

إن المعارف التي نحتاج إليها هي المعارف التي تتركز على ما هو جوهري فقط لحامل هذه المعارف، أي ما يسمى بجوهر هويته، أي الهوية الشخصية في التواصل الشخصي أو التواصل بين الأشخاص أو الأفراد، والهوية الحضارية أو الثقافية في التواصل بين الثقافات أو الحضارات، ويمكن تحديد المستوى الشخصي أو الجماعي على أساس تحديد المسافة بيننا وبين الآخر، أي ما هي الاختلافات أو التباينات بيننا؟

## تناحر أم مساحات اشتراك؟

هل العلاقة بالضرورة هي تناحرية؟ هل لا يمكن حلها إلا على حساب الآخر؟ هل هي لعبة صفرية لا بد فيها من خاسر ومنتصر فقط؟ هل تؤدي الهيمنة الاقتصادية حتمًا إلى هيمنة ثقافية؟ هل هناك قيم قائمة بحد ذاتها؟ هل هناك قيم أبدية خاصة بكل الحضارات أم فقط بالبعض منها؟ هل يقف الآخر من هذه القيم نفس الموقف؟ هل هناك قيم تتمتع بنفس الأهمية على خلاف الحضارات والمراحل التاريخية؟ من يحدد ما هي القيم "المشتركة" التي يجب الحفاظ عليها؟

الجواب على كل هذه الأسئلة مرتبط بتعريف الهوية وبحملات التضليل والدعاية بأشكالها المختلفة، وهدف كل الصراعات الحضارية هو في النهاية الهيمنة الفكرية والهيمنة في مجال تحديد الهوية، ومن يستطيع أو يعتقد أنه يستطيع أن يحدد ما هو مرغوب فيه وما هو غير مرغوب فيه حضاريًا.

وقبل مناقشة القيم المختلفة والاختلافات أو التباينات يجب أن نتفق على الحد الأدنى من القيم المشتركة، ما هي هذه القيم إن وجدت؟ وفي هذا المجال نعاني كلنا من مرض التضليل الذاتي أي مرض التخيل، تخيل أو وهم أننا نحن الذين نمثل القيم الصحيحة والحميدة وقيم الآخرين هي أقل قيمة أو تعود إلى مراحل تاريخية قد اندثرت، وإلى الآن لا نعرف الدواء الذي يضمن الشفاء التام من هذا الوهم، لكن في الوقت نفسه يجب أن نفهم أن هذا المرض بالذات هو الضمان لاستمرار قيمنا والشرط الأساسي لوجود التعددية الحضارية والثقافية، ولا يمكن أن أتصور أن العالم كله يتبنى القيم نفسها ويأكل الأكل نفسه... وإلخ؛ وذلك لإيماني بتعدد الحضارات، إن

"التعارف" -وبحق- هو الوجه الآخر لعملية "التدافع"، والعلاقة بين الحضارات هي علاقة جدلية مركبة.

ودواء الاستعلاء ووسيلة الخروج من هذا التضليل الذاتي في الاستماع إلى آراء الآخرين وما يقولونه عنا، وهي وسيلة ناجحة للغاية لو أردنا أن نصغي للآخرين، بل يمكن القول بأن الآخرين يعرفوننا أحسن مما نعرف أنفسنا في الكثير من المجالات، وإننا قد نكتشف في مرآة الآخر بعض الحقائق التي لم نكن نعرفها عن أنفسنا، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أننا نحن الذين نعرف الآخرين معرفة أدق منهم بصورة مطلقة، وهذا يستلزم أن ينشغل البحث العلمي بتحليل موقف الآخرين منا وما يعرفون عنا ومدى تغيّر هذه المواقف.

لا يصلح التواصل إذا صرنا القاضي والحكَم ومن يحدد قواعد اللعبة، بل الاعتراف بالآخر يتطلب الاعتراف بحقه في المشاركة في تحديد القواعد من البداية واختيار الأسئلة التي يمكن أن تطرح والتي يجب أن تناقش.

ومشاكل الهوية لا تنشأ كمشاكل مجردة؛ ولذلك لا يمكن معالجتها معالجة مجردة بل هي عادة مرتبطة بمشاكل عملية ملموسة تعود إلى تحولات عميقة أو طارئة في الحياة العامة والخاصة، ويجب أن نتساءل: هل نحاول أن نحارب هذه التحولات العميقة أو الطارئة؟ بل هل نستطيع فعليًا محاربتها؟ أم يحسن بنا معالجة المشاكل الناجمة عنها؟

لذلك يجب الإجابة على الأسئلة التالية:

-ما هي الأسباب التي تهدد التواصل بين الحضارات بالانقطاع؟

-ما هي مشاكل الهوية الحقيقية أو الوهمية المرتبطة بها؟

-ما هي الظروف التاريخية والدينية والاجتماعية الموضوعية المرتبطة بها؟

كيف نحل النزاعات المزمنة؟

أهم الأسئلة في الحقيقة هي:

ما العمل؟ وكيف نعالج انقطاع التواصل الموجود؟ وكيف نحل النزاعات المزمنة؟

إن الباحثين مولعون بالنظريات ويفتقدون أحياناً الشعور بالمشاكل الواقعية القائمة، وفي المقابل فإن الناس العاديين يتصرفون في حدود الخبرة المتاحة وفي ضوء معرفتهم بطبيعة الطرف الآخر، وهم يجيدون أحيانًا ما لا يجيده الباحثون، ولذلك يجب تشجيع الاتصال بمن خارج البرج العاجي، أي بالقيادات المجتمعية ورجال الدين والفنانين والكتاب والمثقفين وكل من يستطيع تقديم الحلول المنشودة والقابلة للتطبيق.

## صراع من طرف واحد:

إن الهدف في مجال التواصل بين الحضارات يجب أن يكون أولاً الحفاظ على التواصل الحضاري القائم أو الوقاية من لحظة انقطاع التواصل القائم، وثانياً تطويره في اتجاه تصحيح الأخطاء وخلق المناخ الملائم للتقريب بين أبناء الحضارات المختلفة.

إن أطروحة صراع أو صِدام الحضارات التي كثر الحديث عنها في الآونة الأخيرة إنما هي في رأي البعض بالعالم الإسلامي جزء من الدعاية الغربية لفرض حضارتها على الشعوب الأخرى، وبالتالي الهيمنة على العالم ومحاولة رخيصة -لا بل غبية- لتمرير هذه التصورات، حيث إنه سرعان ما يتضح للقارئ الحصيف أن كتاب هنتنجتون وما يحتويه -إن صرفنا النظر عن عنوانه- لا يتعدى كونه دراسة تحليلية لثمانية أجزاء مختلفة من العالم سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، ولم يتطرق هنتنجتون فيه إلى جوهر الحضارة، ولا حتى بالقدر الذي يوحي به عنوان الكتاب، فإن كان الكاتب

جادًا فعلاً في تحليل صراع الحضارات لكـان عليـه أولاً أن يبـدأ بتحليـل حضارته أو تلك الثقافة التي ينتمي إليها ويدعو لقيمها، غير أننا لا نُنكـر على هنتنجتون نجاحه في إصدار هذا الكتاب؛ حيث إن نجاحه لا يعود إلـى مضمون الكتاب بل إلى الترويج لفكرة أسماها صراع الحـضارات والتـي أصبحت حديث المقاهي.

إن أطراف أي صراع حقيقي لا بد أن تكون متكافئة لـيس حـضاريًا فحسب، بل أيضاً اقتصاديًا وعسكريًا، وأن تكون الرغبـة فـي التـصارع متبادلة وتمثل إرادة الطرفين.

وانطلاقاً من هذا ربما نتفق مع هنتنجتون في أن هناك فعلاً صـراعا حضاريا، غير أن هذا الصراع ينطلق من طرف واحد وهو الحضارة الغربية التي تسعى لفرض نفسها بصفتها الحضارة البديلة أو المختارة أو الأرقـى التي ينبغي فرضها على الشعوب الأخرى، ومن هـ يحق للعالم الإسلامي أن يسأل تحديداً عن نوع أو نمط الحضارة التي يريد الغرب فرضها عليه، هل هي حضارة حقوق الإنسان والتجارة المتكافئة والتبادل الحضاري واحتـرام سيادة الدول؟ أم حضارة اجتياح السلع الاستهلاكية الغربية للأسواق ودعـم النظم المستبدة ما دامت موالية للغرب وتحقق المخطط الإستراتيجي للـدول الكبرى.. حضارة صعود الجسد وجراحات التجميل وماكدونالـدز والكوكـا كولا؟

إنه لمن المسلم به -في رأي الكثير من مفكري العالم الإسلامي وغير الإسلامي- أن انهيار الاتحاد السوفييتي والكتلة الشرقية قد حفز الغرب إلى البحث عن عدو جديد يتناسب مع مقاييسه ومواصفاته، وإذا ما نظرنا إلـى الخريطة السياسية للعالم العربي والإسلامي لأدركنا مدى المـشاكل الجمـة والشائكة التي تعاني منها هذه الدول، وبالتالي تنامي الحركات الإسـلامية

الباحثة عن بديل نتيجة خيبة أمل شعوب هذه الدول ويأسها من الأنظمة القائمة في تحقيق الحد الأدنى من العدالة الاجتماعية والديمقراطية، كل هذه الأسباب والعوامل مجتمعة جعلت من الإسلام المرشح الأول لوضعه في الإطار الذي رسمه له الغرب.

إننا نرى أن أي شكل من أشكال الديمقراطية والقيم المرتبطة بها التي تُفرض من خارج الحدود إنما تؤدي بالتالي وبصورة حتمية إلى انتقاص في السيادة الوطنية لتلك الدولة ومصادرة قرارها السياسي، وأنا على يقين من أن العالم العربي على أتم الوعي بهذه الحقيقة؛ لذا فقد آن الأوان للتصدي لهذه المشكلة بإطلاق الحريات السياسية تدريجيًا وإشاعة الحد الأدنى من الديمقراطية، ولا يشترط في هذه الديمقراطية أن تسترشد بنفس القيم ونفس الآليات الموجودة في الديمقراطية الغربية، بل يجب أن تراعي الظروف المحلية الخاصة ومنظومة القيم الأخلاقية والدينية، وما يقدمه الدين الإسلامي من مقدمات وأنظمة وحلول للمعضلات المختلفة التي يواجهها المجتمع، إن تم ذلك فسيشكل -وبحق- مصدر قوة لهذه الأنظمة، وليس مصدر ضعف أو خطر كما يتصور البعض أحيانًا، وبالتالي يتم إسقاط كافة الحجج والذرائع وسحب البساط من تحت أقدام المتباكين على واقع الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم العربي.

## هل يريد الغرب ديمقراطية إسلامية حقا؟

وهنا يطرح السؤال نفسه حول مصداقية تباكي الغرب على غياب الديمقراطية في البلدان العربية، فهل هو جاد فعلاً في تطبيق مبادئ الديمقراطية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ أم فقط السماح بذلك القدر من الديمقراطية الذي يضمن للغرب تحقيق مصالحه الاقتصادية وضمان تدفق البترول بالشروط والأسعار التي يحددها هو نفسه؟

إن الصراع القائم فعلاً حاليًا والذي نشهد تطوره كل يـوم هـو فـي جوهره ليس صراع حضارات أو أديان أو ما شاكل ذلك، بل هو فـي آخـر المطاف صراع المصالح الاقتصادية والإسـتراتيجية، وأيـضاً -كمـا فـي العراق- صراع السيطرة على منابع البترول، فمصادر البترول التـي كـان يعتمد عليها الغرب لم تعد مضمونة، والبحوث العلميـة الخاصـة بإيجـاد مصادر بديلة ومتجددة للطاقة ما زالت في بداية الطريق، والتوصـل إلـى نتائج إيجابية في هذا الصدد ذات جدوى اقتصادية قد يستغرق عقودًا، كمـا أن مصادر البترول في الشرق الأوسط أصبحت غير مأمونة الجانب سياسيًا، وبما أن البترول يشكل شريان الحياة بالنسبة للغرب كان لا بد له إذن مـن التحرك لضمان مصادر بترولية آمنة يُعتمد عليها حتى إن اقتضى الأمر شن الحروب وإسقاط الأنظمة، سواء تحت ستار تحرير الشعوب من الدكتاتورية أو -كما يرى البعض- تجريد الشعوب من ثرواتها.

إن حل مشاكل التواصل بين الحضارات لا يمكن أن يتحقق إلا بتكامل الوسائل والأدوات، والحلول التي لا تُتَنَاول إلا على جانب واحد مثل الجانب الديني أو الإثني أو الاقتصادي، هي في آخر المطاف حلول جزئية وغالباً ما تبوء بالفشل.

إننا نحتاج إلى حلول تعتمد على تـضافر مختلـف فـروع العلـوم الإنسانية والاجتماعية والتعاون بينها، والمعنيون في هذا الأمر هم الفلاسفة واللغويون وأصحاب الدراسات الثقافية والـسياسية والتاريخيـة والدينيـة والقانونية والاقتـصادية (قبـل خبـراء الـسوق المـصرفية والـشبكات المعلوماتية)، والذين يجب أن يعملوا بصدق على تحليـل كـل مـا يحـيط بالتواصل بين الحضارات ومشاكله والحواجز التي تعيق تقدمه، نحو تعاون حضاري طويل الأجل، بعيدًا عن الحسابات الاقتصادية قصيرة الأجل التـي تواجه مخاطر جمة نتيجة عدم الاستقرار السياسي والاجتمـاعي علـى أي

حال، طالما استمرت الأوضاع الداخلية والتوازنات الإقليمية والدولية على ما هي عليه.

ويجدر بي في الختام الإشارة إلى تحدٍّ قد يبدو فرعيا وبسيطا، لكنه يمثل تهديداً لأي جهد مخلص في هذا المجال، إن من يبحث في هذا الإطار قد يعاني بسرعة من ضغوط معينة من النخب المستفيدة من هذا الاستقطاب في الرؤى، سواء النخب الأكاديمية والفكرية أم السياسية والاقتصادية، ففي صفوف كلا الطرفين من لا يريد التفاهم والوفاق بل يحارب كل المحاولات في هذا الاتجاه، والفرد عادة لا يستطيع أن يقاوم هذه الضغط المزدوج؛ فأترابه يشككون فيه، وقد يتهم بالخيانة، بل والعمالة (جيمس بيسكاتوري وجون أسبوزيتو في الولايات المتحدة اتهمهما البعض بالعمالة لجماعات المقاومة الإسلامية لمواقفهم المعتدلة، وجالاواي النائب البريطاني لحزب العمال الذي نشط ضد الحرب في العراق يتهم الآن بالعمالة لنظام صدام حسين)، أما الطرف الآخر من الحوار فعادة لا يميز بين أطياف الطرف الغربي، ولا يرى في الجميع إلا أعداء للعرب والمسلمين، وقد تكون الجامعات هي المؤسسات الأقل تأثرًا بهذه الضغوط؛ لأنها ليست مؤسسات يجوز فيها منع التفكير والتعبير، ويجب ضمان حرية البحث العلمي فيها، لكن هذا لا يحدث دائمًا.

والاستنتاج من هذا هو ضرورة وجود نوعين من التواصل، أولاً: التواصل في إطار الحضارة الواحدة، وثانيًا: التواصل بين الحضارات المختلفة.

ونعرف أن التواصل في الحضارة الواحدة أو التواصل الداخلي يمكن أن ينقطع، وهذه الحالة تؤثر بالتالي سلبًا على التواصل بين الحضارات.

ويبدو لي أن التواصل الداخلي انقطع في أكثر من حضارة، فكيف نستطيع أن نحقق التواصل بين الحضارات دون الوفاق أو الوحدة الداخلية في تعريف القيم لكل كيان حضاري؟ وهل يمكن مناقشة تباين القيم مع الحضارات الأخرى إلا بعد الاتفاق على تحديد القيم المميزة لكل منظومة حضارية؟ وما هي قيم الغرب؟ وما هي قيم الشرق؟ وهل تسميات "الغرب" و"الشرق" ابتداءً تسميات صحيحة؟ أم أنها بدلاً من أن تكون محض أوصاف جغرافية ومكانية تحولت بحد ذاتها لأيقونات ولأحكام قيمية على الجانبين تشكك في إمكانية المشترك الإنساني؟! من هنا فلنبدأ.

## بين التدافع والصراع:

الحديث عن الحوار في القرآن هو حديث مبارك من شأنه أن يضع البشرية على طريق الفعل الحضاري المنشود الذي يجعل ولد آدم قادرين بالفعل على الإنجاز الذي من أجله ذرئوا في هذه الأرض؛ لكي يعبدوا الله ﷻ، ولا يشركوا به شيئاً، ولا تصدق فيهم رؤية الملائكة حين قالوا: "أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ "(٣٠) {البقرة"}.

الحوار آلية أساسية في السير قدماً بالبشرية نحو تحقيق مشروعها الكامل الذي يتحقق عبر الزمن. ([3])

الحوار مسألة واضحة جاء بها القرآن الكريم وتنبع من جميع أجزائه، وأحزابه، وسوره وسياقاته، والحوار هو العملية التي تشكل الانتقال من مرحلة التدافع "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ

---

[3])- محمد العبادي، مجلة الرشاد، العدد ١٥ (يوليو ٢٠٠٣)

الْأَرْضُ "(٢٥١) البقرة " إلى مرحلة التعارف " وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا "(١٣) الحجرات"

لقد عاش أقوام في الأدغال وتفقهوا في التعامل مع الأرض في جانبها المتوحش، واكتسبوا خبرة وحكمة بفعل عيشهم في هذه الأدغال، وهناك قوم فيهم كثرة في العدد – كاليابان – عاشوا في أرض ضيقة غير أليفة؛ فهي تميد بهم وتكثر فيها الزلازل؛ فاكتسبوا حكمة معينة بفعل عيشهم في ذلك المكان، وهناك آخرون عاشوا في مناطق باردة ، وآخرون عاشوا في مناطق حارة، وآخرون عندهم التوابل، وآخرون ليست عندهم، وآخرون ينبت في أرضهم نوع من الخشب يمكنهم من صناعة العجلات، وآخرون ليس عندهم ذلك، وآخرون عندهم نوع من الدواب تختلف عن دواب غيرهم؛ فهم يتعلمون من ذلك أشياء مختلفة؛ فالتعارف إذن هي مسألة تمكن البشرية من تجسير الصلات فيما بينهم ، وتمكنهم جميعاً – إن أرادوا وابتغوا إلى ذلك السبل المناسبة واللائقة – من الارتقاء من مرحلة التدافع إلى مرحلة التعارف .

حين يتحدث الله ﷻ عن التدافع يتحدث عنه باعتباره سنّة لا تتخلف وجزء من طبيعة الاجتماع البشري ، لكن حين يتحدث عن التعارف يتحدث عنه بصيغة الأمر:

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا"

فاللام للعلة والغائية، فمن أدرك حكمة التنوع في الخلق وعلته وغايته كان عليه أن يسعى لامتلاك مقدمات وأخلاقيات التعارف الذي لا يمكن أن يتم بدون حوار .

وجاءت سورة الحجرات لتسجل كثيراً من آليات الحوار ومقدمات الحوار للوصول إلى التعارف.

لقد بدأت السورة بخطاب المؤمنين: "يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله". فادعاء امتلاك المعرفة وادعاء امتلاك الحق بكل ما يحمله هذا الإدعاء من تبجح وتطاول، يقطع الطريق على إمكانية الفهم والتلقي عن الله ﷻ ورسوله ﷺ من ناحية، ومن ثمّ يمنع بدء أي حوار جاد ، وأي جدوى من الحوار والحديث مع من لا يعرف التواضع ولا يفتح قلبه للفهم ولا يعترف للمخالف بإمكانية الصواب ؟

وأما خفض الصوت فإذا كان من ناحية يعبر عن احترام مقام القيادة ومقام النبوة فإنه بلا شك يمثل في مجال التواصل خلقاً حضارياً ينأى بالمتحاورين عن هياج المشاعر والعواطف، ويعينهم على التركيز على المعاني والحجة والبرهان ونقاط الاتفاق، ولا يخفى ما لخلق الصبر والروية وعدم الاستعجال من أثر على امتلاك مقدمات التحاور والقدرة على الاستماع والفهم .

وأما منهجية التثبت والتحقيق وعدم الجري وراء الإشاعات والظنون، فهي في حقيقتها الركيزة الأساسية للمحاورة والتواصل وتبادل الآراء وتقليب وجهات النظر، فمنهجية التثبت والتحقيق تزرع الثقة وتساهم في هدم الحواجز بين المتحاورين لتأخذ عملية الإقناع والبيان مداها.

وتأتي التوصية بمحاولة الإصلاح والانحياز للعدل ومواجهة البغي، لتؤكد على امتلاك العقلية القادرة على التبصر في حقائق الخلاف بين الناس، وتحري إمكانيات تحقيق العدل والقسط ، ولا يخفى ما لهذه العقلية من أثر كبير على امتلاك مهارات المحاورة والاتصال، ثم تأتي الإدانة للسخرية والتهكم واللمز والتنابذ بالألقاب، لتضع الاحترام المتبادل كأساس

للتواصل والحوار والمناقشة بعيداً عن آليات التكبر والعجب وآليات استخدام إشعاعات الحرمان ضد الأفكار والأشخاص .

حتى إذا وصل السياق إلى ذم الغيبة – والغيبة هي ذكر أخيك بما فيه مما يكره – شبهها بأكل لحم الأخ الميت "ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه" لكي يصل بتربية البشرية بخصوص الغيبة إلى درجة من القرف والنفور تشبه النفور من أكل اللحم البشري الميت، وهذه مرحلة ومستوىً لا يمكن بلوغه إلا إذا أخذت النفس بالتربية الصارمة وبالتدريب الجادّ.

إن تجاوز مرحلة التدافع إلى مرحلة التعارف لا يمكن أن يحدث إلا بهذه الآليات التي استعرضتها سورة الحجرات كمقدمة للتعارف ومقدمة للحوار الذي يمثل الخطوة الأولى على طريق التعارف.

إنّ التعارف يمكننا من استغلال الوجهات المختلفة المتوجهة جميعاً إلى قبلة واحدة ، فلكل باحث عن الحق نصيب يقل أو يكثر من الصواب، واختلاف الوجهة لا يضر، كما لو كنا حول الكعبة نتوجه نحو قبلة واحدة ، فكذلك إذا نظرنا إلى مسألة التعارف وآليات التعارف باعتبارها اختلافاً في الوجهة ونشداناً للحق ، فلا بد من استعمال الآليات التربوية التي تمر من مرحلة القول إلى مرحلة التربية على الفعل، حتى نصل إلى حقيقة التعارف، وهذا تحد مفروض على البشرية.

إننا اليوم في أوطاننا وخارج أوطاننا نعاني من حرج الصدر تجاه الآخر وتجاه الرأي الآخر ، نعاني من سيادة مرحلة التدافع وعدم رؤية الروزنة والنافذة التي ترتقي بنا إلى مرحلة التعارف، لا لشيء إلا لأننا لم نسود القرآن، ولم نستنطق القرآن بالقدر الكافي، وهذه هي آلية الطرد إلى أعلى، نظرنا إلى القرآن باعتباره مقدساً؛ فطردناه نحو الرفوف في

حين أن القرآن جاء ليُفهَم ويُتدبر، فرب العزّة يقول موبخاً للبشر" أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(٢٤) {محمد}. "إذ لا حجة للبشر أن لا يتدبروا القرآن، وهو ميسر، "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ(١٧) {القمر}" لكي نستنطقه ونستهدي به نحو التي هي أقوم كما قال جلّ وعلا عن هذا القرآن .

إن مسألة الحوار لها جمالياتها التي تستشف من النظر في طريقة القرآن ، لكن هناك واجبات تلقى على عاتقنا بعد الاستبصار والوعي لهذه الجماليات ، وهي واجبات التطبيق وواجبات النهوض؛ لرفع ظن الملائكة بالبشر، ومعانقة ظن الله ﷻ "إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٠) {البقرة}" حتى لا نسفك الدماء ، ولا نفسد في الأرض ، فهذا الإفساد وهذا السفك يبدأ من الضيق بالآخر والضيق ذرعاً برأي الآخر(٤).

## احترام وجود الآخر .. أم إلغاؤه؟(٥)

تتصاعد وتيرة العنف، سواء منه الديني أو العرقي، في أماكن متفرقة من العالم ومنها العالم العربي، هذه الظاهرة نريد أن نتعمق في دوافعها وجذورها من أجل تلافيها والعيش في سلم وأمن وقبول للآخر.

{لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين} (المائدة: ٢٨). وتحت أسطر هذه القصة المروية في القرآن، يكمن مغزى فلسفي عميق لكيفية مواجهة المشاكل الخطيرة، والحلول لهذه المشاكل الإنسانية أثناء احتدام الصراع البشري، دعنا نتأمل القصة كما جاءت في القرآن لمزيد من الفهم.

---

(٤)- محمد العبادي، المرجع السابق.

(٥)- خالص حلبي، "احترام وجود الآخر .. أم الغاؤه؟ "مجلة النبأ، ع(٦٤) رمضان ١٤٢٢هـ .

{واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبّل من أحدهما ولـم يُتَقبل من الآخر قال لأقتلنّك قال إنما يتقبل الله من المتقين} (المائـدة:٢٧-٣٢).

الملاحظة الأولى: القرآن يستخدم أساليب قريبة للفهم الإنساني، فهـو يستخدم هنا القصة لينزل إلى الواقع وينتزع منه مـا يريـد، ونظـراً لأن الصراع البشري له مسبباته ونتائجه التي تحكمه؛ لذا فـإن النـزول إلـى (الواقع) لأخذ العينة منه ثم نقلها إلى معمل التاريخ له ما يبرره تماماً، بـل يشكل الطريق السليم لمعرفة مصدر الصراعات.

(الواقع) أكبر من النصوص، لأنه يشكل المصدر الـذي يـراه البـشر جميعاً، ولأن الواقع هو النص مجسداً، فـي حـين أن النـصوص تتعلـق بالخلفية الثقافية التي يحملها البشر، والتي بموجبها يفهمـون النـصوص ويتعاملون بها، ويختلفون بل ويتنازعون بل ويفتك بعضهم ببعض من أجل الخلافات في وجهات النظر (لأقتلنك) وهم يواجهون النصوص.

وما حرب الخليج الأخيرة إلا نموذج لعجز النصوص عن حل المشاكل، حينما شكلت المؤتمرات الإسلامية فـي سـاحتي الـصراع المتنـازعتين، واستخدمت النصوص لدعم موقف كـل فريـق (كُـلُّ حِـزْبٍ بِمَـا لَـدَيْهِمْ فَرِحُونَ(٥٣) المؤمنون) والذي حل المشكلة في النهاية هو طرف خارجي، وكان حلها ليس استناداً إلى النصوص ولا رجوعاً إليها.

بل لماذا نذهب بعيداً، لنتذكر معركة (صفين) القديمـة، حيـث رفعـت المصاحف على رؤوس الرماح ادعاءً للرغبة في التحاكم إلـى النـصوص، وحلت بدون تدخل (فريق خارجي) ولم يكن الطرف الذي طلب التحاكم إلـى النصوص بأنزه الطرفين ولا أتقاهما، ويعلمنا التاريخ أن التحاكم القديم إلى النصوص لم يحل المشكلة إن لم يكن قد زادها تعقيداً.

وفي الحرب العراقية - الإيرانية تم توظيف الدين سياسياً مرة أخرى، حيث اعتبر العراق أنها معركة القادسية، في الوقت الذي اعتبرت فيه من طرف الإيرانيين أنها معركة (كربلاء) ومات في معركة القادسية - كربلاء رقم ٥ هذه قرابة ٦٥٠٠٠ إنسان، منهم ٤٥٠٠٠ إيراني و٢٠٠٠٠ عراقي، أي ما يعادل عدد سكان مدينة متوسطة الحجم. [٦]

وفي الواقع فإن تجسيد النص على الأرض هو (الواقع) أي أن (النص والواقع) يشكلان معادلة كما هو الحال في علاقة الطاقة بالمادة، إلا أن (المصدر) هو دوماً الواقع، في حين أن النص هو محاولة تعبير عن لغة الواقع، وفي هذه النقطة يحصل الخلاف البشري أي في (تفسير الواقع)، وإلا فإن جميع البشر يرون الشمس والقمر والسحاب كما يرون تساقط المياه وتبخر الماء وذوبان الشمع، كما يرون الخلية وولادة الأشياء وظاهرة الموت.

وهذه النقطة هي رمز الإنسان من جهة كما هي رمز عذابه ومعاناته {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ(٤) البلد}.

جدلية الإنسان إذاً هي في كونه يختلف مع أخيه الإنسان في تفسير الواقع، إلا أن صورة الاختلاف قد تكون رحمة ومصدر نمو واقتراب متواصل من الحقيقة النسبية، في نفس الوقت الذي قد تتحول إلى مصدر صراع ضارٍ يصعد إلى مستوى سفك الدماء وتصفية الآخر كما هي في القصة التي بين أيدينا.

الإشارة إلى ابني آدم لا تعني بالضرورة أولاداً معينين تاريخياً، كما ذهب إلى ذلك العهد القديم وتحت أسماء بعينها هما قابيل وهابيل، فأولاد

---

[٦]- المرجع السابق.

آدم هم رمز لبني الإنسان وصراعاتهم، واهتم القرآن بتتبع أشكال الصراع البشري منذ بداية فجر التاريخ البشري.

وهذا الأسلوب، أي الترميز، والدخول إلى المطلق، وتفكيك الحدث وتركيبه، ثم استخلاص القانون الذي يحكمه، أو إبراز العبرة التي تعني بكلمة أخرى مدى أو جدوى أي تجربة إنسانية، هذا الأسلوب مكرر في القرآن، فحيث تتابعت الأحداث المثيرة أو القصص ذات الدلالات العميقة، نرى الترميز القرآني ينحو إلى أن يتجاوز الحادثة من خلال علائقها التاريخية ليدخل بها إلى عالم المطلق، فيحذف الشخص والزمان والمكان ليؤكد على القانون الذي يحكم الحادثة.

وكتبت السيرة حيث سجلت أحداثها (الكرونولوجي) على أساس مسلسل متتابع من الغزوات وكأن الرسول ﷺ كان لا ينام إلا على غزوة ولا يستيقظ إلا على معركة (المصطلق، قرد، ذات الرقاع، مؤتة، خيبر.. الخ)، كما كتبت أيضاً بعبق الأجواء السحرية فكلها أيضاً (سلسلة من المعجزات) مع أن القرآن رسم منهجيته خاصةً بأنه لن يمارس المعجزات، لأن الكون يقوم على السنن، وهو بصدد إرساء وترسيخ العقل المنهجي.

تأمل هذه الآيات - ونظيراتها العشرات من الآيات المتفرقة في القرآن على نفس الطريقة: {وقالوا لن نؤمن لك- حتى: ماذا؟- حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا..} الخ، إلى آخر الطلبات الصبيانية بفتح بئر ارتوازي، أو حديقة لشرب (الأركيلة) أو إدخال الخلل إلى النظام الكوني في صورة هدم السموات، أو أن يأتي الله مع الملائكة فيما يشبه الاستعراض العسكري، كي يقف أهل قريش أمام هذا المنظر الخلاب، بعدها يفكروا في إمكانية منح محمد ﷺ الثقة لكلامه، والثقة هي

في الأصل من داخل كلامه، وليست من خارجها، وهذا هو السر في أن الإسلام لم يعتمد مبدأ المعجزة في حوار الإنسان، كما يصر أتباع (شهود يهوه) في هذه الأيام.

إن كل حدث يقع في علاقة جدلية ضمن سلسلة الأحداث فهو نتيجة لما قبله بنفس الوقت الذي هو سبب لما سيأتي بعده، فلا توجد هناك حادثة واقفة في الهواء لوحدها، كما لا توجد صخرة ليس لها مكان في تشكيل الجبل العظيم، لأنها تحمل صخرة التي فوقها في الحين الذي تقف فيه على الصخرة التي تحتها، ونحن حين نقف على أقدامنا فهي تحمل جسدنا، ولكن الأرض التي تحتها تحمل هذه الأقدام بدورها، وهكذا تترابط علاقات الحياة.

لذا فإن الحديث النبوي الشريف (من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) يشير إلى جريمة ابن آدم الأول والمبدأ القرآني ينص على أن لاتزر وازرة وزر أخرى، ولا يسأل الإنسان إلا عما باشر وفعل، إلا أن الأثر غير المباشر هو انتقال هذه الفكرة للبشر الآخرين، ذلك أن عدوى الأفكار قائمة مثل الجراثيم، ولقد اعتبر المفكر الجزائري مالك بن نبي أن الأفكار هي بمثابة الجراثيم الاجتماعية، فإذا كانت البيولوجيا والأمراض تعمل بآلية انتقال الجراثيم، فإن الأمراض الاجتماعية تنتقل بواسطة الأفكار التي هي النموذج الجديد للجراثيم النوعية، وكما أن البيولوجيا فيها الجراثيم التي لا غنى عنها لتوازن الوسط الحيوي، كذلك الجراثيم الممرضة التي تفتك، وهذا تمثيل للجراثيم الموجبة والسالبة.

إذن في ضوء فكرة من هذا النوع يمكن فهم آيات صراع ولدي آدم، التي هي صور الصراع البشري الأولي، والتي مازالت تكرر نفسها في صور شتى سواء في صورة صراع شخصين ينتسبان لنفس المهنة أو

صور الحروب الرهيبة بين الدول، لأن صورة الصراع الأولي البسيطة هي بذرة الصراع المروع الأخير.

إن هذه الآيات التي سلطنا الضوء عليها تعتبر من آخر ما نزل من القرآن، ومن الغريب أنه لم يسلط الضوء عليها كي تفهم في ضوء الصورة العامة لنظر القرآن للمشاكل وكيفية حلها، لذا وجب أن توضع هذه الآية في مفهوم (طريقة مبتكرة جديدة لحل المشاكل) وهي طريقة مفتوحة عبر التاريخ يستطيع البشر استخدامها أو الوصول إلى مستواها من خلال (التربية)، وهي مفتاح حل مشاكل النزاعات البشرية لو أمكن تطبيقها من خلال عدة مبادئ متفرعة عن المبدأ الرئيسي.

يقول المبدأ الأول: يستمر الصراع إلى مداه الأقصى طالما صمم الطرفان على النزاع؛ لأن النزاع يتطلب طرفين مصممين، ويتوقف النزاع حينما يتنازل أحد الطرفين عنه؛ لأنه لا يعقل أن يتصارع الفرد مع نفسه، ويقول المبدأ الثاني: يتم إيقاف الصراع بالتخلي عن القوة من طرف واحد، ويقول المبدأ الثالث: لا يعني التنازل عن القوة من طرف واحد أن يتراجع الطرف الذي يرى الحق في جانبه، بل يحاور الطرف الآخر ويتحمل أذاه، المهم عدم رد الأذى بالأذى، بل الثبات إلى درجة الموت من أجل الفكرة، وهذا هو مفهوم (الشهادة).

وبالطبع فإن تربية من هذا النوع في العالم العربي لم تتشكل بعد، فضلاً عن الانطلاق في تنفيذها الميداني.

لا يعبأ القرآن في هذه القصة بـ(نوعية القربان) أي (الشيء) الذي نشب حوله الصراع لأن له صوراً لا تنتهي، ويكتفي بالإشارة إلى أنه قربان تم قبوله من الأول ورفض من الثاني.

مرة أخرى نلاحظ في القصة عدم التعرض للاسم وللمكـان وللزمـان الخ.. ومع أن الأول لم يسئ مباشرة إلى الثاني، إلا أن الثاني اعترض على النتيجة التي حدثت.

والآن كيف يرى كل طرف أن معه الحق؛ (الأول) بدليل نجاحه وقبـول قرباته، و(الثاني) يرى أيضاً أن الحق معه لأن (الانتخابات مـزورة؟!) وإذا كان كل طرف يرى أنه صاحب (الحق المطلـق) فكيـف سـتحل المـشكلة إذن؟!!.

الطرف الثاني الخاسر في الانتخابات والذي يرى أنها كانت مزيفة، يرى أن حلها هو في التصفية الجسدية للطرف الآخر، انظر تعبير (لأقتلنّك).

هذا الأسلوب، أي الصراع الدموي، هو أشد ما ابتليت به الإنسانية منذ أن وعى الإنسان وجوده، بل إن بعض الفلاسفة يرون في هذا المرض أنـه كان جرثومة إبادة الدول، ونزول القوى العظمى، وانهيار الحضارات[٧].

ومن الغريب أن ظاهرة الحرب هذه التي هي أبشع من كـل مـرض، وأشد من كل داء، لم تدرس حتى الآن فـي أكاديميـة مـستقلة كظـاهرة إنسانية، كما هو الحال في دراسة الأمراض المستوطنة والسارية، والتـي قضت على البشر أكثر من كل الأمراض التي عرفتها ومـا تـزال تعرفهـا البشرية حتى الآن!.

ثم إن هذه اللفظة (لأقتلنّك) تشير إلى تصعيد الـصراع البـشري مـن مستوى الخلاف في الآراء والمصالح إلى القتال والتصفية الجـسدية ، أي (إلغاء الطرف الآخر)، وهذا الأسلوب هو المقابل تماماً للحوار، ومحاولـة حل المشكلة بين الطرفين الإنسانيين بدون أن يحذف، أحد الأطراف، وطبعـاً

---

٧)- (راجع مختصر دراسة التاريخ للمؤرخ البريطاني جون أرنولد توينبي في بحثه حول زوال دولة آشور الحربية).

هذا الحذف يعتمد إلغاء جدلية الوجود كلها، بحيث يمكن نقل هذا الإلغاء أو هذه الجدلية من مستوى فرد وفرد، إلى مستوى فرد وأمة، حين يلغي الفرد إرادة الأمة من خلال النظام الفردي، لأن الأنظمة الديكتاتورية تعتمد إلغاء إرادة الأمة، وهي ثمرة خبيثة من الشجرة الخبيثة الأولى من الكلمة الخبيثة (لأقتلنك) {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ(٢٦) {إبراهيم}.

إن الآية القرآنية قارنت بين الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة، وبين الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة، بمعنى أن الكلمة الطيبة تنمو، كما أن الكلمة الخبيثة تنمو، وكما أن الكلمة الطيبة تصل إلى أن تصبح شجرة زاهية باسقة، فإن الكلمة الخبيثة تنمو إلى حد أن تصبح شجرة، إذن فمن طبيعة الكون على ما يبدو أن الفساد ينمو أيضاً ويكبر ويضخم ويقوى، وهو ما نشاهده بالفعل في الحياة اليومية في صور شتى، إلا أن هناك بنفس الوقت آلية خاصة في الطبيعة يعتمد على تفتيت وهدم الباطل والضار والسيئ، وهو قانون في الطاقة والمادة والروح، في الطبيعة والتاريخ والبنية النفسية والكيان الاجتماعي {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ(١٧) الرعد} .. {"بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ "١٨) الأنبياء}

إن أكبر دليل على سلبية الحقد والحسد والكراهية تأثيراته البيولوجية، ونتساءل هل الغضب مفيد بيولوجياً؟ لنقارن تأثيراته مع تأثيرات الحب الذي هو أسرع بريد في نقل المعلومات.

إن الأول يفرز من الناحية البيولوجية السموم، في حين تنتشر السعادة مع بدء عمل الثاني، لذا فإن أسلوب (لأقتلنك) هو إلغاء الطرف الآخر بإلغاء الحوار، وإمكانية التفاهم والالتقاء في مكان ما عن طريق الحوار.

وبالطبع فإن هناك عقليتين خلف كل من الكلمتين (لأقتلنك) في طرف و{ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك} في الطرف الآخر؛ فعقلية لأقتلنك هي تلك العقلية الدوغمائية الوثوقية إلى درجة اليقين المرعب، إنها تحت تأثير أنها امتلكت (الحقيقية المطلقة)، وهي سمة بارزة في أصحاب الاتجاهات المتطرفة أياً كانت ساحتها دينية، أم قومية، علمانية، أم حزبية، في حين أن العقلية الثانية ترى أن هناك هامشاً للخطأ والصواب.

وهذا التحليل يترتب عليه نتائج خطيرة وعظيمة للغاية، فطالما رأت العقلية الثانية أن هناك هامشاً للخطأ والصواب في الفكر الذي تحمله فإنها تميل إلى المراجعة والنقد الذاتي، وبالتالي تفتح المجال أمام النمو والنضج وتصحيح الأخطاء، في حين أن العقلية الأولى يترتب عليها نتائج مخالفة تماماً ومريعة جداً، فطالما امتلكت الحقيقة النهائية فهذا يعني بشكل آلي أنه ليس هناك هامش للخطأ بل كله صواب، وبالتالي لا حاجة للمراجعة، وبالتالي لا نمو ولا نضج أي لا حياة، بذلك يُستل نور الحياة تدريجياً من هذه العقلية، فتنتقل بالتالي إلى مرحلة توقف نبض الحياة، وبالتالي التجمد والتحجر والتحول إلى كائنات محنطة في متحف الحياة المتحرك.

إن الله ﷻ الذي خلق الطرفين، وأنعم بالوجود على جانبي الخلاف والصراع، لم يلغ طرفاً على حساب طرف، بل منح الوجود للطرفين، إلا أن طرف (لأقتلنك) لا يرضى بهذا، بل يعمد إلى إلغاء الطرف الآخر، فإذا قال الطرف الأول إن الله أوجدني ومنحني المشاركة، يكون جواب الطرف الأول العملي: نعم إن الله منحك الوجود أما أنا فإنني أكبر ولذا سوف ألغيك! {"إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ "(٥٦) {غافر}.

ومن الناحية العملية تفضي العقليتان إما إلى مجتمع مزدهر، أو إلى حرب أهلية مبطنة أو قائمة، فحين تترك العقلية الثانية المجال لهامش من

الخطأ وبالتالي المراجعة والنقد الذاتي، فإن هذا ينبني عليه التسامح مع الطرف الآخر، بل احترامه، بل طلبه، وحمايته، لأنه مع جدلية الطرف الآخر يميل الطرف الأول إلى التصحيح، وتقويم الأخطاء، ولذا فإن الطرف الثاني يصبح ضرورياً، ليس فقط للفرملة والتوازن، بل ضرورياً لصحة الأول ودوام استقامته ونضجه، لذا كان على الطرف الأول احترام وجود الطرف الثاني، بل السعي لإيجاده إن لم يكن موجوداً، وليس إلغاءه إن كان موجوداً!.

فرق كبير إذن بين العقليتين، العقلية الثانية تفسح المجال للأخطاء، للنقد المضاد، للمراجعة الذاتية، للتسامح مع الطرف الآخر، لاحترامه لما فيه من خير عميم، والعقلية الأولى تلغيه إن كان موجوداً، إذن فالثاني يوجد ملغياً، والأول يلغي موجوداً، وهذا هو الفرق بين العقليتين، وبالتالي هذا هو الفرق بين الحياة والموت فلا يستويان {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ(٥٨) غافر}.

وهنا نقطة عجيبة في فهم (الجهاد) تتولد من هاتين العقليتين في فهم كيفية حل المشاكل: العقلية الأولى ترى أن الجهاد هو حمل الطرف الآخر على الاستسلام لرأيك وعقيدتك ودينك، في حين ترى العقلية الثانية أن الجهاد هو من أجل حماية الطرف الآخر ليعبر عن رأيه ولو خالفك، وهو المبدأ الذي وصلت أوروبا إلى تنسم أجوائه بشكل جزئي وعنصري ومتأخر وبعد معاناة رهيبة، وهو الذي طُرح منذ أيام "فولتير" في مقالته المعروفة (اسحقوا العار)، أي أن الجهاد شرع ليس (لإزالة الكفر) بل لـ(دفع الظلم) {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩) الحج}، وهذا المفهوم يتماشى مع روح القرآن الذي يرفع مبدأين هامين يعتبران انعطافاً نوعياً في تاريخ الفكر الإنساني، وهو ما انتبه إليه المؤرخ

البريطاني "توينبي" حين أشار إلى أن الإسلام كان المبدأ الوحيد في تاريخ العصور الوسطى الذي سمح للمخالف بالبقاء على قيد الحياة مع الاحتفاظ بدينه. (٨)

هذان المبدآن هما: (حرية العقيدة) تحت شعار الآية: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (٢٥٦) البقرة} وحماية هذه الحرية من خلال وسائل أهمها: (إمكانية استخدام القوة المسلحة) لحماية الناس من الفتنة {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ (٣٩) الأنفال} أي أن الإسلام سوف يجاهد من أجل أن يسمح للطرف الآخر الذي لا يؤمن به بالبقاء، بل بالمحافظة عليه، بل بحمايته من أجل أن يعبر عن رأيه حتى ولو كان معارضاً للإسلام، وهذا المفهوم انقلابي في تاريخ الفكر الإنساني، ذلك الذي جاء به الإسلام، أو على الأقل ما تفهمه شريحة من المفكرين أشاطرهم الرأي فيه، وعندما أناقش شرائح المفكرين – ومنهم بالطبع الاتجاهات الإسلامية – أرى أن هذه النقطة لم تتضح عندهم بعد، وأرى أن توضيح هذه النقطة على غاية الأهمية لأنها وبموجبها سوف ترسى قاعدة العمل السياسي، بل الحضاري في العالم العربي.

إن هذا المفهوم سوف يقودنا بشكل آلي إلى التعددية السياسية؛ لأن الكون يقوم على الاختلاف والتعددية، وهذه الفكرة هي النقيض لفكرة عدم السماح لأصحاب الأفكار بالتعبير عن أفكارهم، فضلاً عن تصفيتهم جسدياً – كما جاء في بعض المؤلفات الإسلامية المعاصرة – بدعوى أنهم مرتدون.

وقد حان الوقت لنعرف أن الإسلام لا خوف عليه، وإذا كان الإسلام سوف يختفي بمجرد السماح للأفكار الأخرى بالتعبير، فلن يجدي هذا الدفاع الهزيل عنه، ثم إننا لم نستوعب التاريخ حقاً حتى الآن، وأن الإسلام ساد

---

٨)- المرجع السابق .

وانتشر بدون دوله السياسية، في حين أن الشيوعية انهارت وأصبحت في ذمة التاريخ، وهي في ظل أعظم دولة مسلحة تحميها في تـاريخ الجـنس البشري.

ويتفرع شيء خطير جداً من السياق الذي عرضناه في حرية الـرأي، والرأي المعارض، وهو أن الإنسان لا يقتل من أجل أفكاره أياً كانـت هـذه الأفكار، وهذه مرحلة عاصرتها القرون الوسطى حينما أحـرق "جيوردانـو برونو" من أجل أفكاره، ولم يعرفها العالم الإسلامي، على الأقـل بـشكلها الحاد([٩]).

وهنا فكرة رائعة من التاريخ الإسلامي في الصدام الذي حدث بين الإمام علي عليه السلام والخوارج، فهو لم يرفع السلاح بوجههم، ولـم يقـاتلهم، ولـم يقتلهم، إلا حين تجاوزوا (حرية الكلمة) إلـى (فـرض الكلمـة) و(بقـوة السلاح).

إن الإمام علياً عليه السلام خالفه الخوارج ثم كفّروه، فلم يفعـل لهـم شـيئاً، وعندما انتقلوا إلى الخطوة التالية وهي رفع الـسلاح واسـتباحة الـدماء (جاهدهم).. إنهم استباحوا دم كل من يعارضهم الرأي بما فيــه دم الإمـام علي، بل تآمروا على قتله ثم قتلوه.

ونقطة أخرى أن الإمام علياً عليه السلام مع كل ما جرى من الخوارج بما فيه مصرعه على أيديهم، لم يعتبرهم كفاراً، بل من الكفر فروا، ولم يعتبـرهم منافقين؛ لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً وأولئك يذكرون الله كثيراً، بل جاءت الأحاديث بكثرة عبادتهم ، جلُّ رأي الإمام فيهم أنهـم طـلاب حـق

---

[٩])- جيوردانو برونو اعتقلته محكمة التفتيش في البندقية عام ١٥٩٢ بسبب آرائه، وتم إحراقه حياً في ١٧ فبراير - شباط عام ١٦٠٠ ميلادي وعمره ٥٢ سنة وأهم كتبه في العلة والمبدأ الواحد الذي كتبه عام ١٥٨٤ م

أخطأوا الطريق في الوصول إليه: (ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه).

ومن قصة الإمام علي (عليه السلام) نفهم شيئاً آخر وهو أن الجهاد منفصل تماماً عن مشكلة الصراع العقائدي، فهو (وظيفة) تستخدم لرفع الظلم من أجل (إقامة العدل) الذي قامت به السماوات والأرض، ولو أن أمريكا تدخلت في البوسنة كما تدخلت ضد العراق من أجل إقامة العدل لفتن المسلمون بها أيما فتنة، وهذا هو السر في جاذبية الإسلام قديماً وتعليل انتشاره، لأنه انتشر بروح العدل، إلا أن التجربة علّمت بأن الغرب هو شبيه بمجتمع القراصنة على ظهر سفينة، فهم فيما بينهم وكل من يطأ سفينتهم يعامل بقانون القراصنة، فهم أقرب إلى العدل فيما بينهم، وكان عندهم نظام تعويضات راقٍ، فمن خسر ذراعه دفع له ٥٠٠ قطعة ذهب، ومن قلعت عينه عوض بمبلغ آخر، وإذا اختلف اثنان حسمت المعركة بينهما على الشاطئ، ولكن القراصنة كما نعلم يجوبون البحار في شكل عصابات، يمزقون لحم الآخرين، فيسطون على السفن ويخطفون عباد الله ويسفكون دم الآخرين لأتفه الأسباب، لاعتمادهم مبدأ الذراع القوي، كانوا ينهبون المرافئ ويفعلون كل المحرمات بدون أن يهتز لهم رمش عين، كما فعل ويفعل النازيون هذه الأيام سواء في صورة الألمان أو الصرب، ويستخدمون ما يحلو لهم ضد الآخرين، حسب ما يرونه أقرب لمصلحتهم.

بهذا فإن هذه الوظيفة أي الجهاد قد تستخدم ضد الكافر (الظالم) أو ضد المسلم (الظالم) المهم أن يكون ظالماً وليس كافراً، كما فعل الإمام علي (عليه السلام) ضد الخوارج، والخوارج لم يكن اسمهم ( خوارج) بل حازوا هذا اللقب تاريخياً، أما هم فكانوا يسمون أنفسهم مجاهدين و(شراة) أي باعوا أنفسهم في سبيل الله، في حين اعتبر المسلمون أن عملهم هذا ليس (جهاداً)، بل خروجاً بسبب تبني (القوة المسلحة) لفرض آرائهم بالقوة، وهو ما وقعت

فيه معظم الحركات الإسلامية فـي التـاريخ المعاصـر، لـذا فالاتجاهـات الإسلامية المعاصرة (العنيفة) تحتاج إلى إعادة نظر في وسيلتها للـدعوة، لأنها ضلت طريقها مرتين، مرة في (الهدف) وأخرى في (الوسيلة)، الأولى بوضع الغاية أن الوصول إلى الحكم يحل المشاكل (كلها ودفعة واحدة)، ولم تعلم أن المشاكل تبدأ فعلا بعد ذلك، والثانية في تبنـي (العنـف) وسـيلة للتغيير.

من هنا نشعر بعمق مأساة العالم العربي لأن الجهـاز الحـضاري لـم يتشكل بعد، فلا الحكومات ترحب بالمعارضـة فـضلاً عـن إيجادهـا، ولا المعارضة تدرك أن المشكلة هي (ليست) في الإطاحة بالأنظمة.

لقد أدرك (عبد الرحمن الكواكبي) الحلبي هذه النقطة بمنتهى البلـورة قبل ثمانين عاماً، وسجلها في كتابه القـيم (طبـائع الاسـتبداد ومـصارع الاستعباد)، ورأى أن الحل لا يكمن في تغيير الحكومـات، بـل دعـا إلـى المحافظة عليها مع تعديلها الذي سيكون آليا مع نمو المعارضة.

إن ما نحتاجه هو تغيير أبستمولوجيا الفكـر ولـيس الحكومـات، لأن الأنظمة السياسية هي في النهاية إفراز عفوي للشعوب، وعدم الانتباه إلـى هذه النقطة أوقع حركات التغيير السياسي والاجتماعي وشعوبها في مطبات لانهاية لها، من هنا ندرك خطأ بعض الحركات الإسلامية في تشديدها على المناطحة السياسية، واستنفاد جهدها في عمـل لـم ولـن يقـود إلا إلـى الكوارث، ومن هنا ندرك أيضا عمق المعنى في الآية القرآنية بـأن الله لا يغير ما بقوم ليس حتى يغيروا حكامهم بل حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقد يتساءل البعض عن ظاهرة العنف التي تناولتها قصة ولـدي آدم، فقد يعقب أحدهم: ولكن الذي مارس اللاعنف خسر فـي النهايـة وقتـل!. والخسارة {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ}.. وقد يدرك شـخص آخـر

أبعاد اللعبة الإنسانية ويستوعب عمق القضية، حيث ينتبه إلى كلمتي (الخاسرين) و(النادمين)، وهكذا نسترسل في شرح موسع للظاهرة :

(أولاً): لم يعتبر القرآن أن المقتول هو الخاسر، بل العكس اعتبر أن القاتل هو الخاسر الأعظم ولم ير أية خسارة للمقتول، وبهذا تنقلب معايير الكسب والخسارة {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٣٠) {المائدة}.

(ثانياً): دخلت القصة بعداً جديداً حين محاولة إخفاء آثار الجريمة، حيث أصيب القاتل بنوبة مريعة من تبكيت الضمير والندم على ما فعل، وهذا هو بيت القصيد، لأن تفاعل الحدث الإنساني في داخله يصل إلى مداه المثالي حتى مع موت أحد الأطراف، والأطراف كلها ميتة على كافة الأحوال {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ(٣٠) الزمر}. ولكن الموت هنا وبهذه الصورة هو الحياة الفعلية ودخول الخلود.

الندم هو أول الطريق إلى التوبة، والتوبة هي استيقاظ الضمير، واستيقاظ الضمير هو اعتراف بصحة موقف المقتول أو تبني رأيه وإحياء أفكار الذي مات، ففي الوقت الذي مات الأول واستشهد، كان هذا هو السبب في إحياء ضمير الثاني، بل وتبنيه لأفكار الذي مات ودفن، دفن الأول بالثرى وعاد الجسد إلى مصدره الترابي، ولكن (الفكر) الذي حمله انخلع من الزمان والمكان والجسد الترابي ليدخل عالم المطلق والخلود.

لذا وجب أن ينظر الفرد ليس إلى حياته الفردية الهزيلة القصيرة، بل إلى عمق أثر الأفكار عبر التاريخ، فالأفكار الخالدة تبقى حية على مر الزمن، والأفراد يموتون، والحبة حتى تنبت لابد من دفنها أولاً.

يجب أن يكرس الجهد لخلق وسط حضاري جديد في الأمة، بأن يحرص أحد الطرفين على التوقف عن الصراع الدموي ومحاولة إلغاء الآخر ولو من طرف واحد، لأن الصراع في جوهره هو اصطدام إرادتين مصممتين على خوض الصراع حتى نهايته، وتصفية الآخر، كما هو الحال في قصة ولدي آدم، يجب الإصرار على مبدأ الحوار، ولو رفض الطرف الآخر، وعدم التراجع عن مبدأ المبادئ كلها (الحوار)، لأنه بالحوار والثبات عليه، حتى والاستشهاد في سبيله يفتح الطريق لحل مشكلة العنف، إن كان هناك إصرار فليكن على التخلي ودفعة واحدة عن العنف المسلح، لأن وجود هذه البذرة الخبيثة ولو في عالم الأفكار يقود في النهاية إلى النزاع المادي؛ لأن الحروب تنشأ أولاً في عقول الناس قبل وزارات الدفاع والثكنات العسكرية، كما ينبغي إعلان الرأي -وضمن شروطه المنتجة- مع تحمل تبعة ومسؤولية إعلان الرأي حتى لو كان في النهاية سيقود إلى الاستشهاد. (١٠)

من هنا نعلم أن هذا الطريق يحتاج إلى تدريب خاص، إلا أنه على كافة الأحوال ليس بقدر تدريب الثكنات العسكرية، كما أنه أقل تكلفة في الوصول إلى أهدافه، بل ويفتح الطريق إلى تدريب الخصم على التوبة والرجوع إلى الصواب،حين يدرك أن ما تريده ليس إلغاءه وتصفيته، بل إنك مستعد ليس لقتله، وإنما لأن تموت أنت من أجل إحياء ضميره المريض!.

بل إن هذا الأسلوب في الصراع سوف يحيي الأمة برمتها بفتح أسلوب جديد لفك النزاعات، هذه الصورة من الاستشهاد، أي من أجل فكرة سامية تعطي للحياة معنى، وتمد جذورها في المجتمع عبر التاريخ، وتثمر

---

(١٠)- خالص حلبي، "احترام وجود الآخر ، مرجع سابق.

إن كانت كلمة طيبة كما حصل مع ابن آدم الذي خلد القرآن موقفه بأن طرح أسلوباً جديداً لفك النزاعات البشرية، فخلد موقفه بخلود القرآن الذي يتلى إلى قيام الساعة، فأما جسده الترابي فرجع إلى دورة الطبيعة، وأما موقفه فبقي خالداً لا يموت.

{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ(١٦٩) آل عمران}.

نماذج من أنواع ومستويات الحوار الديني: ([11])

- **تجربة اللجنة المصرية للعدالة والسلام / مصر:**

وتعتبر هذه التجربة هي الأبرز على الساحة الفكرية والوطنية المصرية لمناقشة الشأن القبطي وهموم المواطنة، وقد اتخذت في بداياتها شكلاً منتظمًا عبارة عن جلسات يفصل بين الواحدة والأخرى عدة أسابيع أو أشهر، وتتم في الجلسة مناقشة مجموعة من الأوراق المقدمة من مسلمين وأقباط في إطار القضايا المحلية الوطنية، وبخاصة أن الفترة التي بدأت فيها تلك الحوارات – بداية التسعينيات – قد شهدت تصاعد حدة المواجهة بين النظام المصري وجماعات التغيير بالقوة التي تنطلق من أرضية دينية بالأساس، وقد ضمت تلك الحوارات أكاديميين وناشطين، ورجال دين من مختلف الأعمار والخلفيات الأيديولوجية والفكرية، واستضافتها مقرات المؤسسات المرتبطة بالكنيسة الكاثوليكية المصرية في القاهرة.

واستهدفت هذه النقاشات استطلاع آراء المشاركين حول الأحداث التي كانت تدور وقتها، وتأثيرها على الوضع الاجتماعي والشأن السياسي

[11]- أحمد عبد الله، حوار الأديان أسئلة مشروعة وإجابات صعبة، ٢٠٠٢/٤/١٢، شبكة المنار موقع بالإنترنت.

والثقافي، وبخاصة فيما يخص مناخ الاحتقان والتوتر الذي ساد وقتها في علاقة المسلمين بالأقباط.. إضافة إلى تحقيق نوع من الصلة بين المتحاورين، وبدءِ اهتمامٍ ما زال مستمرًا لديهم حتى الآن بنفس هذا الشأن الوطني الحواري.. فقد نتج عن هذه السلسلة من الحوارات كتاب بعنوان: "الحوار الوطني" تضمن نص الأوراق المقدمة من خلال الجلسات، وتفريغا للمناقشات التي دارت بين المتحاورين.

ورغم أن العلاقة واللقاءات "الأضيق" قد استمرت بين هذه المجموعة، فإن الروح الحماسية التي سادت في البداية لم تستمر لأسباب نذكر منها:

١- عقد مؤتمر حكومي تحت نفس العنوان "الحوار الوطني" ودعيت إليه أطراف كثيرة، ودارت نقاشات حول قضايا متعددة دون الوصول إلى نتائج محددة.. ولكن يبدو أن المؤتمر الرسمي ابتلع الجهود غير الرسمية، وغير الحكومية!!!

٢- خفوت حدة الصراع بين السلطة وجماعات العنف، وكأن الحوار يكون مطلوبًا في النوازل فقط، مرتبطًا بالوضع السياسي فحسب.

٣- الإفراط في التفاؤل، وعدم تحديد مستهدفات مرحلية تكون بمثابة محطات إنجاز يستثمر التراكم، ويشجع على المواصلة.

وما زالت التجربة مستمرة وتعقد لقاءات فكرية ومنتديات موسمية (خَاصة في رمضان).

- **تجربة الهيئة الإنجيلية – مصر:**

"الهيئة الإنجيلية" هي من أكبر الجمعيات القبطية الاجتماعية العاملة في مجال النشاط الأهلي في مصر، وإضافة إلى برامجها التنموية في أنحاء

البلاد بدأت الهيئة في نشاط يستهدف سبر أغوار وتغطية أبعاد فكرة "حوار الحضارات" عبر منتدى منبثق عن الهيئة، ويحمل هذا الاسم، وتنوعت أنشطة المنتدى بين المحاضرات والمؤتمرات، ولكننا هنا نقتصر على ذكر مشروع واحد من مشاريعها لأن فكرته بدت لنا جديدة وجيدة.

هذا المشروع يستهدف الوعاظ والدعاة في الكنائس والمساجد، يجمعهم معًا ليدرسوا قضية اجتماعية أو أسرية من وجهات نظر الأديان، ومن خلال ظروف الواقع الاجتماعي والثقافي والقانوني.

وتخرج نتائج هذه المدارسات في أوراق يشترك في مناقشتها جمع من المثقفين والأكاديميين والناشطين في مجال العمل الاجتماعي.

واللفتة الهامة في هذا المشروع أنه انتبه إلى دور الواعظ أو الداعية في المسجد أو الكنيسة بوصفه فاعلاً ثقافيًا مؤثرًا، وانتبه إلى أهمية تثقيفه وانفتاحه على روافد وميادين أوسع من مجرد معرفته بالنصوص والأحكام الدينية الخاصة بعقيدته ومجال عمله، ويجري هذا الانفتاح عبر القراءة والبحث، وعبر الاحتكاك المباشر أيضًا، وميزة أخرى لهذا المشروع أنه كسر احتكار العاصمة المزمن للأنشطة، ووصل إلى مختلف الأقاليم.. القريب منها والبعيد.

- تجربة الفريق العربي الإسلامي المسيحي للحوار:

وهي تجربة تركز على المنطقة العربية، والعلاقات بين المسلمين والمسيحيين فيها، وأبرز ما في خبرة هذا الفريق "حديث النشأة" أنه استند إلى خبرات أعضائه الثرية، فاجتنب الخوض في المسائل اللاهوتية، وتحاشى استهداف محاولات التقريب العقائدي، كما ابتعد عن التسييس، واعتمد أسلوبًا للتركيز وصل به إلى إنجاز ميثاق مكتوب لفلسفة وتوجهات الحوار من أجل العيش المشترك.

ولكن من زاوية أخرى يعيب البعض على الفريق محدودية نطاق عمله جغرافيًا، ففي لحظة اختلطت فيها الأبعاد الإقليمية بالمحلية والدولية قد تكون محاولة إسقاط ما يحدث في العالم، والاقتصار على تجلياته على المستوى الإقليمي فقط نوعًا من الفصل المتعسف بين أمور هي متداخلة بطبيعتها، وطبيعة المرحلة.

ويحاول الفريق تنزيل أفكاره وتفعيلها على مستوى القواعد الشعبية عامة، والشبابية خاصة من خلال دوائر حوارية على مستوى الأقطار، أو تجمع عناصر من قطرين أو ثلاثة، ونعتقد أن تقييم نجاح الفريق سيكون مرهونًا بقدرته على هذا التنزيل والتفعيل. (١٢)

- **تجربة المنتدى العالمي للدين والسلام WCRP "تجربة الحوار من أعلى" :**

شارك الـWCRP بمجموعة من أبرز قياداته في ملتقى المنظمات غير الحكومية الذي انعقد بالتوازي مع مؤتمر الأمم المتحدة للسكان والتنمية ICPD في القاهرة – سبتمبر ١٩٩٤، واستضاف وجوهاً مصرية على منصته، وفي أنشطته اليومية في الملتقى، كما شارك بعضهم في مؤتمره العام الذي ينعقد كل خمس سنوات، وانعقد في نفس العام ١٩٩٤ في إيطاليا.

ويعد هذا المنتدى من أكبر الهيئات وأوسعها تمثيلاً للأديان، حيث يشمل تقريبًا كل الملل والنحل الشائعة، ويرأسه قيادة جماعية على شكل مجلس رئاسي أساسي وآخر مساعد، يراعى فيهما التمثيل المتوازن للديانات الكبرى "على الأقل".. ويهتم المنتدى في عمله الميداني على

---

[١٢]- أحمد عبد الله، حوار الأديان أسئلة مشروعة وإجابات صعبة، ٢٠٠٢/٤/١٢، شبكة المنار موقع بالإنترنت.

مستوى الأقطار والأقاليم باستقطاب القيادات الرسمية والشعبية، الدينية والمدنية، وهنا تكمن قوته، ويعيب عليه البعض "النخبوية" في التوجه، ويهتم المنتدى بالشباب، ويقام لهم تمثيل خاص ضمن هياكله، وتنتشر فروع ومكاتب التمثيل في أكثر من سبعين دولة حول العالم، ليس من بينها أي دولة عربية – حتى الآن – رغم أن المؤتمر العام الأخير للمنتدى ١٩٩٩ قد انعقد في عمان – الأردن، ورغم أن للمنتدى العديد من الأصدقاء، بل وأعضاء في المجلس الرئاسي من الشخصيات العربية والإسلامية المرموقة.

ويحاول المنتدى في السنوات الأخيرة تجاوز وضعه النخبوي بالتعاون في مشاريع أكثر شعبوية بتقديم الدعم المعنوي والبشري لها، ويحظى المجلس بعلاقات ممتازة مع الأمم المتحدة التي تحيل عليه العديد من القضايا ذات الطابع الديني للاطلاع والمشاركة، والتي تساهم في تشكيل قضاياه الحوارية، وبرامج مشاريعه.

ويحرص المنتدى على تمثيل كافة الأطياف المتنوعة في إطار الدين الواحد فضلاً عن الأديان المختلفة في القطر الواحد، ولذلك فهو يتمتع بمصداقية عالية لدى العديد من الهيئات العاملة في مجال الحوار. ([١٣])

- **تجربة المجلس العالمي للمسيحيين واليهود ICCJ:**

هذه مؤسسة أوروبية أمريكية بالأساس تعد نموذجًا لما ذكرناه من تصاعد الاهتمام بحوار الأديان عقب الحرب العالمية الثانية.

ومع بداية التسعينيات، ومع تزايد الاهتمام بظاهرة صعود الإسلام، وزيادة عدد أتباعه بالاعتناق أو بالهجرة – ذات المعدلات الكبرى – إلى

---

[١٣])- المرجع السابق.

شائعات تربطها.. بالماسونية (!!) رغم أن موقفها الداعم للحق الفلسطيني وتقاريرها ونشاطها في هذا الصدد واضح ومتميز.

- **تجربة الحوار العربي/الأوروبي الشعبي - " تجربة الحوار من أسفل":**

في أعقاب غزو العراق للكويت، وحضور قوات التحالف إلى المنطقة ثم ما حدث من ضرب للعراق، وتداعيات هذه الأزمة، ارتفعت أصوات بضرورة اقتحام حقول الألغام الممتدة على الحدود الثقافية بين العرب والغرب، وتحمست للفكرة مجموعة من المؤسسات الكنسية الهولندية ليبدأ عمل حوارات عربية - أوروبية تتعامل مباشرة مع المهاجرين العرب في هولندا وغيرها، وبخاصة الأجيال الصغرى، ثم امتدت هذه الحوارات للمنطقة العربية فانعقدت بعض دوائرها في تونس، والمغرب، ومصر، وفلسطين.

ورغم أن التركيز الأكبر في تلك الحوارات يكون على العناصر الشبابية، فإن الكبار أيضًا يحضرون للقيام بدور المساندة والدعم، ونقل الخبرات، ولم تستطع هذه التجربة أن تتجاهل موقعها وسط أوروبا فتدخلت بأساليب متنوعة في أزمات البلقان سواء في حروب البوسنة أو كوسوفا بعد ذلك.

وتشجع هذه التجربة التعارف بين الثقافات والأديان، ومن أمثلة مشاريعها في هذا الصدد ما قامت به بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين من خلال زيارات متبادلة للأماكن المقدسة ودور العبادة، وشرح ميداني لأهمية وقيمة هذه الأماكن لدى أتباع كل دين، وتاريخ البقاع المقدسة المهمة لدى المسلمين والمسيحيين.

## نقلات لازمة:

هناك تردد شديد – وبخاصة في صفوف المسلمين – وتحفظات كثيرة بشأن الاهتمام بحوار الأديان، والدخول في أنشطته ودوائره، وأغلب التحفظات مبنية على أساس إدراك يحتاج إلى إعادة نظر في حد ذاته.

فهم ينظرون إلى الغربيين مثلاً بوصفهم "أهل الكتاب" الذين تحدث القرآن في مواضع عن عداوتهم للمسلمين، وبأن الحوار معهم لا طائل من ورائه، وأن الإسلام بوصفه الدين الحق لا يحتاج إلى الحوار مع أهل الباطل إلا إذا اعترفوا به، وسلموا له... إلخ.

وهذا منطق خاطئ وإدراك معيب أصلاً يتجاهل آيات قرآنية تدعو للجدل بالحسنى، ويُسقط التاريخَ من حساباته فيتخبط في رؤية الواقع ويتسرع في إصدار أحكام على أسس خاطئة.

ففي التطور التاريخي الغربي تخلصت أوروبا من سلطان الكنيسة الدنيوي الزماني، وفصلت بين الكنيسة والدولة، وتدريجيًا تخلصت من سلطان الكنيسة الديني نفسه فذهبت تبحث عن عقيدة ودين خارج أسوار الكنيسة التي رأتها عالية، وخارج عباءة القساوسة التي رأتها ضيقة.

أديان الكنائس التقليدية لا يعتنقها اليوم أغلب الناس، فضلاً عن انتشار الفرق والطوائف، والانقسامات التي تقيم كل واحدة لنفسها كنيستها الخاصة بها، أو لا تقيم كنيسة من الأساس، وهناك حركة هجرة وعزوف عن التيارات الكنسية الأساسية تاريخيًا إلى أفكار ومعتقدات بعضها يتضمن تركيبًا من عقائد تنتمي إلى أديان مختلفة، وقد تسمع عن جماعات دينية تبحث عن حنيفية إبراهيم، أو عقيدة نوح أو غير ذلك...

هناك حركة دائبة للبحث والمراجعة والتقليب والنقاش ترتكز على أهمية مبدئية للدين، ولكنها تضرب في كل اتجاه بحثًا عن الحق، وفي نفس الوقت يصرّ العديد من المسلمين على إدراك ناقص مشوه لكثير من أفكار ودوائر الحوار بوصفها وجها من وجوه المؤامرة التي تستهدف الإسلام.. ويتعاملون معها بكثير من القوالب اللفظية التي تعودنا على قراءتها وسماعها من قبيل "الاختراق" و"الدسائس".

الدين بالمفهوم الذي نعرفه ونعيشه ذهب من حياة ملايين البشر حول العالم، وهم اليوم يبحثون عن روحانية قد تتجلى في الفنون، أو علوم النفس، أو الغيبيات، ويبحثون عن طقوس عبادية تريحهم من عناء المادية القاسية التي تسحقهم سحقًا، ويبحثون عن اجتماع مع آخرين على حدود معقولة من القيم والمعالم الأخلاقية والسلوكية، والترابط الأسري والاجتماعي... وهذا كله يجد تعبيراته السياسية في المجتمعات التي تنتخب ممثليها، وتصنع فيها الناس برامج أحزابها.

وكثير من المسلمين لا يرى الصورة بمجملها، ولكنه قد يرى موقفًا أخلاقيًا محافظًا – من قضية بعينها – يتبناه فريق أو تقول به جماعة ضغط معينة؛ فيحسب أن هؤلاء أقرب لموقف الإسلام والمسلمين على طول الخط، والأمر أعقد من هذا بكثير، ولكن أغلبنا لا يعلم هذا، ولا يستوعبه.

ونرى أنه لكي تستقيم الصورة وتتضح الرؤية فإنه من الأفضل أن نضع "حوار الأديان" اليوم في سياقه الأنسب الذي يبدو الأكثر تعبيرًا عن طبيعته.. ألا وهو "حوار الحضارات".

واليوم.. ونحن نعيش واقعاً عالمياً، إن هدأت فيه أدوات القتال الدامي حيناً، اشتدت فيه آليات التدافع الفكري، بل والغزو الثقافي، والاجتياح الإعلامي، في كل الأحايين.. في هذا الواقع، نرى فكر الآخرين يقتحم على

عقولنا وقلوبنا حتى مخادعنا التي نستكن فيها!.. وكذلك يتاح لفكرنا ،هو الآخر ، أن يصل إلى الآخرين في عوالمهم، الأمر الذي أحدث تغييراً نوعياً في المواقع الفكرية على خارطة الواقع المعاصر.. فلم يعد الفكر الآخر خارج الحدود، ولا حتى متربصاً ومتلصصاً على النوافذ والأبواب، وإنما غدا في داخل حصوننا، قامت وتقام له المراكز والمؤسسات والجامعات والصحف والمجلات.. بل إنه يمطرنا صباح مساء وآناء الليل وأطراف النهار من أقماره الصناعية السابحة في سماواتنا بلا حواجز أو حدود!.

كما أصبحت لنا، نحن أيضاً، رغم حالة الاستضعاف وقلة الإمكانات ،مراكز إشعاع فكري في ديار الآخرين، تؤتي - بقوة الحق الإسلامي، وجاذبية الفطرة فيه - من الثمرات ما يعوض سلبيات الاستضعاف وقلة الإمكانات!.([15])

لقد أثمر هذا الواقع الجديد ،الذي أحدثته ثورة وسائل الاتصال ، لوناً من "التلاحم الفكري" العالمي، الأمر الذي فرض ويفرض على مختلف فرقاء التدافع الفكري الوعي بما لدى الآخرين.. فلقد أصبح هذا الوعي ضرورة للقبول وللرفض على حد سواء!.

وإذا كانت القضية، بالنسبة لنا، تتعدى حدود "المغالبة الدنيوية" في عالم الأفكار، إلى حيث هي فريضة دينية أيضاً؛ لإبلاغ الدعوة إلى الإسلام، وإقامة الحجة على صدقه، وإزالة الشبهة عن عقول المشتبهين فيه؛ فإن الوعي بما لدى الآخرين عن "ذاتهم" وعنا يصبح هو الآخر فريضة إسلامية على الذين انتدبوا أنفسهم للرباط الفكري على ثغور الإسلام ، الدين.. والحضارة.. والأمة.. والديار ، هذه الشريحة من أهل العلم، الذين تحدث

[15])- محمد عمارة "الاستنارة بين الذات والآخر.. مقاربة قرآنية لاستشفاف الضرورات"، في ٢٠٠٣/٨/٧،

عن رسالتهم هذه رسول الله ﷺ عندما قال: "يحمل هذا العلم من كل خَلَف عدوله، ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين"..[16]

إن التعايش مع الآخر في سلام، هو اتجاه إسلامي أصيل، ترسخه العقيدة، ويجب أن ينعكس في أداء وممارسات كل مسلم على وجه الأرض. ومن ثم فإن الدراسة الميدانية بالفصل التالي، تعرض بجلاء رؤية بعض من المسلمين تجاه الآخر، وكذلك معرفة رأي بعض من الآخرين تجاه المسلمين.

يقول المولى ﷻ: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ"(١٢٥) النحل"

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(٣٣). وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(٣٤).فصلت .

فالحوار مظهر من مظاهر رقي المجتمعات، فالعقلاء يتحاورون ويتناظرون، وعما اتفقوا عليه يصدرون، ويديرون الحوار تحت مظلة ثوابت معروفة للجميع يتفق عليها قبل البدء، ويحتكم عند الاختلاف إلى مرجعيات مسلم بها، وهذه الأجواء أجواء صحية، تناقش الآراء علناً، وليس في الظلام؛ فتسدد الآراء ،وتصحح المواقف، وتتقارب الخطى، وتزيل الشبه، ويعلو الحق، ويسفل الباطل، وينقشع الضباب، ويتبدد سوء الظن، ويخف التلاوم، وتتضح مفاصل كثير من القضايا، وسنرى بعد طول الحوار والنقاش أن هناك مساحات هائلة غير مستغلة يمكن

---

[16])- المرجع السابق.

استثمارها، وهناك قضايا أساسية ربما غفل عنها بعض المتحاورين، أو أرادوا إغفالها، فلا بد من وضوح الرؤى .

أما الانكفاء على الذات والتمحور حولها، وإغلاق الأبواب والنوافذ أمام كل حوار ولقاء، ورفض التجديد والتغيير الواعيين؛ فذلك ضعف واستكانة، وإن كان صاحبه يظن أنه صاحب الرأي الأشد، والقول الأسدّ.

ولقد خص الله سبحانه وتعالى الإنسان بنعمتي العقل واللسان، تكريماً وتفضيلاً له على سائر المخلوقات، قال تعالى: {"يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ"(٢٦٩) البقرة} "وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ"(٨٤) الشعراء. "أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ"(٩) البلد. وعن طريق اللسان والعقل وبواسطتهما يستطيع الإنسان أن يناقش أموره بشكل أفضل مع محيطه، وأن يتدارس مشكلاته، ويشرح قضاياه، ويدافع عنها، وهو في تخاطبه مع أبناء جنسه يتدارس أموره بشأن ما يثيره من قضايا فكرية واقتصادية وغيرها، مما تختلف فيه الأفهام أو تتعارض المصالح، ويتحاور في شأن نقط الخلاف بينه وبين غيره، وهو من خلال هذا الحوار قد يصل إلى الاتفاق، كما قد يظل الاختلاف بينه وبين محاوره قائماً، وفي هذه الحالة لاشك أنه سيدافع عن قضيته ويجادل بشأنها، ومن هنا يقوم الترابط بين المشاورة والمحاورة والمجادلة والمناظرة.([17])

والمتأمل لكتاب الله –عز وجل– وسنة رسوله ﷺ؛ يجد أن كلمة الحوار وردت ثلاث مرات، ووردت قصص الحوار أكثر من ٥٠٠ مرة، وهذا يدل على مكانة الحوار، وكونه وسيلة من أعظم وسائل الدعوة إلى الله عز وجل، وقد حفلت سيرة النبي ﷺ بحوارات كثيرة مع الكفار– بكافة

---

[17])- محمد القدوري "أدب الحوار في الإسلام"، في ٢٠٠٣/٤/٩، موقع author.asp?name/ى

أصنافهم- بغية إيضاح الحق لهم واجتـذابهم إلـى معـسكر الإيمـان، أو تحييدهم في بعض الأحيان، حتى يكف بأسهم عن المسلمين، ألم تر إليه ﷺ حين أمهل عقبة بن ربيعة- وهو المشرك الكافر- حتى انتهى؟ ثم خاطبـه بألطف عبارة، فقال: "أفرغت يا أبا الوليد".؟ والمتأمل لكتاب الله يجد فيـه الهداية والرشاد لأسس الحوار مع الآخر.

# الفصل السادس

## رؤى مستقبلية

# رؤى مستقبلية

## مُقَدِّمَة

إن العدالة الإسلامية واحدة من أكثر القضايا التي تنطوي علي أهمية بالغة لنا كمسلمين، ولا يمكننا أن نتحدث عن تنمية واستقرار مجتمع ما دونها، كما أنه لا يمكننا أن نتصور أن بلادا ما يمكن أن تبلغ مرحلة الرفاه الاقتصادية أو حتى مجرد أن تحافظ علي وحدتها ووجودها علي وجه المعمورة دون أن يتوافر لها نظام يكفل العدالة بين جميع الأطراف فيها؛ حيث توجد علاقة طردية بين العدالة والتنمية، فكلما تطورت مفاهيم إدارة العدالة أسهم ذلك في تعزيز إمكانية إحداث التنمية؛ لذلك فإن مصلحة الأمة الإسلامية عادة تقتضي إيلاء قضية العدالة وأجهزتها اهتماما بالغا.

وفي مواجهة مخاطر وتحديات العولمة الاقتصادية المخيفة التي تطول تأثيراتها العالم كله وأوجه الحياة كافة، نرفض أن تقف الأمة الإسلامية موقفا سلبيا تجاه تحديات العولمة وأخطارها، وينبغي اقتراح أدوات وأساليب للتعامل مع العولمة وتسخيرها؛ حتى تتمخض عن نتائج في مصالح الأمة الإسلامية وخدمه قضاياها.

فهل سيتراجع المسلمون ويفقدون دورهم في ظل أمة كونية واحدة بعيدة عن الدولة القطرية بما فيها الدول الإسلامية؟ والإجابة بالإيجاب طبعا إذا ما اكتفي المسلمون بدور المتفرج علي ما يجري من أحداث وتطورات متسارعة علي الصعيد العالمي، وتتمثل المشكلة الحقيقية في تجاهل المسلمين لمبدأ الأخوة الإسلامية، برغم أنهم يواجهون تحديات ضخمة

ومروعة؛ ذلك أن تجليات العولمة التي نلحظها بعيوننا حاليا تشكل خطرا وتهديدا علي الأمة الإسلامية.

وينبغي علينا أن نلجأ إلى التخطيط وإحداث التنمية على مستوى الدول الإسلامية، بما يمكننا من التسلح بتقنية المعلومات وامتلاك القدرات الضرورية؛ لمعالجه التحديات التي يطرحها عصر المعلومات في كل يوم.[١]

والحقيقة تتمثل في كلمتي: إحياء وتحديث، فالإحياء يعني الإقرار الموضوعي بأن ظروفا تاريخية معقدة وشديدة الوطأة أدت إلى إضعاف معالم الحياة وقدرات التأثير التي كانت تتمتع بها تقاليد التسامح والتعايش والمساواة، وأن هذه التقاليد تحتاج إلى مجهود إرادي وقوي الوعي بمكونات هذه التقاليد وتأثير الظروف التاريخية عليها، من أجل إحيائها... واشاعتها، وتحديثها وفق معطيات المعرفة والمجتمع المتجددة.[٢]

في ضوء ما طرح من أفكار نظرية وما تقدم من وجهات نظر يمكن أن نضيف ما يلي:

من أجل حوار جديد يجب قبل محاورة الغرب أو الشرق علينا أن نؤسس لحوار جديد ومختلف مع أنفسنا على الأسس التالية:[٣]

أولا : تربية العربي المسلم على تقبّل العربي المسلم الآخر، وكذلك مواطنه الآخر غير العربي أو غير المسلم، إن تقبّل (الغير) من المواطنين في

---

[١]- أحمد يوسف القرعي "الأمة الإسلامية في فكر محضير محمد" جريدة الأهرام، ١ نوفمبر ٢٠٠٣، العدد ٤٢٦٩٨

[٢]- سامي خشبة "مناهضة التمييز وثلاث إضافات لتحديد الاستنارة" جريدة الأهرام، ٢٣ يناير ٢٠٠٤، العدد ٤٢٧٨١

[٣]- محمد جابر الأنصاري، أنا والآخر ذلك النفس، مجلة العربي، العدد ٥١٨، الكويت، يناير ٢٠٠٢، ص ٢٢.

الوطن ـ تعايشاً وتحاوراً وتسامحاً ـ هو الشرط الأول لأي مشروع حوار حضاري أو سياسي مع الغرب أو الشرق، ومن يلغ أو يضطهد مواطنه (الآخر) فكيف يمكنه أن يحاور ويعايش الآخر المنتمي إلى قوميات وديانات وحضارات أخرى؟

إن العصبيات والمذهبيات والطوائف والإثنيات لا يمكن أن تكون (القاعدة) والمرجعية لأي مجتمع يواجه تحديات العصر الحديث. وإذا بقيت هي المرجعية في التعامل الوطني فلا منجى من (خيارين) أحلاهما مر: إما استبداد عصبية على غيرها بالقوة لبعض الوقت، وإما الحرب الأهلية في النهاية بين مختلف العصبيات وتحلل الدولة والوطن، فلا مفر إذن من التعايش مع الآخر في الوطن، قبل التوجه لمحاورة الآخرين في العالم الكبير، وإلا فإن حوار الحضارات الذي أصبح صيحة العصر سيبقى بلا مضمون بل سيكون نفاقاً وتضليلاً للنفس... وسيظل من الباعث للسخرية تحاور بعض المسلمين مع رجال (الفاتيكان) وإخفاقهم في محاورة (النجف) أو (الأزهر) أو (قم).

ثانيا : أن تضع السياسات التربوية في المجتمعات العربية في مقدمة أهدافها تقديم مقررات في الثقافة العامة، تشرح مختلف عناصر التراث الإسلامي والحضارة الإسلامية بصورة موضوعية رصينة ومسئولة إلى الأجيال الجديدة، أعني تحديداً أن يعرف السنّة عن الشيعة والشيعة عن السنة والزيود عن الشوافع، والشوافع عن الزيود... إلخ، ثم كل هؤلاء عن المعتزلة والأشعرية والمتصوفة... إلخ، ما يوفر أساساً علمياً حقيقياً للفهم والتفاهم بمنأى عن التفسيق والتكفير بين الفرق والمذاهب.

ثالثا : التنوير الثقافي العام بشأن المعطيات الحضارية الإنسانية المختلفة التي صبت في كيان الحضارة العربية الإسلامية، سواء من حضارات

الشرق الأدنى القديم من بابلية وسومرية ومصرية قديمة... الخ، أو من الحضارات الفارسية واليونانية والهندية والصينية، التي اقتبس منها العرب والمسلمون باختيارهم ومن موقع القوة والثقة بالنفس[٤].

ومن الضروري كذلك أن نسعى للتأكيد على ما يلي:

١- من حوار الأنا والآخر إلى حوار الذات الإنسانية ومنازلها:

أطروحة الأنا/ الذات في مقابل الآخر المختلف تفرض ثباتًا حيث لا ثبات، واستدعت عبوة من المفاهيم والتوابع ظلت تنسب الشر إلى جهة متحيزة، ورسمت له – وللخير بالتالي – صورة بدائية بسيطة، وبالتالي فالذات أحيانًا تكون بريئة كالحمل، وضحية لمؤامرة من الآخر "منبع الشرور" و"مستودع الآثام"، وأحيانًا تكون الذات بمثابة الذئب الضاري الذي ينبغي أن نطارده لنشبعه ضربًا وجلدًا، وفي الحقيقة أن مفهوم الخير والشر أعمق من هذا وأكثر تركيبًا.

وعليه فإننا نعتقد أن الفصل المتوهم بين "أنا" ثابتة محددة متبلورة، و"آخر" له نفس الثبات والتحديد والتبلور، نحسبه فصلاً متعسفًا جر معه بقية "العبوة" الخطأ مثل: القبول والتسامح... إلخ، بينما الإسلام طرح فهمًا أرقى وأعمق عن شك مستمر في الذات – رغم الاجتهاد في تحري الحق – وشك مستمر في المصير والخاتمة، والباطن والتقوى، لا ليتحول الأمر إلى حالة من الوسواس القاهر المتسلط، ولكن لنرى الذات منزلة من منازل الآخر، ونرى الآخر منزلة من منازل الذات في دورة واحدة دائمة ودائبة لا تتوقف، ولا تنفصل فيها منزلة عن منزلة إلا إلى حين، فالشر كامن في النفس، وفي كل نفس، ويحتاج إلى عون لمحاربته، وفي إطار نفس التصور يمكن أن نرى "الهوية" كحالة متحركة دينامية لا تكف عن التشكل

---

[٤]- المرجع السابق.

والتبلور، والتداخل والتشابك، والانكماش والتمدد الداخلي، وهـذا مخـالف للهوية كمادة صلبة تتراكم طبقاتها أو تنكسر تحت الضغوط.

الهوية كائن حي ينمو ويتنفس، ويكتسب خبـرة وثـراء بالتفاعـل والتنوع، ويختنق بالعتمة والقيود، والانغلاق والتضييق، ولو كانـت كلهـا مبررات حسنة النية، وتدابير حماية.

٢- من الاهوتي إلى الواقعي:

هناك لكل اعتقاد أصول إيمانية وفلسفية يتجـاوز بعـضها النقـاش العقلي بالمنطق المادي إلى الإيمان بغيب، ولكل اعتقاد تجلياته في الـسلوك والحياة عامة، والحوار الفعال هو الذي يستطيع التجرد لما يمكـن البنـاء عليه من أصول إيمانية، انطلاقًا إلى إدارة أفضل لحياة الناس على مختلـف مشاربهم، وهنا تكمن إضافة الدين للحياة وواقـع النـاس، وبخاصـة مـا يجمعهم وينفعهم.

ولقد رأينا العديد من الجهود تحاول طرح مسائل الاعتقـاد للنقـاش والمقارنة، وهذا شأن المهتمين والمتخصصين "في أحسن الأحوال"، ولـن يصل إلا إلى فهم أوضح لحجج كل طرف، وهو يصلح لدراسـات الأديـان المقارنة في الجامعات.. والأولى من ذلك في دوائر الحـوار التـي تـضم الناشطين الاجتماعيين ودوائر المجتمع المدني العالمي، فهم تجليـات هـذا الإيمان، والعطاء المتبادل الذي يمكن الحصول عليه - "تعارفاً" - وتعظيمه واستثماره لمصلحة صاحب الاعتقاد، ومن حوله، والناس جميعًا.

وهذا لا يتنافى مع أن كل صاحب إيمان يحتاج إلى مراجعة مستمرة، وتأمل دائب فيما هو عليه، وبدون هذه المراجعة يـصدأ الإيمـان ويتآكـل ويضعف، وبدوام هذا التأمل يتجدد الإيمان ويصقل، ويترسخ فـي الـنفس مستعصيًا على شتى صنوف الفتن.

٣- من النخبوية إلى القاعدية:

دون أن يعني ذلك التقليل من أهمية دور النخب، إلا أن الدخول بالحوار في قطاعات أخرى، ومستويات متعددة أصبح ضرورة لازمة؛ لخلق حالة حوارية عامة، تنضج عقلية منفتحة ناقدة مرنة متفاعلة، تتجاوز أساليب التلقين والتقليد والترديد الشائعة في تلقي العلم، وتداول المعرفة في مجتمعاتنا.

والحوار القاعدي يتضمن الفعل المشترك اليومي والتعاون على البر والتقوى، وتحسين ظروف العيش وحل المشكلات الواقعية، ونمو التعارف والتواصل العميق الذي يحترم التنوع ويستثمره لمصلحة الجماعة الوطنية، بدلاً من أن يكون هذا التنوع سببًا ومقدمة للشقاق والحرب الأهلية المسلحة أو "الثقافية"، الانتقال إلى القواعد يعني الانتقال من الطابع الاحتفالي لحوارات الأديان إلى إيقاع يومي نشيط.

ومن بين أهم مسارات نقل حركة الحوار من النخب إلى قطاعات الناس يبرز "عالم الدين" بوصفه جسرًا بين ثقافة النخب الناشطة، وحركة الناس النابضة بالحياة، ومن الخطأ أن نظن أن تيار الروح والمعرفة والتجديد يسير في اتجاه واحد فقط فوق هذا الجسر.

"ثقافة الداعية" قضية كبرى في هذه المرحلة لأنه لا يكفي أن يعلّم الناس شئون دينهم، بل ينبغي أن يستوعب بعمق شئون دنياهم، ويكون نافذة لهم على العالم، كما يكون بابًا من أبوابهم إلى العلم النافع في يومهم، أي: معرفة زمانه واستقامة طريقته.

٤- حوار الأديان الإبراهيمية:

لا بد من اقتحام مسألة "اليهود"، والوصول إلى رؤية واضحة بشأن إدارة الحوارات التي هم فيها، فاليهود جماعات مختلفة وناشطة في مجالات الحياة المختلفة، والدين اليهودي له أتباع في كل الأقطار تقريبًا، فهل مطلبنا بوضوح من كل يهودي أن يعادي دولة إسرائيل حتى نقبل بالحوار معه ضمن حوارات الأديان في العالم؟

وماذا عن اليهود الذين يرفضون دولة إسرائيل فعلاً، وبعضهم يعيش فيها، وبعضهم خارجها؟ هل نقبل مثلاً بالحوار طالما كان اليهود مجرد جزء منه، ولا نقبل به إذا كانوا هم الطرف الوحيد فيه؟

هل "رفض الحوار" هل يعني الانسحاب من كل المحافل التي يحضرها يهود أم يعني ترك مهمة الحضور في هذه المحافل "لفئة محددة"، ومن تكون هذه الفئة؟

إن حوار الأديان الإبراهيمية دائرة من الدوائر، ونشاط المسلمين فيها يتوقف على الإجابة على مثل هذه التساؤلات سالفة الذكر، وأمثالها.

٥- من حوار الكتل الحضارية إلى حوار القيم الحضارية:

تفترض مقولة "حوار الحضارات" تجانسًا وهميًا داخل كل حضارة من الحضارات التي صنفها "هنتنجتون"، وإذا نظرنا داخل الحضارة الإسلامية - مثلاً - ومجالها الجغرافي والسكاني فسنجد أعدادًا ليست بالقليلة تنتمي أكثر إلى حضارة المادية والاستهلاك، وفي قلب الحضارة الغربية أعداد غفيرة ترفض منطق القوة والمادة وأولوية اللذة العاجلة وغيرها من توجهات التيارات الأساسية لتلك الحضارة، وقد بدت المفارقة مدهشة حين خرجت في أمريكا مظاهرات ضد الحملة الأمريكية على أفغانستان، وجمهور هذه المظاهرات من نخب المواطنين الناشطين في حركات حقوق الإنسان

ومناهضة العولمة، ومن أنصار الحريات المدنية، في حين خلت هذه المظاهرات تقريبًا من حشود العرب والمسلمين أول المتضررين من تصرفات الإدارة الأمريكية في أعقاب هجمات سبتمبر، بل إن بعض المنظمات التي تمثل المسلمين هناك أيدت موقف إدارة الرئيس "بوش" وحملته - على الأقل في بدايتها - دون تحفظات تذكر، حيلةً أو خوفاً أو "تقية".

ونحن هنا نرى أن التصنيف الحضاري ينبغي أن يكون على أساس القيم الحاكمة للتصور، والانحياز العملي بالتالي، فالذين رفضوا منطق الانتقام وحل النزاعات بالقوة المسلحة، والهجوم العسكري دون أدلة.. هم طرف واحد رغم انتمائهم لدوائر جغرافية شتى، ورغم تباين خلفياتهم الثقافية، ولغاتهم المنطوقة.

أما أنصار العنصرية، أو قتل المدنيين بلا تمييز عقابًا لحكوماتهم، واستخدام العنف كلغة عالمية بشأن الخلافات والصراعات بغض النظر عن نتائج هذا الاستخدام وتداعياته.. فهؤلاء أيضًا يمثلون طرفًا آخر، هو واحد رغم تباين الشعارات وتنوع الرموز والمظاهر، ونحن نتحدث عن "حوار حضاري" بين هذين الطرفين، بدلاً من حوار وهمي بين كتل حضارية غير متجانسة أصلاً.

وأجندة مثل هذا الحوار تتسع لتشمل الموقف من الأسرة، ومن الحريات المختلفة وقضايا العدل والحرية... إلى آخره، ولا ندعي أننا سنكون أبدًا بصدد كتل متجانسة، ولكننا نطمح إلى تحالفات جزئية أو كلية بصدد قيم واضحة وهموم مشتركة، واختيارات محددة في المجالات الاجتماعية والثقافية والتنموية، وهذا في حقيقة الأمر يفتح "حوار الأديان" والحضارات على الأفق الطبيعي الهام الذي ينبغي الانفتاح عليه، وهو أفق

"حقوق الإنسان"، وآفاق ما يسمى بمناهضة العولمة، وهذا الانفتاح هام ونافع، ولن يكون إلا إذا تخلينا عن أسطورة الكتل الحضارية المتجانسة والمتخيلة في أذهان الكثيرين ممن يتحدثون عن "حوار حضارات".

٦- من العقائدي إلى الثقافي:

حدث نوع من إهدار الإمكانيات، وتبديد الطاقات، وتزكية الصراعات في إطار التبشير بالعقائد المختلفة، وفكرة التبشير أو التبليغ بالشكل المعروف حتى الآن والشائع في بقاع كثيرة من العالم تحتاج إلى إعادة نظر، على ضوء النتائج التي تحققت طوال عقود، ونحن هنا نقصد الشكل وليس المبدأ.

والذي يهمنا في مجال مسألة الحوار هو التركيز على الدين بوصفه ثقافة، وتجليات نظام للحياة المادية كما هو نظام اعتقادي أو روحي.

لقد أصاب الجانب الثقافي للدين ضمور شديد عند المسلمين مثلاً، حتى إن أغلبهم لا يعرف تاريخ ما بعد الرسول ﷺ، أو فنون الحضارة الإسلامية في حقبها المختلفة، وكيف عاشت هذه الحضارة وعمرت الأرض، وقادت دفة توجيه البشرية لعدة قرون، وكيف أثرت وتأثرت بغيرها مما حولها من ثقافات وحضارات... وغياب هذا الإدراك جعل المسلم المعاصر بلا ذاكرة ثقافية حضارية، وجعله - بالتالي - عاجزا عن التواصل مع عصره أو غيره إلا كفاقد ذاكرة يكاد يكون كاللقيط الذي يبحث عن أصله ونسبه! وانتقال الحوار من العقائد إلى الثقافات سيدفع المتحاورين إلى مراجعة ما انطمس في وعيهم من ذاكرة العمران البشري بآدابه وفنونه وإنجازاته، فتخرج من المتاحف إلى عقول المسلمين وحياتهم ومجالسهم.

الدولية والإقليمية ومسئولي الكنائس الشرقية والغربية ولفيف من الباحثين والمفكرين ورجال الإعلام والمهتمين بقضايا الحوار.

وقد عكف المشاركون في هذا الملتقى على دراسة عدد من الأوراق والمداخلات التي ناقشت مفهوم التعارف باعتباره نتيجة من نتائج الحوار الهادف، الذي يعزز الاحترام المتبادل، ويرفض الظلم، ويقاوم الاستعلاء في الأرض، ويؤسس لعلاقة تعاونية بين الأقوام والشعوب، على أساس المساواة التي أكدتها الشرائع، وعززتها المواثيق، والأعراف الدولية، وقد وجه المشاركون في هذا الملتقى "نداء" أسموه "نداء طرابلس من أجل التعارف" هذا نصه: (*)

"إننا -نحن المشاركين- في الملتقى الفكري الحواري الذي نظمته وأشرفت عليه جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ومجلسها العالمي قد تدارسنا أوضاع عالمنا وما تحف به من مخاطر؛ نتيجة ابتعاد الناس عن الشرائع وانحرافهم عن درب الأنبياء والمصلحين، وانحسار مساحة القيم والأخلاق في الحياة، وظهور صور من العلاقات الظالمة بين الأمم والأفراد؛ لنتوجه بهذا النداء إلى كل قوى الخير والحق في عالمنا، من أجل غد أفضل لأجيالنا وعالم أكثر أمنا وسلاما لمجتمعاتنا، ويرتكز نداؤنا على الأسس والمبادئ التالية:

- التعدد الديني والإثني والثقافي واللغوي بين الناس والمجتمعات آية من آيات الله، وتعبيرعن المشيئة الإلهية في خلق الناس مختلفين؛ ليتعارفوا وليتدافعوا في عمارة الكون.

---

*)- البيان الختامي لملتقى "لتعارفوا" الدولي المنعقد بالعاصمة الليبية طرابلس على هامش الدورة الرابعة عشرة للمجلس العالمي للدعوة الإسلامي في الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٣م الموافق ٢٣ إلى ٢٥ رجب ١٤٢٤ هـ

- كرامة الإنسان وحريته مبدأ أساس في كل الأديـــان والمعتقـــدات، والمساس بتلك الكرامة بأي صورة من الصور أو تقييد تلك الحرية تحت أي مبرر يناقض ذلك الأساس ويصطدم بالمشيئة الإلهية التي كرمت الإنسان واستخلفته في الأرض.
- التمييز بين البشر أو المفاضلة بينهم على أساس الدين أو العرق أو اللون ممارسة عنصرية، لا يقرها دين، ولا تبررها شـــريعة، وأن انتهاج أي شكل من أشكالها أو إقراره تحت أي ظرف إنما هو عمل يتناقض مع كل القيم والأخـــلاق، ويتعـــارض مـــع كـــل الـــشرائع والمعتقدات.
- تعميم الأحكام وانتهاج أسلوب العقاب الجماعي ظلم كبير لأنه يأخذ الأبرياء بجريرة غيرهم، ويوسع دائرة العسف ويعرض مجتمعاتنـــا للخطر والعنف ويفتح الباب للعنف المضاد.
- التعارف بين الناس والحوار بينهم هو السبيل الأوحد لحل مشكلات عالمنا حلا منصفا، والجنوح إلى القـــوة فـــي التعامـــل مـــع تلـــك المشكلات إنما يذكرنا بصور الحروب المأســـاوية التـــي شـــهدها عالمنا، والتي يجب أن نتعاون جميعا، حتى لا يكتوي العالم بنارهـــا مرة أخرى.
- التطرف والتعصب والإرهاب أساليب يرفضها الدين وتمجها الفطرة السوية، لأنها تجر المجتمع الإنساني إلى صراعات وصدامات تؤثر سلبا على الحضارات الإنسانية، مما يحتم تعاونا دوليـــا لمعالجـــة أسبابه والتضامن في مقاومته.
- الدفاع عن النفس حق تدفع باتجاهه الفطرة وتقره الأديان وتضمنه الأعراف والمواثيق والخلط بينه وبين الإرهـــاب والتطـــرف إنمـــا

يساهم في تشجيع الظلم والعدوان ويسعى إلى تشويه الحقائق وقلب الموازين.

وفي سبيل تحقيق هذه المبادئ على أرض الواقع فقد أوصى المشاركون بما يلي:

أولا: التأكيد على التمسك بثقافة التعارف بين الناس؛ انطلاقا من القيم الروحية الإسلامية والمسيحية، ومن المبادئ الإنسانية السامية، وذلك على قاعدة احترام الإنسان الذي كرمه الله واستخلفه في الأرض.

ثانيا: العمل على إبراز القيم الأخلاقية المشتركة التي يدعو لها الإسلام والمسيحية في نبذ العنف والتطرف والغلو، وفي رفض منطق الاتهام الجماعي والإدانة الجماعية والعقاب الجماعي، وفي إدانة كل مظهر من مظاهر استغلال الدين وتوظيفه في الصراعات والخلافات السياسية والتأكيد على أن السلوك الإلغائي للآخر يتناقض مع هذه القيم الدينية التي تشكل ركنا أساسيا من أركان العقيدة في الرسالتين السماويتين: الإسلام والمسيحية.

ثالثا: العمل على استمرار موقع "لتعارفوا"، والذي أنشأته الجمعية خصيصا لهذا المؤتمر، وتطويره بحيث يصبح ملتقى دائما للمشاركين فيه وغيرهم من دعاة الحوار، وذلك لتعميم فكر التعارف ونقله من أن يكون محصورا بين النخب المثقفة إلى أن يصبح لغة مشتركة بين الشعوب.

رابعا: تنظيم لقاءات شبابية بين المسلمين والمسيحيين لتحقيق تعارف مباشر فيما بينهم سواء في حرم الجامعات والكليات أو في مخيمات صيفية توفر لهم إمكانات التعارف؛ لتصحيح ما قد يكون عالقا بأذهانهم من صور نمطية سلبية عن الآخر، وتمكنهم بالتالي من تكوين صور إيجابية وموضوعية متبادلة.

خامسا: التوجه إلى الجيل الجديد الذي يقع ضحية الحملات الإعلامية المضللة والمشوشة، وذلك من خلال القيام بحملات ثقافية وإعلامية تركز على ما في الإسلام والمسيحية من قيم ومبادئ أخلاقية سامية تحرم الاعتداء على حياة أي إنسان، كما تحرم إيجاد انتهاك لحقوقه وفي مقدمتها حقه في ممارستها شعائره الدينية بحرية.

سادسا: إصدار نشرة دورية تتضمن عرضا للأعمال والأنشطة التي تقوم بها مؤسسات ومنظمات وجمعيات إسلامية ومسيحية في إطار الحوار والتعارف، بما يمكنها من تبادل المعلومات وتنسيق النشاطات، وتشارك في إنتاج ثقافة التعارف المتبادل.

سابعا: مناشدة الجميع وخاصة الكتاب والإعلاميين والسياسيين تجنب استخدام المصطلحات الاستعدائية التي تتضمن اتهامات ضمنية جائرة بحق الآخر أو تمس بشعائره ومقدساته أو تحرض عليه و تستعديه.

ثامنا: الالتزام بأسس ومبادئ ثقافة الحوار بالتي هي أحسن، باعتبارها الأداة الوحيدة لتحقيق التعارف بين الناس، والتعريف بمقومات تلك الثقافة في مؤسساتنا التربوية والاجتماعية.

تاسعا: ضرورة الفصل بين المواقف السياسية لبعض الحكومات الغربية وبين العقيدة المسيحية، وكذلك الفصل بين الإرهاب والعقيدة الإسلامية، لما في الحالتين من إجحاف وتجني.

عاشرا: يؤيد الملتقى إنشاء مجلس دائم للحوار بين الأديان والعقائد في إطار الأمم المتحدة، دعما لأسس التعارف بين الناس، وإسهاما في إرساء قيم الحق والسلام في العالم.

حادي عشر: توثيق أعمال هذا اللقاء وتجميع أبحاثه ومداخلاته وترجمتها إلى عدة لغات توسيعا للفائدة، ونشرا لثقافة الحوار على أوسع نطاق".

* مقترحات إجرائية:

ونختم بمجموعة من المقترحات العملية نطرحها للنقاش استفادة من الزخم الذي اكتسبته فكرة حوار الحضارات في المنطقة، بدعوة السيد خاتمي، التي لاقت القبول الدولي بإعلان الأمم المتحدة لعام ٢٠٠١ عاماً لحوار الحضارات، والدفعة الإضافية التي تلقتها الفكرة والحوارات بأحداث سبتمبر وتداعياتها.

أولاً: تأليف كتاب مرجعي عن الأديان كثقافة وتجليات مشتركة أو مختلفة في الأقطار والأجناس المختلفة على مستوى الممارسة اليومية: أزياء - أطعمة - احتفالات... إلخ.

ثانيًا: دعم تدريب فريق من الناشطين والباحثين في الجوانب العملية والنظرية المتعلقة بحوار الأديان، ونقله إلى فضاء "حوار الحضارات"، ونذكّر هنا بمحاولات المعهد الملكي لدراسات الأديان بالأردن.

ثالثًا: دراسة وتقييم وتطوير الحركات الدينية بوصفها حركات اجتماعية وثقافية -لا مجرد حركات معارضة سياسية - والمساهمة في جذب اهتمامها لحوار الأديان والحضارات.

رابعًا: مقترح بعقد ندوة مشتركة مع الجهات المعنية؛ لتقييم التجارب السابقة لحوار الأديان، والبحث في تطويرها، والتنسيق بينها لتعظيم العائد منها.

خامسًا: تنشيط الدعوة التي تبناها الأمين العام للأمم المتحدة لتكوين مفوضية أو مستشارية خاصة بالأمم المتحدة تكون خاصة بالأديان والقيادات الروحية، مع التشديد على أهمية أن يشمل التمثيل الناشطين في المجال الثقافي والاجتماعي أهليًا.

سادسًا: السعي لإصدار إعلان عالمي - على غرار إعلان حقوق الإنسان وغيره - يتناول إبراز وتوجيه دور الأديان في حوار الشعوب وتعاونها

من أجل الحرية والعدالة والتنمية المتوازنة، ولعل هذا يكـون تتويجًـا مناسبًا لجهود حوار الحضارات

توصيات خاصة بمؤسسات التربية والتعليم:

١- الدراسة الموضوعية للثقافات المختلفة من خلال المنـاهج الدراسـية، مما يتيح للمتعلمين فهما أفضل لهذه لثقافات، وما بينها من اختلافـات وصراعات.

٢- توضيح ما بين هذه الثقافات من نقاط التقاء واتفاق لتقويتها وتعزيزها، ومن أوجه تباين واختلاف للاعتراف بها وإقرارها، حفاظا علي الهويات والخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب.

٣- الكشف المستمر عما يدور داخل الكتب الدراسية من تحيـزات ثقافيـة تحول دون التواصل والتقارب، والعمل علي استبعادها والقضاء عليها.

٤- تأكيد أهمية التبادل الثقافي والتربوي، من خلال البعثـات والزيـارات، وتبادل الطلاب والأساتذة والباحثين بين البلدان المختلفة.

٥- قيام المؤسسات التربوية الدولية بتشجيع التعاون التربوي، واسـتثمار مؤسسات التربية والتعليم النظامية وغير النظامية، بما فيهـا وسـائل الإعلام والتأثير والاتصال، لتأكيد القيم والاتجاهات التي تعمل علي تقبل الاخر، والتعامل معه وفق قيم وأخلاقيات المساواة والتـسامح، ونبـذ الكراهية والعنف.

٦- تحديث وتطوير المناهج الدراسية بحيث تعكس- كما تتضمن توصيات اليونسكو- التغيرات السياسية والاجتماعية الجارية، والأبعاد الأخلاقية والثقافية للتقدم العلمي والتكنولوجي، وضمان ارتبـاط هـذه المنـاهج بالمستويات المحلية والقومية والدولية.

٧- تنميه المداخل المتخصصة ومتعددة التخصص Interdisciplinary approach ، ودعم وتعزيز التجديدات التربوية.

٨- الاهتمام بالمعلم وتسهيل مشاركته الحقيقيـة فـي صـنع القـرارات المدرسية والتعليمية، والعمل علي حسن إعداده وتدريبه، بحيث يصبح قادرا علي تنمية أفضل لقيم التسامح، والتعـايش الـسلمي، واحتـرام التنوع الثقافي.

٩- العمل علي تنمية ثقافة الديمقراطية داخـل المدرسـة، تعميقـا لقـيم التسامح والاحترام المتبادل، والتعبير عن الـرأي والحـوار المثمـر، وتشجيع التلاميذ علي المشاركة في عمليات صنع القرار.

١٠- تنمية قيم المواطنة لدي الشباب، لضمان مشاركتهم الفعالة في الحياة السياسية، وتحقيق الأهداف المنشودة، والقدرة علي نقدها وتقويمها.

١١- مساعده الشباب علي إتقان اللغـات والإلمـام بالمعـارف المختلفـة والثقافة العلمية والتكنولوجية وغيرهـا مـن الاحتياجـات التربويـة الضرورية، للتعايش مع الآخرين والتفاعل معهم.

١٢- تشجيع البحوث والدراسات التي تتناول مفاهيم الحوار، والتعلم مـن أجل العيش معا.

١٣- تشجيع الدراسات المقارنة علي مختلف المستويات المحلية والإقليمية والدولية.

١٤- تعريب المناهج بحيث نسير في اتجاهين متوازيين، والتدريس بلغتين، وهذا سيخلق تراكما أكاديميا علميا ثقافيا لدى هذا الجيـل، فيـستطيع ترجمة ما يناسب مجتمعه، ويقول زكي مبارك: "يجـب أن نـستوعب الثقافات الأجنبية ، ويحسن حين يمكن ذلك أن نهضمها بحيث تـصبح

عنصرا من ثقافاتنا القومية، .. وتذكروا دائما أني لا أوصيكم بالفناء في الآداب الأجنبية، ولكني أوصيكم بالتخلق بأخلاق الأقوياء من الأجانب، وعهدي بهم ينقلون إلى لغاتهم ما يملكون نقله من جيد الآراء، ثم يتصرفون تصرف العبقريين لا تصرف الناقلين"[٦].

١٥- يجب أن يكون الغرض الأول من كل جهودنا في التعليم أن نضمن للفرد حياة معقولة قابلة للنمو والترقي، وأن نضمن للأمة عن طريق هؤلاء الأفراد، مجتمعا متناسقاً قابلاً للتعاون الإنساني مع كافة المجتمعات الإنسانية. [٨]

١٦-ويأتي دور المناهج والمواد التعليمية لتعمل علي تنميه قدرات الأفراد، وإمكاناتهم للحياة في هذا المجتمع العالمي الواسع، وهذا يتطلب القدرة علي التعامل مع الآخرين، وتقبل وجهات النظر المختلفة، والقدرة علي التفاوض والإقناع، والقدرة على اتخاذ القرارات، وغيرها من المهارات الحياتية اللازمة للفرد، كما يعتبر إتقان العمل من أهم القيم الواجب غرسها في أذهان ونفوس التلاميذ منذ بواكير طفولتهم[٩]

وهذا يتطلب تضافر كل الجهود مع مراعاة خصوصيات الشعوب، وتقاليدها الحضارية والمجتمعية، والاحترام المتبادل بينها، وإتباع طرق الحوار والتعاون كأداة مثلى لحل الخلافات والصراعات، مما يخلق مناخا مناسبا لقيام التربية بدور فعال في هذا المجال.

---

[٦] - زكي مبارك، "الثقافة العربية هل ..غي استقلالها عن الثقافات الأجنبية؟" مجلة الهلال ، .. مبر، ١٩٣٦، ص ص ٢٨-٣١

[٧] - سيد قطب، "الأهداف العليا للتعليم في المجتمع والحياة" مجلة الشئون الاجتماعية العدد ال..سع سبتمبر ١٩٤٥ .

[٨] - عباس محمود العقاد، "حديقة الأفكار"، مجلة الرسالة، ص١٣

[٩] أحمد يوسف القرعي، مفاهيم في مناهجنا الدراسية، الأهرام، ٣ يونية، ٢٠٠٣، العدد ٤٢٥٧٧.

١٧-على أن الدعوة للإصلاح بشكل عام وجذري- بما في ذلك المناهج- هي دعوة مشتركة باتفاق وطني، فلماذا- إذن- يسعى بعضنا إلى محاربة بعضنا الأخر لرفض الآخر المختلف واحتكار المجال للذات وتحقيق رمزية شخصية عبر النفي والإلغاء؟ هذه ليست لغة الحوار، وهذا ما يجب أن نصمد أمامه للمحافظة على ثقافة الحوار ومحاولة غرسها في بيئتنا الثقافية التي مازالت في طور (التمرين على الحوار) وهذا يحتاج إلى جهد كبير وإلى صبر منا ومن غيرنا على وعثاء هذا السفر الفكري والنفسي.

والله المستعان على ما تصفون، ويكفي أن نتذكر الآية الكريمة التي تغرس فينا مبدأ عظيم لا يستقيم حوار من دون تدبرها:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّه شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(٨) المائدة)

# المراجع


١. ابن منظور، لسان العرب، طبعة يوسف الخياط، دار الجيل – دار لسان العرب، بيروت ١٩٨٨. المجلد ٣، صفحة ٤٣٠

٢. أحمد أمين، يوم الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٥٢، ص ١٨٠-١٨١.

٣. أحمد زويل في كلمته التي ألقاها عندما كرمته مصر في ١٩٩٩/١٢/١٥.

٤. أحمد صدقي الدجاني، "الحوار مع الآخر في الإسلام"، ورقة قدمت إلى مؤتمر الإسلام وقضايا العصر، الأردن: عمان ١٦-١٧ ديسمبر ٢٠٠٢. ص ٣١١

٥. أحمد عبد الله، حوار الأديان أسئلة مشروعة وإجابات صعبة، ٢٠٠٢/٤/١٢، شبكة المنار موقع بالإنترنت.

٦. أحمد كمال أبو المجد، الخطاب الديني المعاصر، author.asp?name. موقع بالإنترنت، رؤى إسلامية. ٢٠٠٣/٨/١٩

٧. أحمد مجدي حجازي، "العولمة وتهميش الثقافة الوطنية،" مجلة عالم الفكر، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ص ١٤٠-١٤٢.

٨. أحمد نصيب لوبيجا، "الإسلام والتعايش بين الأديان" المؤتمر العاشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، أبحاث المؤتمر :الإسلام والقرن الحادي والعشرين، القاهرة، ٢-٥ يوليو ١٩٩٨

٩. أحمد يوسف القرعي "الأمة الإسلامية في فكر محضير محمد" جريدة الأهرام، ١ نوفمبر ٢٠٠٣، العدد ٤٢٦٩٨

١٠. أحمد يوسف القرعي، مفاهيم في مناهجنا الدراسية، الأهرام، ٣ يونية، ٢٠٠٣، العدد ٤٢٥٧٧.

١١. إسماعيل إمام عيسى، "الخطاب الديني تجديد وتحديث" جريدة الأهرام، ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٣، العدد ٤٢٦٩٣.

١٢. أنتاناس موكيوس: التعايش كتوافق بين القانون والأخلاق والثقافة ، مسليات العدد ١٢١ ، التعليم من أجل العيش معاً ،القاهرة،مركز مطبوعات اليونسكو،مارس ص٣٠،٣١

١٣. أيوانا كوسورادي: التسامح وحدود التسامح الديني ، ديو جين ، العدد ١٧٦ / ١٢٠ ، مطبوعات اليونسكو القاهرة ص١٢٢

١٤. البيان الختامي لملتقى "لتعارفوا" الدولي المنعقد بالعاصمة الليبية طرابلس على هامش الدورة الرابعة عشرة للمجلس العالمي للدعوة الإسلامي في الفترة من ٢٠ إلى ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٣م الموافق ٢٣ إلى ٢٥ رجب ١٤٢٤ هـ

١٥. توماس بالدوين: التسامح والحق في الحرية ، التسامح بين شرق وغرب ، دراسات في التعايش والقبول بالآخر، ترجمة إبراهيم العريس ،بيروت، دار الساقي ، د.ت. ط١، ص٧١

١٦. جلال أمين، "العولمة والهوية الثقافية" مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٣٤، أغسطس، ١٩٩٨، ص ٦٠

١٧. جلال أمين، ماذا حدث للمصريين؟ تطور المجتمع المصري في نصف قرن ١٩٤٥-١٩٩٥، القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٨.

١٨. جمال رجب سيدبي، "التواصل الحضاري" جريدة الأهرام، ٢٣ يونية ٢٠٠٢، العدد ٤٢١٩١.

١٩. الحبيب الجنحاني، "ظاهرة العولمة الواقع والآفاق"، عـالم الفكـر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنـون والآداب، ديـسمبر ١٩٩٩.

٢٠. الحركات الإسلامية وهجمات ١١ سبتمبر . خلافات وخلفيات، محمد المختار الشنقيطي، موقع الجزيرة نت .

٢١. حسام الخطيب،"أي أفق للثقافة العربية وأدبها في عـصر الاتـصال والعولمة؟، مجلة عالم الفكر، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩٠.

٢٢. حسن حنفي، الإسلام السياسي بين الفكر والممارسة، في "الحركات الإسلامية وأثرها علـى الاسـتقرار الـسياسي" القـاهرة: دار النهضة، ٢٠٠٢ .

٢٣. حسن محمد وجيه، "نظرات اللغة ونظريات العولمة ج(٢)" الأهرام، في ٨/١٠/ ١٩٩٩م ص ١١

٢٤. حسنين توفيق إبراهيم، العولمة : الإبعاد والانعكاسـات الـسياسية، عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون و الآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ص ١٩٨-١٩٩.

٢٥. حسين معتوق سياب، "الحوار والنقد، رؤية اجتماعية" فـي موقـع قطيفيات. ٢٠٠٣/٧/٢٩.

٢٦. أحمد الطيب، "خصائص الحضارة الإسـلامية مقارنـة بالحـضارة الغربية"،أبحاث مؤتمر حقيقة الإسلام في عالم متغير، القاهرة:

٢٧. حيدر إبراهيم، "العولمة وجدل الهوية الثقافية"، مجلة عالم الفكـر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنـون والآداب، ديـسمبر ١٩٩٩.

٢٨. حيدر إبراهيم، "العولمة وجدل الهوية الثقافية"، مجلة عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩،

٢٩. رجائي عطية " الأديان، الهداية أم الأمجاد(١)" جريدة الأهرام، ١٣ فبراير ٢٠٠٤، العدد ٤٢٨٠٢.

٣٠. رجائي عطية " الأديان، الهداية أم الأمجاد(٢)" جريدة الأهرام، ٢٠ فبراير ٢٠٠٤، العدد ٤٢٨٠٩.

٣١. رواق عربي: إبريل ١٩٩٦ ، إعلان مبادئ التسامح ، مركز القاهرة لحقوق الإنسان.

٣٢. زكي الميلاد، الفكر الإسلامي الجديد، ملامح وقضايا، مجلة الكلمة، تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، ع ٢٣، ربيع ١٩٩٩م / ١٤٢٠هـ .

٣٣. زكي مبارك، "الثقافة العربية هل ينبغي استقلالها عن الثقافات الأجنبية؟" مجلة الهلال ، نوفمبر، ١٩٣٦، ص ص ٢٨-٣١

٣٤. زكي نجيب محمود، "جملة ينقصها الفعل"، جريدة الأهرام، في ١٩٨٧/٢/٢٤، ص ١٣.

٣٥. زكي نجيب محمود، "فالق الحب والنوى" جريدة الأهرام، ١٩٨٥/١١/٣٦.

٣٦. زكي نجيب محمود، جنة العبيط، القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٧،

٣٧. زكي نجيب محمود، في مفترق الطرق، القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٨،

٣٨. زكي نجيب محمود، قيم من التراث، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٧،

٣٩. زكي نجيب محمود،، عن الحرية أتحدث، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٦، ص ٢٤٣، أيضا الأهرام "كانت بالأمس شجرة خضراء" في ٢٨/١/١٩٨٥.

٤٠. سالم يفوت، "هويتنا الثقافية والعولمة" مجلة فكر ونقد، العدد ١١ السنة الثانية، سبتمبر ١٩٩٨، ص ص ٣٧-٤٣

٤١. سامي خشبة "مناهضة التمييز وثلاث إضافات لتجديد الاستنارة" جريدة الأهرام، ٢٣ يناير ٢٠٠٤، العدد ٤٢٧٨١

٤٢. سامي خشبة، "دعم الحوار بين الثقافة العربية والإسلامية، والثقافات الأخرى"، موقع على الإنترنت،author.asp

٤٣. سامي خشبة، "مصطلحات فكرية، ثقافة مدنية" الأهرام، في ١/١٠/ ١٩٩٩م ص ١١

٤٤. سعيد إسماعيل على"سيد قطب يرد على كتاب مستقبل الثقافة في مصر" الهلال: دار الهلال، نوفمبر ١٩٨٦، ص٥٧.

٤٥. سلمان بن فهد العودة، أخلاقيات الاختلاف، . author.asp?name/ة ١٣/٩/٢٠٠٣

٤٦. سيد قطب، "الأهداف العليا للتعليم في المجتمع والحياة" مجلة الشئون الاجتماعية العدد التاسع سبتمبر ١٩٤٥ .

٤٧. سيد قطب، "العالم الجامح يثوب إلى الرشاد"، مجلة الشؤون الاجتماعية، العدد ٤، السنة الثانية، ١٩٤١، ص ٥٢

٤٨. السيد ياسين" مؤتمر "صراع الحضارات أم حوار الثقافات " المنعقد في القاهرة في أكتوبر ١٩٩٧ وبإشراف منظمة تضامن الشعوب الأفروآسيوية .

٤٩. سيد يس، "أوراق ثقافية" جريدة الأهرام، القاهرة في ١٤/٨/ ١٩٩٥م صفحة ١٩.

٥٠. شاكر مصطفى، في ندوة أزمة التطور الحضاري العربي التي عقدت بالكويت عام ١٩٧٤.
٥١. طه حسين مستقبل الثقافة في مصر ، القاهرة: دار المعارف، ١٩٣٨.
٥٢. عباس محمود العقاد ،"المواطن العالمي"، مجلة الرسالة، ص ٢٤
٥٣. عباس محمود العقاد، "الفرد و الدولة " مجلة الرسالة، ص ١٣
٥٤. عباس محمود العقاد، "اللغات الأجنبية"، جريدة البلاغ، العدد ٧٨٥، القاهرة في يوم الخميس ١١ من ربيع الثاني سنة ١٣٤٤.
٥٥. عباس محمود العقاد، "النظام والتربية القومية"، المرجع السابق، ص ٣٣.
٥٦. عباس محمود العقاد، "النظام والتربية القومية"، مجلة الرسالة ، ع ٥٢٧ ، ٩ أغسطس ١٩٤٣ص ٣٢
٥٧. عباس محمود العقاد، "حديقة الأفكار"، مجلة الرسالة، ص ١٤
٥٨. عباس محمود العقاد، "يوميات الأخبار"، جريدة أخبار اليوم، ٢٢ يناير ١٩٤٩،
٥٩. عبد الحليم منتصر، "الثقافة والمثقفون" مجلة رسالة العلم ، يونيو ١٩٦٤، العدد الثاني ص ص ٥٣-٥٨
٦٠. عبد الخالق عبد الله، "العولمة جذوها وفروعها كيفية التعامل معها" عالم الفكر، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ديسمبر ١٩٩٩، ص ٧٤.
٦١. عبد الخالق عبد الله، "العولمة ومحاولة دمج العالم" مجلة العربي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٤٦٥ أغسطس ١٩٩٧، ص ص ٣٩

٦٢. عبد الرحمن حللي، منهج الحوار في القرآن الكريم، شبكة الوحدة الإسلامية، المقالة ٣٨. في ٢٠٠٣/٢/١٥. الموقع: http://www.alwihdah.com/view.asp?cat=١&id=٣٠

٦٣. عبد الرحمن حللي، حرية الاعتقاد في القرآن الكريم، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠٠١، ص ٩٤-٩٦.

٦٤. عبد العزيز التويجري، الحوار من أجل التعايش، ص ٢٣ - ٢٢، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٨.

٦٥. عبد العزيز التويجري، خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، مرجع سابق، ص ٣٨.

٦٦. عبد العزيز بن عثمان التويجري، خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو ـ الرباط، ٢٠٠٢، ص ٢٧.

٦٧. عبد العزيز بن عثمان التويجري، صراع الحضارات في المفهوم الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ٢٠٠٠

٦٨. عبد الله التطاوي، "إنه مولد حقوق الإنسان" جريدة الأهرام، ٢٣ مايو ٢٠٠٣، العدد ٤٢١٧١.

٦٩. عبد الله التطاوي، "بل كان مولدا لحقوق الإنسان" جريدة الأهرام، ١٣ مايو ٢٠٠٣، العدد ٤٢٥٢٦.

٧٠. عبد الله حمدنا الله (جريدة المسلمون - عدد ٣٣٧-٨ المحرم ١٤١٢):

٧١. عبد المتعال الصعيدي، أدب الجدل في القرآن الكريم، مجلة رسالة الإسلام العدد ١٢.

٧٢. عبد الوهاب المسيري، النظام العالمي، مجلة المنار الجديدة، التجمع الإسلامي في أمريكا الشمالية العدد العاشر/ ٢٠٠٠
٧٣. عبد الوهاب المسيري، النظــام العــالمي، موقــع الوحــدة، فــي ٢٠٠٣/٦/٥.
٧٤. على القرشي، "مفهوم الحضارة بين ملك بن نبي وسيد قطب، مجلة الهلال، القاهرة: دار الهلال سبتمبر ١٩٨٧، ص ١٢٥
٧٥. على وطفة، "الثقافة وأزمة القيم في الــوطن العربــي"، المــستقبل العربي، بيروت: معهد دراسات الوحدة العربية، العــدد ٢٠١٢ فبراير ١٩٩٥/ ص ٣٥-٦٦.
٧٦. فؤاد زكريا، "انكشفنا أمام العالم كأصحاب فكر مهمل"، الحياة، مقابلة في ١٩٩٤/٥/٢٦، ص ١٦
٧٧. فرانكلين ــ ل ــ باومر، الفكر الأوروبي الحديث : الاتصال والتغيّر في الأفكار من ١٦٠٠ إلى ١٩٥٠، الجزء الثالث، ترجمة أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩، سلسلة الألف كتاب (الثاني) ص ٩٨.
٧٨. فضل الله (محمد حسين)، "الحوار: أبعاد وايحاءات ودلالات"، مجلــة المنطلق، عدد ١٠٥، ربيع الأول ١٤١٤ هـــ،ص ١٦.
٧٩. فضل الله : الإسلام دين فكر وحركة وحوار، حوار مع السيد محمد حسين فضل الله، حاوره وحيد تاجا، موقع إسلامي أون لاين، ٢٠٠١/٥/١٧ .
٨٠. فهمي هويدي، الإسلام والديمقراطيــة، القــاهرة: مركــز الأهــرام للترجمة والنشر، ١٩٩٣. ص ٢١٧

٨١. كارل بوبر: التسامح والمسئولية الفكرية، التسامح بين شرق وغرب، دراسات في التعايش والقبول بالآخر،بيروت، دار الساقي، لبنان .
٨٢. كارل بوبر: بحثاً عن عالم أفضل ترجمة أحمد مستجير، القاهرة،الهيئة العامة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة ١٩٩٩ .
٨٣. كريستوفر دوسن، تكوين أوروبا، ترجمة ومراجعة، سعيد عبد الفتاح عاشور، و محمد مصطفى زيادة، مشروع الألف كتاب : ٦٤٢، القاهرة ١٩٦٧.
٨٤. مؤتمر الجامعات، مجلة الرسالة، س١٠، ع٥٢، ١٩٤٨، ص ١٠ .
٨٥. مازن الفريح، أدب الحوار في الإسلام، موقع ناصح للسعادة الأسرية، ٢٠٠٣/٤/١٩.
٨٦. ماهر الشريف، رهانات النهضة في الفكر العربي، دمشق : دار المدى للثقافة والنشر بالتعاون مع مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، ط بدون، عام ٢٠٠٠م، ص ١٣٨.
٨٧. مجلة يثرب الجديدة : الحركات الإسلامية الراهنة، مصدر سابق، ص ١٣ .
٨٨. محمد السماك، "ثقافة الحوار في الإسلام: حرية الاختيار وحق الاختلاف"، جريدة النهار، ١٧ تشرين ثاني، ٢٠٠٢.
٨٩. محمد القدوري "أدب الحوار في الإسلام"، في ٢٠٠٣/٤/٩، موقع author.asp?name/ي
٩٠. محمد المهدي، "الحوار السلبي"، كلية الطب، قسم الطب النفسي جامعة المنصورة، ٢٠٠٣/٤/٤ .

٩١. محمد جابر الأنصاري، أنا والآخر ذلك النفس، مجلة العربي، العدد ٥١٨، الكويت، يناير ٢٠٠٢، ص ٣٣
٩٢. محمد خاتمي (رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية)، مدينة السياسة : فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب، دار الجديد، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٠، ص ص١٨٤-١٨٣.
٩٣. محمد ظريف، "الإسلام السياسي في الوطن العربي"، المغرب : منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، ط الثانية، نوفمبر ١٩٩٢م، ص ٥ .
٩٤. محمد عابد الجابري، العرب والعولمة: العولمة والهوية الثقافية، تقييم نقدي لممارسة العولمة في المجال الثقافي في مجموعة بحوث: العرب والعولمة، الندوة الفكرية تحرير أسامة الخولي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ديسمبر ١٩٩٨ ص ٢٩٧.
٩٥. محمد عباس، "الثقافة العربية وتحديات العولمة" مجلة شؤون عربية، العدد ٦١-ربيع ١٩٩٩،
٩٦. محمد علي التسخيري "الاختلاف وأسلوب الحوار الحكيم" أبحاث ندوة أدب الاختلاف في الإسلام التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بالتعاون مع جامعة الزيتونة تونس ١٠ – ٨ ديسمبر ١٩٩٨م
٩٧. محمد علي التسخيري "الاختلاف وأسلوب الحوار، مرجع سابق.. موقع هام بالإنترنت www.alwehda.com
٩٨. محمد علي الجوزو، "الحوار مع الغرب" أبحاث المؤتمر الرابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة: وزارة الأوقاف، ٢٠-٢٢ مايو، ٢٠٠٢، ص٤٤٦

٩٩. محمد عمارة "الاستنارة بين الذات والآخر.. مقاربة قرآنية لاستشفاف الضرورات"، في ٢٠٠٣/٨/٧، موقع الندوة author.asp?name/ي

١٠٠. محمود قمبر، "الحرية الأكاديمية في الجامعات العربية" بحث مقدم للمؤتمر الثالث لقسم أصول التربية جامعة الكويت "الديمقراطية والتربية في الكويت والوطن العربي" في الفترة من ٢٧-٢٩ نوفمبر ١٩٩٩

١٠١. المسلمون والإسلام بعد أحداث ١١ سبتمبر، موقع إسلامي أون لاين : حوارات حية، محمد جمال باروت ٢٠٠٣/١/٢١م .

١٠٢. الموسوعة السياسية، إشراف د. عبد الوهاب الكيالي وكامل الزهيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ، صفحة ٣٤٤، ١٩٧٤.

١٠٣. ندوة خاصة أعدتها المجلة العربية للعلوم الإنسانية، "الثقافة العالمية والثقافات المحلية"، العدد ٦٦، ربيع ١٩٩٩، ص ٢٠٦

١٠٤. هانس بيتر مارتن، هارالد شومان، فخ العولمة: الاعتداء على الديمقراطية والرفاهية، ترجمة عدنان عباس علي، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، ٢٣٨، اكتوبر ١٩٩٨، المقدمة ص ١٥.

١٠٥. هشام جعفر وأحمد عبد الله، حول التحول في حركة الإسلام السياسي في الشرق الأوسط، ، بيروت : مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ع ٢٥٩، عام ٢٠٠٠، ص ١٤٠ .

١٠٦.هويدا عدلي: التسامح السياسي، المقومات الثقافية للمجتمع المدني المصري ،القاهرة، مركز القاهرة لدراســات حقــوق الإنــسان ٢٠٠٠ ، القاهرة ص٣٨

١٠٧.يوسف القرضاوي، "أوليات الحركة الإسلامية"، الدوحة: ١٩٩٠ .

١٠٨. **Roland** Robertson. Globalization and social Modernization: A note on Japan and Japanese Religion in Sociological Analysis, London: ١٩٨٧. P.٢٢١.

١٠٩. **Huntington,"Clash of Civilizations,** London: Touchstone Books, ١٩٩٦,P.٢٧

# ملحق (١)

## حوار الحضارات .. نظرات وخطرات

الأمير: الحسن بن طلال

# حوار الحضارات.. نظرات وخطرات[1]

## الأمير الحسن بن طلال

**رئيس منتدى الفكر العربي، ورئيس منتدى روما**

الحوار قيمة حضارية بالغة الأهمية في حياة الأمم والشعوب، سواء في علاقات هذه الأمم بين ظهرانيها، أو في علاقات هذه الأمم ببعضها البعض. كيف ذلك؟ هذا ما يدلنا عليه الاجتهاد المقدم من الأمير الحسن بن طلال؛ والذي يدور حول المحاور التالية:

- **الحوار والنموذج الجديد للعلاقات العالمية**
- **إدراك القيم المشتركة مفتاح العالمية العادلة**
- **الإسلام والعولمة.. التكامل على صعيد القيم**
- **لماذا الدعوة لنموذج "جديد" للعلاقات العالمية؟**
- **مراحل الثقافة العالمية والدعوة للتجديد الثقافي**

يقول الله تعالى في كتابه الكريم: **"يا أيها النَّاسُ إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وَجَعَلْنَاكم شُعوبًا وقبائل لِتَعَارَفُوا إنَّ أكرَمَكُم عِنـدَ الله أتقـاكُم إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ" (سورة الحجرات ٤٩، آية: ١٣).**

### الحوار والنموذج الجديد للعلاقات العالمية

من خلال فحص الحوار كقيمة مهمة في حياتنا وكأداة نجد أن الحوارَ أداةٌ مناسبةٌ لبناءِ نموذج جديد من العلاقات العالمية؛ لأنه الخطوة الأولى التي تمنحُنا إحساسًا بالانتماء، والإقرار بما هو مشتركٌ بيننا.

---

[1]- قدمت هذه الورقة أمام مؤتمر المشاهير، بدبلن – إيرلندا، والذي عُقد في ٣٠ – ٣١ آيار / مايو ٢٠٠١م. والورقة مترجمة عن الأصل الإنجليزي.

ولكي يحظَى أيُّ مقترحٍ بالشرعية، يجب أن تكون له صلة بالتقاليد الدينية والثقافية والقانونية المختلفة، وإذا أمكن تحقيق ذلك فإن العولمة (Globalization) أو العالمية (Universalisation) لن يُنظَر إليها باعتبارها أمرًا مفروضًا من الغربِ أو من الولايات المتحدةِ على بقية البشر، بل سيتم تقبُّلها كطريقة لتحديث كل واحد من هذه التقاليد وتوسيعه، مع المحافظة على جذوره. وعلى نحو مماثل، سيكتشف كل نمط من هذه التقاليد أن التحديات التي واجهها البشر على مر القرون قُوبِلَت بأساليبَ متشابهةٍ قليلاً أو كثيرًا. وعندها قد تميل المجتمعات الأهلية المختلفة إلى تقبُّل الآخر أخًا يقاسمها المصير الإنساني ذاته، لا عدوًا محتملاً.

وقد قام الشيخ سعيد رضا عاملي، من المركز الإسلامي في إنجلترا، بتوسيع فكرة رُهاب الإسلام (Islamophobia)، وتحدث عام ١٩٩٧ عن ذلك التوجه الرامي إلى تركيز الاهتمام على الطِّباع أو الخصائص الأوروبية (Eurocentrism)، والذي وصفه بأنه مناهض للعالمية؛ لأنه - وهنا تكمن المفارقة - يدَّعي وقوفه على أرضية أخلاقية عالية ذاتِ طَابعٍ عالميٍّ تزعُم أن تقليدَ النموذجِ الغربيِّ من جانب شعوب العالم كافة هو الحل الوحيد لمواجهة تحديات هذا الزمان. والحق أن ذلك التوجه، وهو ظاهرةٌ جِدُّ معاصرة، يرتكز على وجهة نظر عنصرية (حسب منطق الشيخ سعيد) متأصلة جذورها في رُهاب الإسلام.

ووفقًا للأستاذ الدكتور أكبر بن أحمد، فإنَّ جذورَ الإسلام مترسِّخة في الحوار. فحين انطلقَ الإسلامُ من شبهِ الجزيرةِ العربيةِ انهمكَ على الفور في حوارٍ مع الحضارات. وعلى نحو مشابه، فإن الحوارَ متأصلٌ في الإسلام. لكنَّ النقاشَ مخنوقٌ بسبب من تلك الصورة الساخرة الكاريكاتيرية للعالم الإسلامي، كما هو الحال بالنسبة لصورة الغرب في أعين العالم الإسلامي.

فالتصورات الخاطئة، إذا متبادلة ومفرطة، إنه الحوار بين الأصمّ والأبكم والأعمى.

عند بناء نموذج جديد للعلاقات العالمية، نجد أننا بحاجة -أيضًا- إلى بناءِ حقل مكمِّل من حقول المعرفة: هو علم السياسة البشرية (Anthroplotics)؛ أي سياسة من أجل الإنسانية. ففي اللحظة التي نُقِرُّ فيها بقيمتنا الإنسانية، يصبحُ الانتقال من العداء الجامح إلى السلام أكثر سهولة. إنَّ إعلانَ برلمانِ الأديانِ العالميِّ، تحت عنوان: أخلاقيات عالمية، يسعى في لحظةٍ معينةٍ إلى ربط الأفعال الإنسانية بأرضية أخلاقية. والمبادئ الأربعة الأساسية قريبة من فكرة الحقوق الطبيعية (Ius naturalis)، وتشكِّلُ الحد الأدنى للفهم الأخلاقي المشترك بين الأديان الحالية والثقافات التي تتبناها. واليوم -أكثر من أي وقت مضى- يتطلب الأمر وضع أخلاقياتِ للتضامنِ الإنسانيِّ وإقامةِ نظامٍ إنسانيٍّ دوليٍّ جديد.

نتحدث اليوم عن الحاجة إلى مصفوفة شاملة ( An overarching matrix) من الموضوعات التي تدخل في إطار القانون الإنساني الدولي وحقوق الإنسان من جهة وأخلاقيات التضامن الإنساني من جهة أخرى. إنَّ كل موضوع يُمكنُ أن يخطرَ بالبالِ، ويتعلقَ بالنزاعاتِ بين البشرِ أنفسِهم، أو بين الإنسانِ والطبيعةِ، أو الكوارث الطبيعية وتلك التي يصنعُها الإنسان، يندرج في مكان من ضمن هذه المصفوفة. لكن للأسف، رغم كل مواردنا البشرية والمادية والتكنولوجية، ما انفك العالم أغنى في المشكلات وأفقر في الحلول.

ثمة حاجةٌ ملحةٌ على المستوى العالميِّ لتطويرِ صرحٍ للتضامنِ الإنسانيِّ، يكون مقبولاً عند الجميع. وفي اجتماع لنادي روما عُقِدَ مؤخرًا، اقترحتُ أن مصطلحَ أخلاقيات (Ethics) يجب أن يُفسَّرَ بمعناه الواسع، أي

ألا يقتصرَ على الجانبِ الأخلاقيِّ، بل يتعدَّاه ليغطي القيم الاجتماعية الثقافية المشتركة التي لها صفةُ الكليةِ أو الشموليةِ، والتي صَمَدَت على مرِّ الزمان. فالهدف يجب أن يكون تعزيزَ كل ما من شأنه أن يربط بين البشر ويؤلف بين قلوبهم، سواء كان ذلك على أسسٍ حضاريةٍ وقواسمَ مشتركةٍ، أو حتى لمجرد أسباب فكرية.

تذكر أنماري شيميل (Annemarie Schimmel) في كتابها "أحلام يسوع في التقاليد (Dreams of Jesus in the Islamic Tradtion) الإسلامية": "باعتباره آخرَ نبيٍ أرسلَه اللهُ قبل مجيء محمدٍﷺ، فإن يسوع المسيح، ابن مريم، يشغل مكانة عاليةً جدًا في مجال التقوى عند المسلمين، فهو نموذج الفضيلة والتواضع والزهد، وهو عابرُ سبيلٍ وصوفي حقيقي لا يرى إلا الجوانب الإيجابية في كل شيء في الحياة. ذلك هو يسوع المسيح في التقاليد الإسلامية الرفيعة والشعبية".

وإذا كانَ بإمكانِ أبناءِ الطوائف الدِّينيَّة المختلفة تكريمُ الأنبياءِ أنفسهم، واعتبارهم نماذجَ يجدرُ الاقتداء به؛ فربما لا نكون بعيدين كثيرًا عن الحوار الذين نصبو إليه جميعًا.

إن القمة العالمية للقادة الدينيين والروحيين، التي عُقِدَت في مقرِّ الأممِ المتحدةِ في نيويورك في آيار / مايو ٢٠٠٠م، حاولت أن تؤسِّسَ مجلسًا استشاريًّا دينيًّا دائمًا تابعًا للأممِ المتَّحدة. فمنذ الآن يجبُ تشكيلُ تحالفات بين الزعماء الروحيين والحكومات وممثلي المجتمع الأهلي؛ بهدف إنشاء شبكة عالمية للمبادرات، من شأنها أن تؤدِّيَ إلى سياساتٍ أفضل وأفعالٍ مسئولة، إذ لا يمكنُ للأخلاقياتِ العالميةِ الجديدة أن تتجاهل ما تمتلكه الإنسانيَّة من حسٍّ بالرُّوحانية.

وهناك قول أثير للاقتصادي المشهور الدكتور أمارتيا سن ( Dr. Amartya Sen) يؤكد فيه: إن القطب المقابل للعولمة هو الانفصالية المزمنة والحكم المطلق (Autarky) الذي لا يلين.

نحن نتكلم عن هذا العالم بدلالة المواقف والأفضليات السياسية، وليس بدلالة أخلاقيات التضامن الإنساني. فإذا كنا نتحدث عن الحاجة إلى إدارة عالمية ومسئولة فنحن بحاجة أيضا إلى الإقرار بضرورة تطوير أخلاقيات عالمية.

في كثير من اللغات تترجم العولمة إلى العالمية. ومع أن المرء يستطيع أن يدرك عالمية القيم، إلا أنه لا يستطيع أن يتفهم المقصود من عولمة الذين يملكون الأشياء والذين لا يملكونها. علينا إذا أن نتقدم نحو عالمية القيم، ونتحدث عن إدارة الصالح العام عالميا، ليس فقط بدلالة الحرب والسلام، وإنما أيضا بدلالة المشاركة الواسعة للمجتمع الأهلي في الحوار العالمي. وحين نتكلم عن الإدارة العالمية فإن العبارة التي كتبت على ضريح السفسطائي البيزنطي ليفانوس (Livanus) "لقد لامس قلبه حب الصالح العام"، ربما تكون – هذه العبارة – شعارا مناسبا لمثل هذه المبادرة. وهذا يستلزم، ليس فقط أن تشمل النخبة القادة بيننا، لكن أيضا الشباب والنساء والأقليات الذين لهم جميعا تجربتهم المباشرة ذات الصلة بآثار التغيير الاجتماعي.

## إدراك القيم المشتركة مفتاح العالمية العادلة

**في عام ١٩٧٠ شاركت في مؤتمر قمة دول عدم الانحياز الذي حضره زعماء مثل:** جمال عبد الناصر، وجوزيف تيتو، وأنديرا غاندي، وجلالة الملك حسين، كانت تلك الأسماء من النوع الذي يمكنك أن تربطه بمفاهيم عصرهم. أما اليوم فلدينا مفاهيم مثل العولمة والتجارة الإليكترونية،

لكن يا ترى هل يوجد لدينا التزام سياسي لتحقيق رؤية تقوم على الاستقلال المتكافل (Intra-independence) وليس فقط الاعتماد المتبادل (Inter-dependence)؟ فالاعتماد المتبادل يمكن أن يعني أنني أستطيع أن أتناول غداء يقدم على مائدتك، لكن بوجود الاستقلال المتكافل بإمكاننا أن نتطلع إلى الانتقاء من بين تشكيلة أوسع من المأكولات.

إن الفجوة في مستوى الازدهار بين بلدان العالم ومناطقه سبب دائم لنشوب النزاعات والحروب. فإذا أراد الناس العيش بسلام، فعليهم تضييق هذه الفجوة أو سدها نهائيا. إن الفقر هو إنكار لحقوق الإنسان، وإهانة لكرامتنا الإنسانية الأصيلة، وللتنمية البشرية الإنسانية، وللروح الإنسانية. والفقر شر في حد ذاته؛ يحرمنا من الصحة، ومن فرص التقدم كأسرة إنسانية، ومن حرياتنا الأساسية، ومن احترام بعضنا للآخر. كما أنه يدمر احترامنا لأنفسنا باستهدافه روح إنسانيتنا بالذات. ويجادل البعض أن العولمة يمكن أن تزيد الفقر وتفاقم أكثر الهوة بين الأغنياء والفقراء. وهذا بدوره يؤدي إلى تزايد معدلات الجريمة والأمراض الاجتماعية، ويفسح أيضا مجالا أوسع للاستغلال والهيمنة بفتح قنوات أكثر لتفاعل آلياتها.

إضافة إلى ذلك، علينا أن نقر بأن نصف سكان العالم هم من النساء، وزهاء ١٠% من هؤلاء السكان من المعوقين. فإذا لم يدمج النساء والمعوقون بشكل أكبر في المجتمع وفي عملية التنمية، نكون قد أهملنا أكثر من نصف القدرات الفكرية للبشرية. وإذا عدنا إلى عام ١٩١١، وجدنا العبارة الآتية تقرأ عند افتتاح مدرسة لاكنو (Lucknow) الإسلامية للبنات: لا يمكن لأية جماعة أن تتقدم إذا كانت الأمهات فيها أميات، وغير قادرات على إسداء النصيحة اللازمة وتقديم التوجيه الكافي لأولادهن. وهي عبارة معادلة لمقولة روبي مانكنز (Ruby Mannekins) التي كثيرا ما يستشهد بها: "إنك إذا علمت رجلا فقد علمت شخصا واحدا؛ أما إذا علمت امرأة فقد

علمت أسرة. وقد كان الرسول الكريم محمد ﷺ أبا لأربع بنات. ومن أحاديثه -صلى الله عليه وسلم-: "الجنة تحت أقدام الأمهات" (رواه أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم عن معاوية بن جاهمة السلمي)، وكان لا يضيع فرصة لإبداء كلمة في صالح المرأة وتعزيز مكانتها. **وقد صرح بوضوح تام:** "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" (رواه ابن ماجه والطبراني والسيوطي).

لقد أفاد ماكس فان ديرستويل (Max Van der Stoel) المفوض السامي للأقليات القومية في منظمة الأمن والتعاون في أوربا (OSCE) و"المبعوث الخاص السابق للأمم المتحدة للتوفيق بين الأطراف وتحسين العلاقات" أنه، في عالم يتزايد فيه الاعتماد المتبادل، يجب أن لا تتخذ مسألة المحافظة على السيادة الإقليمية ذريعة لرفض حقوق الأقليات. إن حماية حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية ليس فقط من مقتضى القانون الدولي، بل هو من علامات الإدارة السليمة للصالح العام ( Good governance)، وأحد عناصرها يمكن أن يكون الإدارة الذاتية للصالح العام (Self-governance). إن إمكانيات الحكم الذاتي غير الإقليمي لم تحظ بالاهتمام الكافي. ويضيف قائلا إن أشكالا معينة من الإدارة الذاتية للصالح العام من الممكن إدخالها لتسهيل حماية حقوق الأشخاص الذين ينتمون إلى الأقليات وتعزيزها، وكذلك هويتهم وثقافتهم. وهذا الأمر له صلة عادة بالتربية والتعليم، وبالثقافة، وباستخدام لغة الأقلية، وبالدين، وباستخدام الرموز والأشكال الأخرى للتعبير الثقافي. وبالسماح للأقليات بأن يكون لها درجة معينة من التحكم بالشؤون التي تؤثر فيها بصورة مباشرة، ستصبح هذه الأقليات قادرة على حماية مصالحها وهوياتها، وتعزيزها من دون أن تعرض استقرار الدولة التي تعيش في كنفها وسيادتها للخطر. وفي نظر السيد فان ديرستويل، إن المفهوم الذي يسمى تقرير المصير الذاتي من الداخل (Internal Self-determination) يمكن أن يوازن بين مفاهيم تبدو

متضادة، وهي تقرير المصير الذاتي والمحافظة على الحدود. كما أن إيلاء اهتمام أكبر لهذه القضايا في صنع السياسة لدى الدول سيقلل من التوترات العرقية البينية؛ إضافة إلى أنه سيبني مجتمعات متكاملة تؤلف أساسا للدول القوية.

**إن القمة العالمية للتنمية الاجتماعية (WSSD) التي نظمتها الأمم المتحدة في كوبنهاغن عام ١٩٩٥م قدمت إجماعا جديدا على ضرورة وضع البشر محورا للتنمية. ومن بين هذه الالتزامات:** محو الفقر المطلق، وإنجاز العمالة التامة كهدف أساسي للسياسة، وتعزيز التكامل الاجتماعي القائم على تدعيم حقوق الإنسان وحمايتها، والمساواة والإنصاف بين النساء والرجال، وتنمية أقل البلدان نموا (The least developed): التنمية الاجتماعية، وإمكانية الحصول على التعليم والرعاية الصحية الأساسية. كما أن منتدى المنظمات غير الحكومية (NGO Forum)، الذي عقد في وقت متزامن مع هذه القمة، خلص إلى أن جميع المشاركين لديهم رؤية مشتركة لعالم يقر بوحدته الأساسية والاعتماد المتبادل بين أجزائه، فيما يقوم باحتضان كامل للتنوع البشري؛ بكل مظاهره الدينية والثقافية والإثنية والعرقية؛ حيث يكون للعدالة والإنصاف بين جميع سكانه الأولوية القصوى في كل المحاولات والمشروعات، وحيث يتم التمسك كليا بمبادئ الديمقراطية والمشاركة الشعبية؛ حتى يصبح بناء حضارة مسالمة ومتعاونة فيما بينها ومستدامة، وهي التي طالما تمنيناها وحلمنا بها، أمرا ممكنا بعد طول انتظار.

لقد حذر الأمين العام للأمم المتحدة من أن العولمة يجب أن تعني أكثر من استحداث أسواق كبيرة. والحق أن الإعلان الذي اعتمده اجتماع الألفية (Assembly Millennium) مؤخرا يجدد تأكيد الصلة بين جهودنا لإزالة الفقر وتحقيق التنمية البشرية، من جهة، وإنشاء نظام تجاري ومالي متعدد

الأطراف، مفتوح قائم على تطبيق القواعد والأنظمة، ويمكن التنبؤ بـه، ولا تمييز فيه، من جهة أخرى. إذن نحن بحاجة إلى ما وصفه مؤخرا السفير الإيطالي ديني (Dini) بنظام عالمي للسلوكيات والعادات والأخلاق ( World Ethic) لتوجيه العولمة. وعند إمعان النظر في هذا النظام الأخلاقي العالمي يتبين لنا أن القيم ليست حكرا على منطقة واحدة من مناطق العالم. فجميع الشعوب لديها ما تساهم به في هذه الأخلاقيات (Global Ethic).

إن إمكانية تحقيق مثل هذه الأخلاقيات العالمية متأصلة في إنسانيتنا المشتركة والقيم التي تشترك فيها دياناتنا: كتجنب إلحاق الأذى بالآخرين، والعطف، ومحبة الجار. فإذا أضفنا إليها تلك القيم التي تقوم عليها حقوق الإنسان: كالإقرار بالمساواة، والكرامة، والقيمة الإنسانية، والاحترام المتبادل، والتسامح، والعدالة، تجمعت لدينا أسس متينة لتلك الأخلاقيات ترتكز على توجه احتوائي (Inclusive Approach)، يضم إليه النساء والرجال في شراكة متكافئة، وينصت إلى أصوات الشباب وفئات أخرى طال تجاهلها. ولا بد من التأكيد على ضرورة حدوث نقلة نموذجية ( Paradigmatic Shift).

**كما أننا بحاجة إلى رؤية جديدة: رؤية تضرب بجذورها في أرض التواضع والاعتدال ونقد الذات:** رؤية ترنو إلى عالم أفضل يستند إلى الاحترام المتبادل، والتسامح، والعطف، والتضامن الإنساني. فنحن بحاجة إلى وضع دستور للسلوك الإنساني، يحدد العلاقات المهنية والشخصية بين الأفراد، ويدعو الحكام والحكومات على حد سواء لأن يجعلوا احترام حقوق الإنسان والمبادئ الإنسانية في صلب سياستهم وأفعالهم.

إن وجود أخلاقيات عالمية قوية لدعم الإرادة السياسية أمر ضروري لضمان قيام المجتمع الدولي باتخاذ إجراء فوري للتصدي للجريمة

والاغتصاب والإبادة العرقية، وغيرهما من الفظائع، وحتى نضمن تقديم مرتكبيها – فردا فردا – إلى العدالة. وعلينا أن نعزز بشكل أكبر التضامن الدولي القائم على إنسانيتنا المشتركة، باعتبارها العروة الوثقى بين جميع الشعوب.

## الإسلام والعولمة.. التكامل على صعيد القيم

ضمن السياق الإسلامي، تجد العولمة وقد حررت من هياكلها العصرية الضيقة، وأعطيت بدلا من ذلك بعدا روحيا وأخلاقيا. فالتكامل العالمي في الإسلام ليس عملية استيعاب سائبة، ويجب أن لا يكون كذلك مهما اختلف السياق؛ بل هو حركة مسؤولة تتجه نحو الإقرار بما يوحد الإنسانية من حيث اهتماماتنا كبشر؛ ومن ثم يسمح للإنسانية باستنباط أساليب لإعادة تقويم أولوياتنا، والعمل في سبيل الصالح العام الأكبر، وبناء نماذج جديدة للعمل الإيجابي، والتحلي بالمسؤولية في علاقاتنا (في أي حقل كان). وما دام الوضع كذلك، لم تعد ثمة حاجة إلى صياغة خطاب إسلامي منفصل للتعامل مع العولمة وآثارها، حسنة كانت أو سيئة، نظرا للطبيعة التكاملية للنظرة الإسلامية. وهكذا نجد أن العولمة قد تحولت إلى أداة للعمل الأخلاقي المسؤول.

بيد أن المجتمعات الإسلامية المعاصرة قد تشكلت، إلى حد كبير، بما ورثته في فترة خضوعها للاستعمار، لذلك فإن تنميتها المقارنة قد تم خنقها، كما هو الحال في كثير من بلدان العالم النامي. وعلينا أن نتفهم ذلك إذا كنا سنستوعب الأثر التفاضلي للعولمة. فالواقع الاجتماعي في هذه المجتمعات، في كثير من الحالات، عبارة عن فقر وأمية أو نقص في الحصول على التعليم، وإبقاء النخبة على الوضع الراهن من خلال الجبروت العسكري وتدهور البيئة، وغياب سيادة القانون والحريات المدنية. أما كيف ستواجه

هذه المجتمعات بعناصرها الواسعة الاختلاف، شتى التحديات التي تطرحها العولمة، فهو أمر متروك للزمن. لكن هناك مؤشرات مهمة متوافرة حاليا تمكننا من تفحص فوائد العولمة ومضارها بالنسبة لعالمنا.

منذ فترة تزيد على عشر سنوات، ونحن ندعو لإنشاء صندوق زكاة إسلامي، وأنا أتحدث هنا عن أهمية تقديم المساعدة للآخرين، ربما عن طريق فيلق سلام إسلامي يتألف من أطباء وجرّاحين وعمال اجتماعيين. **قد تكون هذه طريقة لنقول فيها للعالم إن الإسلام ليس انطوائيًا أو متقوقعا، كما أنه ليس إقصائيًا:** بل يشترك مع بقية الإنسانية في القيم الأخلاقية. لقد قيل إنه لا يمكن أن تقوم ديمقراطية عالمية من دون أن يكون هناك، من حيث الأساس، **أخلاقيات عالمية تشكل المسعى والمبتغى:** أخلاقيات تميز بين السياسة Politics والسياسات Policies بين الشعارات والجوهر، وأعتقد أننا في كثير من الأحيان -عند استجاباتنا الدولية لأمراض هذا العصر- أسأنا التشخيص، أو ربما أسأنا تفسير التحديات التي تطرحها حالات التباين واللامساواة.

إن العولمة ليست مجرد فكرة يمكن قبولها أو رفضها، بل هي حقيقة واقعة. والوقائع لا بد من إداراتها بأسلوب براغماتي مع توفر رؤية ضابطة. ففي المقام الأول، علينا أن نقوم بتوسيع مفهوم الإنسانية (Humanitarianism) كما جرى تفصيله في تقرير اللجنة المستقلة الخاصة بالقضايا الإنسانية الدولية التي كان لي شرف المشاركة في رئاستها مع الأمير صدر الدين أغا خان. إن الفكر الإنساني يتوجه أساسا نحو مصالح الناس ورفاهيتهم، ويشمل الإنسانية وحقوق الإنسان سواء بسواء، متعديا حدود القانون الإنساني الحالي، ويرتكز على أخلاقية التضامن الإنساني. كما أن تعزيز تعددية الأطراف، وهو المبدأ الذي تقوم عليه الأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات الدولية، هو أمر واجب أيضا. وفي هذا السياق، فقد نلت

شرف إدخال القرار المتعلق بالنظام الإنساني الدولي الجديد، الذي تم اعتماده من دون تصويت، من طرف الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٨٧م.

إضافة إلى ذلك، يقتضي الأمر وجود ثقافة للسلام تستخدم طرقا براغماتية وفاعلة للقضاء على التنازع وإعطاء الناس دليلا ملموسا على إمكانية تطبيق السلام. قد يتذكر المرء الدعوة إلى السلام التي صدرت عن محكمة لاهاي (Hague) عام ١٩٩٩م، والتي كرست لنزع الشرعية من الحرب، والسعي للتركيز من جديد على رؤية عالمية تعد النزاعات العنيفة غير شرعية، وغير قانونية، وغير عادلة من حيث الأساس. ومع أن الاتفاقات والمعاهدات عدت لأمد طويل أدوات ضرورية لتنظيم سلوك الدول، فإن اهتماما دون ذلك بكثير قد أعطي إلى توجه أشمل يتولى الأفراد: أي مواطني هذه الدولة ذاتها. وأحد المكونات الحيوية لهذا التوجه يستدعي إعادة النظر في المعنى المتعارف عليه لمصطلح الأمن، فيجب أن لا يقتصر معنى الأمن على تعريفه العسكري؛ لأن الأمن الاجتماعي والأمن الاقتصادي هما أيضا من متطلبات الاستقرار. وجميع الناس لهم الحق في حياة كريمة خالية من الرعب واليأس.

وهكذا يجب تشجيع الدول على احترام حقوق الإنسان الأساسية وتطبيقها إذا أريد لمواطنيها تجنب الاضطهاد السياسي، والأيديولوجي أو أي شكل آخر من أشكال الاستغلال.

لكن بالقدر نفسه من الأهمية، يجب القيام بمبادرة عالمية تستخدم جميع الموارد التي يمكن تصورها السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والثقافية، لتحسين الأوضاع المحلية وتقديم سيناريوهات للمصالحة.

والمعرضون للخطر بصورة خاصة هم الشباب الذين يشكلون حاليا غالبية سكان العالم النامي. والإقرار بهذا الأمر هو ما يهيئ لنا نقطة انطلاق ممكنة؛ ألا وهي تعزيز ثقافة عالمية للسلام بين الشباب. وإذا أمكن لثقافة السلام أن تصبح طريقة للعيش تتغلغل في شتى مناحي حياتهم فستمثل استثمارا عالي المردود في مستقبلنا المشترك.

لا بد لنا من الحديث عن مفهوم جديد ـ دستور للسلوك ـ لا يقوم على العقلانية والطريقة العلمية فحسب، وإنما يجب أن يراعي أيضا أهمية القيم. لقد تكلم السيد كوفي أنان، الأمين العام للأمم المتحدة، عن ضرورة حقن الأخلاق ـ نظام للسلوكيات الأخلاقية الروحية ـ في الأمم المتحدة والهيئات العالمية. إن مثل هذا الدستور المقترح، وهو نتاج سنوات طويلة من الحوار بين أتباع الأديان التوحيدية الثلاثة، ما فتئ يتطور بعيدا عن الأنظار. فهو يوضح الحقوق والواجبات، ويحثنا على الابتداء بما هو مشترك، ويحتضن مبدأي عدم الإكراه والتدفق الحر للمعلومات. وهو يدعو كذلك إلى تطوير إطار للاختلاف في الرأي، وقبول المسئولية عن الأقوال والأفعال على جميع الصعد، كما أنه يؤكد الرابطة بين اللاهوت والمنحى العلمي.

إن التضامن الإنساني يتطلب التقاء شتى الثقافات في نطاق الحضارة الإنسانية؛ كي تتفاعل من دون أن تتصادم، ويُغني بعضها بعضا. فلا توجد ثقافة منغلقة على نفسها بطبيعتها، أو ميَّالة نحو العنف. غير أن الثقافات التي تشعر بأنها مهددة قد تلجأ إلى الدفاع عن نفسها حين تُوصَد الأبواب في وجهها؛ مواجهة بذلك الإقصاء برفض مضاد.

إن دستورا للسلوك من شأنه أن يعنى بالكرامة الإنسانية. ومع أن البعض قد يجادل بأن الكرامة الإنسانية مفهوم مجرد، فإنها حقيقة وواقع من حيث ضرورة الإقرار بالبعد الإنساني، الذي هو بعد فوق قطري، مقابل ما

هو ثنائي القومية. ويجب أن يشمل هذا الدستور قوي التغيير: الأمم الجديدة، وحركات الشعوب، والنساء، والشباب. كما يتحتم أن يركز على المجموعات الأكثر هشاشة بيننا، فعليه أن يستمع إلى أولئك الذين شهدوا التعذيب، والاقتلاع من الجذور (التشريد والنزوح، وما شابه)، والإهمال. كذلك يجب أن يستمر في تأكيد السلطة الأخلاقية، مهما بلغت أهمية القوة السياسية.

والعالم المُعَوْلَم يحتاج إلى أخلاقيات عالمية. فعلى حد قول المجلس العالمي للكنائس، والمئات المئات من الاجتماعات حول هذا الموضوع — موضوع تحسين الحوار وتعميقه بين أتباع الأديان: "نحن نشترك في الأمور الآتية: أهمية منح الفقراء نفوذا، وتطوير المجتمع الأهلي؛ وبعبارة أخرى: السياسة من أجل الناس أو السياسة البشرية، وإدارة الصالح العام عالميا، لكن بوجه إنساني مؤكد".

## لماذا الدعوة لنموذج "جديد" للعلاقات العالمية؟

والأصوات المتعقلة التي تتعالى الآن تطالبنا بأن نقوم ببناء نموذج جديد للعلاقات العالمية. إذا نفترض أن النموذج القديم السائد قد انقرض بسبب من سياسة القوة والسياسة الواقعية (Realpolitik)؛ ذلك أن النموذج القديم يرى التنوع على أنه تهديد، ويقترح أن الأمم المتحدة يجب أن ترتكز على عقد اجتماعي عالمي جديد؛ بحيث تكون العالمية سمة متأصلة في الأمم المتحدة، بمعنى احترام الفردية.

ويتساءل المرء، عند تثبيت حقوق الإنسان على أنها ملزمة قانونيًا، إذا كان من الضروري النظر ليس فقط في التفاعل التاريخي بين الأديان والتوجهات الفكرية والتطورات الفلسفية، وإنما أن يؤخذ بالحسبان أيضًا العوامل الاجتماعية الاقتصادية. ويدل على ذلك تاريخ لجنة الأمم المتحدة المتعلقة بحقوق الإنسان لعام ١٩٦٦م، إذ نجد المواجهة مع التقاليد الفكرية

الفردية للمفاهيم الكلاسيكية لحقوق الإنسان مجسدة في كل من الميثاق الاجتماعي والميثاق المدني، أو العقدين الاجتماعي والمدني اللذين نظما القواعد المتعلقة بالمصالح الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. إن الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية تمثل عوامل تؤثر بشكل حاسم في تنفيذ حقوق الإنسان الاجتماعية.

ويمكن القول: **إن هناك ثلاثة أشكال من الخوف:** الخوف من الآخر، والخوف ممن هو من جنسنا نحن، والخوف من الإعلان عن عقد اتفاقات. فهل من الممكن، أو من المتصور، أن تصافح عدوًا؟ هل سنخضع للرقابة إذا تصافحنا أو تبادلنا الآراء؟ كيف نستطيع أن نعلن للعالم عن مشاعرنا بأننا ملتزمون بالسلام؟ فربما نحن نخشى السلام.

وإذ نحن في معرض الحديث عن الإساءات والإعانات التي حملها القرن الماضي، علينا أن نتذكر أن النماذج لم تكن كلها سيئة. بالتأكيد كانت هناك نماذج داخل نماذج أخرى، كثير منها جرى استحداثه أو بناؤه في مجال المجتمع الأهلي، حيث بذل جهدٌ واعٍ لتحسين العلاقات العالمية، وفتح طرق للتفاهم والحوار فيما بين الأديان، والثقافات، والأمم، والأعراق، والطوائف، على مستوى القواعد الشعبية.

**إن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان قدَّم لنا عددًا من النماذج ضمن لائحة البنود المدرجة فيه. فالبند الأول ينص على أن:** "جميع البشر ولدوا أحرارًا ومتساوين من حيث الكرامة والحقوق". ويمكننا أن نجد أصداء لهذا البند في صياغات مبكرة، مثل إعلان الرسول الكريم محمد ﷺ عن المساواة واستنكاره للتقسيمات القائمة على فكرة الأعراق أو الأجناس. فمقولة: لقد ولدنا جميعًا أحرارًا ومتساوين في الكرامة والقيمة ليست قولاً مقيتًا أو نابيًا على أسماع المسلمين، بل هي عنصر أصيل في بنية ثقافتهم.

وحين كُتِبَت مسودة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨م، رفضت النسبية الأخلاقية والثقافية بشكل حازم. **فاستنادًا إلى التوجه النسبي، من الضروري التسامح والقبول بالأفكار الأخرى على قدم المساواة، حتى أكثرها انحرافًا وتشوهًا، فيما يخص حرية الإنسان وكرامته: أي حتى تلك** الأفكار التي تنطوي على التحقير والعبودية. لكن هذا الأمر غير مقبول. فالمطلوب توفر أساس أخلاقي وقانوني، مقبول لدى الجميع لتكريس ميثاق حقوق الإنسان هدفًا عالميًا. إن هذا البحث عن المثل الأعلى المشترك المذكور في ميثاق الأمم المتحدة، الذي ينبثق عنه ذلك التنوع الثقافي لحقوق الإنسان، يصبح أداة للتوسط بين التفسير الفردي والجماعي لحقوق الإنسان. ومما هو راسخ في الحقوق الثابتة والأصلية التي يحتويها الميثاق العالمي يمكن أن نقوم نحن بتطوير أنماط أو نماذج فرعية، إن شئتم، لتعزيز التواصل والتعاون على مستوى القواعد الشعبية وداخل البلدان نفسها.

لقد كانت هناك بالتأكيد محاولات في الماضي لبناء نماذج جديدة، قام بها رجال دولة لاحتياجات إنسانية لدى الآخرين. فلوعُدنا إلى الوراء، إلى وقت مبكر، ووقفنا عند فترة الثمانمائة عام من الوجود العربي الإسلامي في إسبانيا، لوجدنا أن هناك فترات طويلة من التعايش السلمي بين الطوائف والجماعات كافة. فقد كان للمسيحيين ولليهود على حد سواء حضور في المناطق العربية الإسلامية؛ حتى إن فترات السلام والاستقرار امتدت زمنًا طويلاً كافيًا لنمو ثقافة عربية إيبرية جديدة وازدهارها. إن الأندلس التي تحقق فيها هذا التجديد الثقافي تبقى في أذهاننا نموذجًا مثاليًا للحوار بين الحضارات.

## مراحل الثقافة العالمية والدعوة للتجديد الثقافي

إن عالم اليوم أخذ يصبح، بشكل متزايد، أكثر ترابطًا واعتمادًا في ما بين أجزائه؛ حتى إن الحدود أضحت لا معنى لها. لكننا نسري نحو عالم واحد له جدول عمل واحد. ولو أن إحدى الثقافات انفردت بنفسها، وأملت شروط المرجعية على جدول الأعمال هذا، فإن صوغ نظام قيمي وفق هذه الثقافة وحدها سيؤدي إلى إقصاء الثقافات الأخرى، وإلى الظلم والتهميش؛ وبالتالي إلى النزاع والحروب. إن الحوار المفيد المثمر يحب أن يقوم على توجه لا إقصائي بالنسبة لجميع مكوناته. فالإسلام هو استمرار للحقيقة التي جاءت من خلال فترات سابقة من الوحي. والإسلام ينص على أنه "لا إكراه في الدين" (سورة البقرة: الآية ٢٥٦). كما يخاطب الآخرين من غير المؤمنين، قائلاً: "قل يا أيها الكافرون لا أعبدُ ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين" (سورة الكافرون: الآيات ١- ٦).

فلا بد من تكثيف الحوار بين الأديان، مع التركيز على طبيعة الدين، بدلا من العقيدة اللاهوتية. كما يجب إيجاد توجه قابل للتطبيق للتصدي للآثار السلبية الناجمة عن تدهور الاعتقاد الديني، متبعين في ذلك طريقة القياس بدلاً من المقارنة. أما الهدف فيجب أن يكون تسليط الضوء على أهمية القيم الروحية والأخلاقية التي يحتويها تراثنا الديني المشترك. غير أن مفتاح تحسين العلاقات بين الأديان، على المدى البعيد، يكمن في استحداث ثقافة سياسية واجتماعية تتمتع بالثراء الناتج عن التنوع. ولا بد من معالجة عدم التسامح عن طريق إدخال دستور إنساني للأخلاق في هذا العالم الذي نتقاسم العيش فيه.

لقد أحزنني كمسلم أن أرى التدمير كيفما اتفق لأماكن العبادة لدى البوذيين في أفغانستان. وأحزنني أكثر أن الأرض الوسط (Terra media)،

التي وجدت على مدى قرون بين الأديان، يجري تناولها بمرجعية سياسية. **وكنت أفضل لو أن مسلمين قد طُلِبَ إليهم التوجه إلى أفغانستان لتمثيل الأمم المتحدة؛ ذلك أن هناك تقاربًا ثقافيًا بينهم وبين حركة طالبان، ويمكنهم أن يقولوا لطالبان:** إن ما تقومون به شيء غير معقول ويجافي الحق والإنصاف، ولا يقبله المسلمون. غير أنه لا يمكننا السماح باستمرار هذا التدهور، وإلا فإن الأرض الوسط سيقضى عليها. كما أننا لا نستطيع الاستمرار في الادعاء بأننا معتدلون ونتبنى الوسط، إذا لم نكن ديناميين لتعزيز ذلك الاعتدال وتلك المنزلة الوسط. فإذا لم نكن ديناميين، وإذا لم ننهض بأنفسنا، وإذا بقينا هكذا لا يُحسب لنا حساب، فإن تلك المكانة الوسط ستضمحل وسيملؤها المتطرفون من كل فج وصوب بشعارات الكره والمواجهة.

**إن أنواع الرُهاب المختلفة:** كرُهاب الإسلام أو معاداة المسلمين، ورُهاب السامية أو معاداتها، والعنصرية أو التمييز العنصري، والفصل العنصري، هي، بحُكم تعريفها، مخاوف لا عقلانية ومبالغ فيها. وإذ نحضر للمؤتمر العالمي لمناهضة العنصرية، فإن الوقت يبدو مناسبًا -في سياق عملية الحوار بين الحضارات – لاستكشاف الروابط بين العنصرية والتمييز الثقافي والعرقي والديني؛ كي نفهم؛ ومن ثم نتحدى إمكانية التدمير الكامنة في رُهاب الإسلام وغيره من أشكال عدم التسامح والتمييز العنصري والديني. فمن الضروري كسر الحلقة المفرغة إذا أردنا تحقيق مستقبل أكثر إشراقًا وانسجامًا للبشرية. وباللغة العملية، يمكن للمرء أن يفكر فيما قامت به الرابطة البرلمانية الدولية من صوغ لدستور أخلاقي للسلوك المضاد للسامية، علنا نتوصل إلى إجراء مشابه مناهض لرُهاب الإسلام.

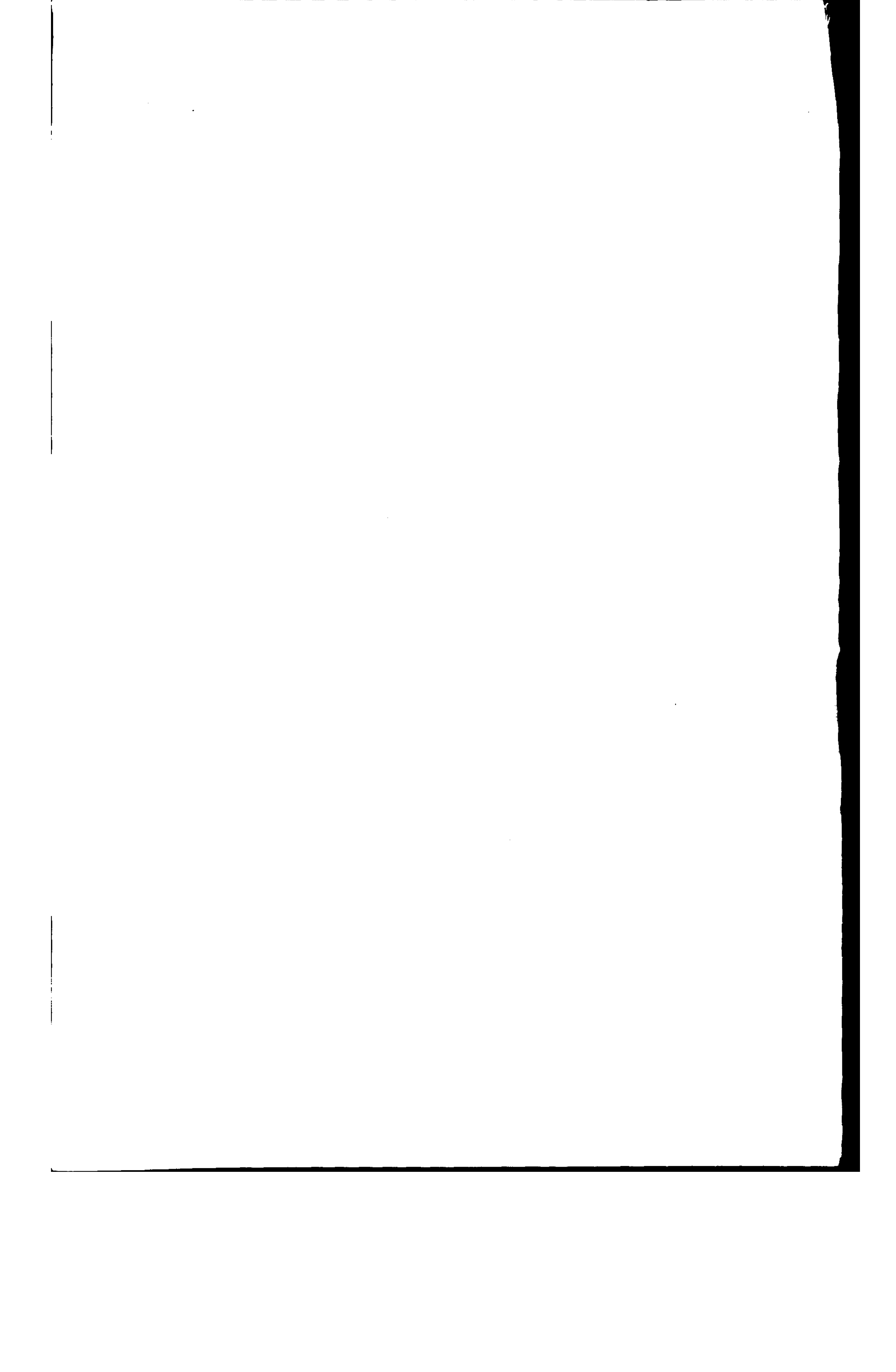
**قبل سنوات معدودة، وصفت لجنة رانيميد ( Runnymede Commission) في المملكة المتحدة رُهاب الإسلام – باضطراب – بأنه:**

ينطوي على عداء سافر، يكاد يصل إلى حد الاحتقار للمبادئ التي يعتز بهـا المسلمون أكثر ما يعتزون فيما يخص الحياة الإسلامية والفكـر الإسـلامي، بالغًا درجة تتفجر فيها الكراهية، وكأنها سيل عارم أو نزف حاد، في وسائل الإعلام الغربية التي تصور الإسلام بعدم التسامح مع التنوع، وأنه يسير على وتيرة واحدة، ويروج للحرب، ويتهالك عليها. **وتمضي فتقـول:** إن رهـاب الإسلام يعد تحديًا لا للمسلمين في الغرب وحسب، وإنما أيضًا لكل المفكرين الذين يحاولون التعامل مـع المـشكلات المعقـدة ذات الـصلة بالاحتكـاك الحضاري والنزاع.

إن الكراهية حزام غير صحي ودرع غير واق. ومثـل هـذه الكراهيـة المستعمرة كالغشاوة تُعمي أبصارنا عن إنسانية الآخر، وتحط من شأننا أمام الله والبشرية جمعاء. إن التعليم كما أعتقد، قد يكون المفتاح لحل كثير مـن مشكلاتنا:

امنع الناس من التعليم، تكن قد حرمتهم من حريات أساسية دعت إليهـا وأيدتها التقاليد الدينية منذ فجر الإنسانية. - احجب التعليم عن الناس، تُفسح المجال لتسرب التطرف والتعسف والتحامل؛ وهذه الأمور هي العدو الطبيعي للسلام والمساواة والإنصاف والتنمية. - احرم الناس من التعلـيم تعـرض نفسك للإساءات والإهانات؛ سواء أكنت في مجموعة فعلـى يـد أفـراد لا يعرفون الرحمة، أو كنت فردًا فعلى يد مجموعة متزمتة لعقيدتها. - أوصـد باب التعليم في وجه الناس، تكن قد مهدت السبل لحدوث ممارسات مقيتة لا تجد من ينتقدها؛ لا بل إنها تحدث أحيانًا تحت شعار التقاليد أو الدين. **عنـد تقديم إجابات للسؤال عن كيفية بنائنا – كإنسانية مشتركة؛ ككائن واحـد – نموذجًا جديدًا للعلاقات العالمية. علينا أن نسأل أنفسنا أولا بعض الأسـئلة البسيطة:**

- يا ترى ماذا حدث للتسامح؟
- وماذا حل لدعوتنا المُلحة لتجنب الأزمات؟
- ماذا حدث للإيمان السليم والنية الحسنة؟
- ماذا أصاب قدرتنا على المكافحة الفاعلة لكل ما نعرف أنه مقيت استنادًا إلى إنسانيتنا المشتركة؟



الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-10-2139-7